الثقافة الجديدة



فكر علمي ثقافة تقدمية

294

ملف : قضايا الديمقراطية

ومسائل التحول والبناء الديمقراطي

- سامي خالد ■ بيان جبر ■ مهدي العبيدي
- محمود عثمان ■ محمد عبد الجبار
- جعفر محمد ■ اسماعيل شاكر الرفاعي
- حمدان يوسف ■ هادي محمود
- فاخر جاسم ■ حكمت حكيم
- عبد الوهاب حميد رشيد ■ محمد الربيعي

- **خطاب الرأسمالية الليبرالية وأزمة الفكر الاشتراكي**

لطفي حاتم

- **لمحات من مظاهر الحياة اليومية في عاصمة الحضارة العربية الإسلامية (بغداد)**

علاء اللامي

- **أدب وفن**

الملتقى الثقافي - زهير الجزائري

أيها الموت الغريب - صادق الصائغ

رباعيات - محمد حسين الأعرجي

حفلة التيس - ت : صالح علماني

الثقافة الجديدة



فكر علمي - ثقافة تقدمية

تأسست عام ١٩٥٣

294

أيار ــ حزيران ٢٠٠٠

الاشتراك السنوي: 50 دولار أو ما يعادلها ــ 100 دولار للمؤسسات

يحول المبلغ مقدماً إلى حساب رقم: 42-467127

ANY HAMED AYOUB
BANQUE LIBANO-FRANCAISE
Bar Elias, LEBANON

أو إلى حساب رقم: 27-307020

COMMERCIAL BANK OF SYRIA
Branch 16 Damascus, Mr. FARES FARES

المراسلة باسم رئيس التحرير، فاكس رقم: 00331-64262562

E-MAIL: thakafajadida@hotmail.com

ترسل مواد (أدب وفن) باسم: مهدي محمد علي .

يرجى المراسلة بشأن توزيع المجلة وماليتها على العنوان:

سورية، دمشق، ص.ب: ٧١٢٢ أو ٢٦٢٢، تليفاكس: ٤٤٤٩٧٢٤

محتويات العدد

- الغلاف الأول: لوحة للفنان فيصل لعيبي
- الغلاف الأخير: لوحة للفنان نعمان هادي

كلمة العدد

حتى الفترة القريبة الماضية، ساد ظن وهيمن رهان على أن الديمقراطية ليست لازمة لعملية التنمية الاجتماعية والاقتصادية في البلدان النامية. غير أن التجارب التسلطية لأنظمة الحزب الواحد، القائمة في العراق والمنطقة، أظهرت، دون لبس، أن هذه القناعة وذلك الرهان لم يورثا عملياً إلا خسارة مضاعفة؛ فلا الثورات التنموية المزعومة أتت ثمارها الموعودة، ولا كبح الديمقراطية هيّأ بدائل سياسية مناسبة اجتماعياً أو مقبولة أخلاقياً. ثمة إذن مبررات نظرية قوية وحاجات سياسية ملحة لمراجعة هذه التجارب من زاوية إعادة ترتيب العلاقة بين السياسة والاقتصاد، الدولة والمجتمع، وبين إجماع الأمة وحقوق الأفراد والجماعات. على أن رؤية الطريق المسدود للنظم الديكتاتورية، في بلدان العالم الثالث إجمالاً، وجدت دليلاً إضافياً يسندها إثر انهيار الأنظمة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي سابقاً ودول أوربا الشرقية، وهو الانهيار الذي كان من أهم أسبابه ضعف المكونات الديمقراطية التي طالما اعتبرت ثانوية وشكلية بمقاييس تلك الأنظمة. والحال، فقد أصبحت الديمقراطية مناراً يهتدى به لا ينفك يعيد إلى الأذهان لوحة "الحرية تقود الشعوب" للفنان الفرنسي أوجين ديلاكروا، مثلما غدت شعاراً إيديولوجياً رائجاً يعكس حيناً، ويموّه، حيناً آخر، واقع وآفاق اللحظة المعاصرة.

بوسعنا أن نشير إلى ثلاثة أشكال من الاستجابة للديمقراطية: فهناك من يتعامل معها بمنطق استهلاكي من أجل تعبئة الأكثرية، عبر انتخابات مزورة في الغالب وتعددية حزبية كسيحة، وراء سلطة فئوية همها الوحيد احتكار الحكم بالسيف أو عبر صناديق الاقتراع، أو بكليهما عند تعذر الأمر. وهناك من يتعامل مع الديمقراطية بمنطق أكثر جدية مستفيداً من قدرتها على التلاؤم مع سياقات ثقافية وتاريخية مختلفة، ومن حتمية مرورها بأطوار انتقالية ومراحل تدريجية، كونها سيرورة تاريخية يرتبط تحققها بصراع فكري واجتماعي وليس بقرار سياسي. تجربتان تستحقان الإشارة إليهما في هذا المجال هما تجربتا إيران والمغرب. أخيراً، هناك من يدعو إلى الديمقراطية وفق ما يقتضيه نموذجها الأرقى: كثقافة دنيوية أساسها المساواة التامة بين الأفراد والجماعات، وكمنظور أفقي للصراع السياسي ينقل الصراع الاجتماعي إلى قاعة البرلمان، ويكسر دور الولاءات التقليدية في التحديد المسبق لمواقف الأفراد وانحيازاتهم. وفق هذا النموذج تبدو الديمقراطية واحدة من أكثر أشكال الحكم واقعية وعملية، لأنها "لعبة" لتنظيم الصراع وعقلنته، وليست مشروعاً ينقذ المجتمع من كل مشاكله.

إن النظر إلى الديمقراطية كـ"لعبة" سياسية بحتة، لا يعني البتة خلوّها من قواعد ومعايير ومؤسسات تميزها بوضوح عن أنظمة الحكم الأخرى، فهذه "اللعبة" تقضي، مثلاً، أن تكون السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية مستقلة عن بعضها وأن تتشكل الهيئات السياسية العليا (كالبرلمان) والدنيا (كالمجالس المحلية)، من أفراد منتخبين بصورة مباشرة أو غير مباشرة؛ وأن يتألف قوام الناخبين من مواطنين راشدين بغض النظر عن اختلافهم في العراق أو الطبقة أو الدين أو الثروة؛ وأن يكون للناخبين أصوات متساوية مع تمتعهم بحرية التعبير عن أفكارهم، ووجود خيارات حقيقية أمامهم ليصوتوا عليها؛ وأن تحسم الأكثرية العددية نتائج الانتخابات، دون أن يكون من حق الأغلبية تقييد حقوق الأقلية بضمنها حقها في أن تتحول، في يوم من الأيام، إلى أغلبية.

إلا أن هذه القواعد والمعايير لا تحمي الديمقراطية من التعامل معها تعاملاً بسيطياً مبتذلاً، أو من الالتفاف عليها بطريقة انتقائية مغرضة تذر الرماد في العيون، وتفرغ هذه "اللعبة" المتحضرة من محتواها لتحصرها في إجراءات شكلية وشعارات براقة لا تقدم ولا تأخر. وهذا ما يحدث، بشكل سافر، في عراق اليوم، إذ خرج نظام صدام حسين منتصراً في معركة الديمقراطية، كانتصاره في "أم المعارك"، ولكن هذه المرة بنسبة محسوبة ودقيقة هي: ٩٩% من الأصوات!!

كما أن الديمقراطية ليست محصنة تماماً إزاء سلطتي المال والإعلام، فلمن يمسك بهما، القوة على التأثير في آليات عملها وفقاً لمصالحه، وتجربة الديمقراطية الأمريكية شاهد على ذلك. والتاريخ يكشف دونما لبس أن إنجازات الديمقراطية التي انتزعت وتكرست مؤسسياً عبر صراع شديد الضراوة غالباً، لا تكتمل أبداً، وأن أفقها يتلازم مع الطموح الأزلي للإنسان في كسر اغترابه عن السلطة والمشاركة في صنع قراراتها.

يناقش ملف هذا العدد جوانب متنوعة من قضية الديمقراطية كمفهوم نظري واستخدامات إيديولوجية وشروط تاريخية، لكن أغلب مواده تركز على الحالة العراقية بحثاً عن مخرج سياسي لها من الأزمة العميقة والمزمنة التي تعتريها. إن تلهّف العراقيين إلى الديمقراطية لا يعادله إلا حرمانهم الطويل والمرير منها.

هيئة التحرير

(ملف)

رهان الديمقراطية

في برامج وسياسات قوى المعارضة العراقية

توخياً للمساهمة في التعريف الدقيق بمواقف قوى المعارضة العراقية من الديمقراطية وسبل الانتقال إليها، ولإجلاء ما يحيط هذا الموضوع من غموض والتباس وما يثور حوله من تساؤلات، توجهت مجلة "الثقافة الجديدة" بالسؤالين التاليين إلى العديد من الإخوة في المعارضة العراقية، وتلقت إجاباتهم مشكورة.

السؤال الأول: ما هي في نظركم الخصائص التي يجب أن يحملها النظام الذي يحل بديلاً عن النظام الدكتاتوري الراهن، وهلا تفضلتم بتحديد الأسس والمبادئ التي سيتأسس عليها ويعتمدها الدستور ومنظومة القوانين والبناء المؤسسي للدولة؟ وإذا كنت تجدون مفهوم البديل الديمقراطي غير مناسب لتحديد طبيعة هذا النظام البديل، فما هي طبيعته؟

السؤال الثاني: ما هي الوسائل اللازمة لتحقيق هذا النظام البديل؟ وهل توجد في تصوركم إمكانية للانتقال السلمي؟ وما هي الخطوات الانتقالية التي تمهد لقيام هذا البديل؟

ردود د. سامي خالد

عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي

البديل الديمقراطي هو ما نسعى إلى تحقيقه

جواب السؤال الأول:

بحث حزبنا الشيوعي العراقي طبيعةَ النظام الحاكم في بلادنا، في مؤتمراته واجتماعات اللجنة المركزية، واستخلص في وثائقه مجموعة من الاستنتاجات الهامة. كما نشرت وسائل إعلام الحزب العديد من الدراسات التي تناولت خصائص البديل الديمقراطي.

ويمكننا القول إن الاستنتاج الذي توصل إليه مؤتمر حزبنا السادس (تموز ١٩٩٧) حول طبيعة النظام، لازال يحتفظ بحيويته حيث أشار: "إن السلطة القائمة هي دكتاتورية فردية استبدادية مطلقة ذات طبيعة شوفينية تعتمد أساليب فاشية وممارسات طائفية في الحكم، وتتسم بنزعة عدوانية توسعية إزاء الأشقاء والجيران [...] وتمثل طبيعة السلطة في بلادنا محور وأساس المحنة العميقة التي يعاني منها شعبنا، وتشكل عاملاً رئيسياً في جميع الأزمات والكوارث التي تعرض ويتعرض لها".

وانطلاقاً من هذا الفهم، وهذا التحديد الذي يفسر الطبيعة الاستبدادية للنظام وفقدانه الشرعية، ينبغي النظر إلى النظام البديل الذي نطمح إلى تحقيقه. وحزبنا الشيوعي العراقي صاغ أيضاً وبوضوح الجواب عن هذا السؤال في ما أسماه بالبديل الديمقراطي المنسجم مع شعاره المركزي: "من أجل رفع الحصار عن الشعب وإسقاط الدكتاتورية وإقامة العراق الديمقراطي الفيدرالي الموحد". ويتجلى البديل الديمقراطي والآليات الكفيلة بتحقيقه في:

١- إقامة الحكومة الديمقراطية الائتلافية المؤقتة بعد إسقاط الدكتاتورية. وتتكون هذه الحكومة من القوى والتيارات الرئيسية والفاعلة، وتقوم بجملة من الإجراءات في مقدمتها إجراء انتخابات حرة نزيهة وفقاً لقانون انتخاب ديمقراطي، وتحت إشراف الأمم المتحدة لانتخاب مجلس تأسيسي.

ومن أبرز مهام المجلس التأسيسي إصدار دستور دائم للبلاد يشرع لإقامة نظام ديمقراطي يؤمن الحريات والحقوق الديمقراطية للشعب، وفي مقدمتها حرية التنظيم الحزبي والنقابي والمهني والاجتماعي وحرية الصحافة والتعبير عن الرأي وحرية العقيدة وممارسة الشعائر الدينية والقومية، وإلغاء كل أشكال التمييز القومي والديني والطائفي. على أن يقرر الدستور بوضوح مبدأ الفصل بين السلطات الثلاث: التشريعية، والتنفيذية، والقضائية ويثبت مبدأ التداول السلمي للسلطة ونبذ العنف في العلاقة بين القوى السياسية واللجوء إلى الطرق السلمية في معالجة المشكلات والصعوبات. كما يلتزم الدستور بمضامين المواثيق والعهود الدولية المتعلقة بحقوق الإنسان. وفي مقدمتها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

٢- الاعتراف الواضح والصريح بالحقوق القومية المشروعة للشعب الكردي وحل القضية الكردية حلاً ديمقراطياً على أساس الفيدرالية لإقليم كردستان العراق. وكذلك الإقرار بالحقوق القومية - الإدارية والثقافية للتركمان والآشوريين والكلدان. وإزالة كل ما يعرقل احترام التنوع القومي والديني والطائفي والمذهبي، وإشاعة روح التسامح والتآخي بين القوميات والأديان.

٣- المعالجة المسؤولة لكل مخلفات النظام الدكتاتوري عبر إزالة آثاره في جميع المجالات وإلغاء جميع القوانين والأجهزة والمؤسسات التي أقامها، ورفع الحيف عن كل المتضررين من سياسة وإجراءات الدكتاتورية بما فيه الكشف عن مصير السجناء والمفقودين وتقصي حالة حقوق الإنسان.

٤- اعتماد سياسة تضمن تلبية حاجات ومتطلبات المجتمع العراقي تقوم على الديمقراطية والتنمية ومن خلال الربط السليم بين البعدين، الاجتماعي والسياسي للديمقراطية. والدفاع عن مصالح الطبقات الاجتماعية الكادحة وإطلاق التنمية الاقتصادية القائمة على تعدد أشكال الملكية على أن يكون للقطاع العام فيها دور مهيمن، خاصة وأن بلدنا يتميز باقتصاد ريعي.

٥- اعتماد سياسة خارجية تقوم على أساس المصالح المشتركة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى واحترام سيادة واستقلال وخيار كل بلد، وإقامة علاقات التكامل والتعاون الاقتصادي والسياسي استناداً إلى ميثاق الأمم المتحدة وميثاق الجامعة العربية.

يضاف إلى ذلك توظيف العامل الخارجي، الدولي والإقليمي، لما فيه خير شعبنا عبر التعامل الإيجابي والتفاعل المسؤول معه، ولا يعني ذلك بأي حال التعويل عليه أو الارتهان إليه في إقامة البديل المنشود.

ويبدأ تنفيذ هذه التوجهات بعد إسقاط الدكتاتورية مباشرة حيث دلت التجربة على صعوبة، إن لم أقل استحالة، تحقيقها أو تحقيق جزء منها في ظل السلطة الاستبدادية التي يقف على رأسها صدام حسين. وما الدعوة إلى المصالحة مع هذه السلطة وإطلاق "التعددية" إلا محاولات للالتفاف على هذا البديل واحتواء النشاط المعارض وبالتالي استمرار النظام الدكتاتوري.

جواب السؤال الثاني:

من الضروري التأكيد هنا على الوسائل اللازمة لإقامة هذا النظام البديل إضافة إلى ما أشرنا إليه في جواب السؤال الأول.

وهنا أريد التأكيد على قضيتين:

القضية الأولى: نحن نرى أن وحدة قوى المعارضة الفاعلة هي الشرط الأساسي المطلوب توفره. وحزبنا سعى على الدوام من أجل العمل المشترك وإقامة التحالفات المنسجمة مع متطلبات نضال شعبنا. وإدراكنا لأهمية هذه المسألة ينطلق من أن تاريخنا المعاصر دلل بوضوح على أن انتصارات شعبنا اقترنت على الدوام بوحدة قواه الوطنية، مثلما اقترنت الهزائم والانكسارات بفرقة الصف الوطني. كما أننا ننطلق من قناعة بأن ليس هناك قوة أو حزب يمكن أن يكون بمفرده أداة ناجحة للتغيير الديمقراطي المنشود، وليس لانقلاب أو تمرد عسكري.

ولذلك كله استأثرت مسألة المعارضة وتنشيط فعالياتها ضد النظام الحاكم باهتمام كبير من لدن الحزب. وبهذا الصدد توصل المجلس الحزبي العام الخامس (تموز ١٩٩٩) إلى استنتاج مهم يقول إن "حالة التشتت التي تعانيها القوى المعارضة، وغياب الصيغ الفعالة لتنسيق نشاطاتها المناهضة للدكتاتورية، بما يرتقي بها ويطورها، شكلا ويشكلان مصدر قوة أساسياً للنظام، وعاملاً رئيسياً في بقائه، وفي استمرار وتفاقم المحنة التي تعصف بالشعب وبالبلاد".

وسعى حزبنا إلى ترجمة هذا التشخيص الدقيق في مواقف ملموسة. وإضافة إلى كل جهوده السابقة ونشاطاته المختلفة، أطلق مشروعه الوطني الديمقراطي الذي أقره المؤتمر السادس. كما وجه من منبر المجلس الحزبي الخامس نداء إلى قوى المعارضة، انطلاقاً من شعوره بحجم المخاطر التي تتهدد شعبنا وبلادنا وبضرورة الخروج من هذه الحالة، دعا فيه سائر الأحزاب والقوى والشخصيات الوطنية بمختلف انتماءاتها واتجاهاتها للالتقاء والاتفاق على قواسم مشتركة. وهنا بودنا الإشارة إلى أن حزبنا انطلق من رؤيته الواقعية حيث لم يدع إلى قيام جبهة وطنية عريضة نظراً لصعوبة تحقيق ذلك في حالة التشتت التي تعيشها قوى المعارضة، واكتفى بالدعوة إلى اعتماد خطاب سياسي موحد يقوم على الثوابت الوطنية واستقلالية القرار السياسي المعارض.

ولا حاجة هنا لذكر أهمية الحد الأدنى من النشاطات المشتركة وانعكاساتها الإيجابية على كفاح شعبنا وقواه السياسية في عمق الوطن.

كما لا نريد هنا استعراض ما قام به الحزب من نشاط ومساهمة في كل أشكال التعاون في الداخل والخارج. ولم يكن حزبنا يوماً عاملاً معيقاً أمام أي شكل من الائتلافات السياسية، حتى تلك التي لا تنسجم مع توجهاتنا والتي تعتمد أساساً التعويل على العامل الخارجي. وكانت صفحات جريدة الحزب "طريق الشعب" مفتوحة على الدوام لآراء مختلف قوى المعارضة العراقية لتدلي برأيها حول سبل الخروج من الحالة الراهنة. وها نحن نشارك في هذا المحور الذي دعت إليه مجلتكم "الثقافة الجديدة" وكلنا رغبة في أن يكون الحوار على صفحاتها عاملاً في توحيد نشاط المعارضة.

لكننا – وبأسف – نقول إن تعقيدات الأوضاع السياسية وتأثيرات العوامل الخارجية ووجود نزعات الاستئثار والهيمنة وتغليب الخلافات الثانوية على الرئيسية، وغيرها من العوامل، وبخاصة الاحتراب في كردستان العراق بين الحزبين (أوك وحدك)، حالت دون ارتقاء المعارضة إلى مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقها، وظلت غير موحدة وبالتالي عاجزة عن أداء مهمتها الرئيسية، ألا وهي إسقاط الدكتاتورية.

ورغم كل تلك العوامل الكابحة، الذاتية منها والموضوعية، لازلنا نعتقد بإمكانية تحقيق متطلبات الحد الأدنى.

القضية الثانية: أفترض بأن نضال شعبنا ضد الدكتاتورية يعتمد كل الوسائل السلمية والعنفية، السرية والعلنية، الداخلية والخارجية وهذا حق مشروع في مواجهة الحكم الاستبدادي الذي اعتمد سياسة الإرهاب الشامل إضافة إلى الديماغوجية والتضليل.

إن تحقيق النظام البديل سلمياً هو ما نطمح إليه مع جماهير شعبنا بعد كل الكوارث والويلات ولكن توفير مثل هذا السبيل لا يتوقف على الشعب وقواه الحية، لأن الدكتاتورية لن تتخلى طوعاً عن سلطتها. ونتذكر هنا مضمون ما يردده صدام، من يريد العراق منا، فليأخذه أرض بلا بشر. وهذا يعكس مدى صعوبة تغيير النظام القائم سلمياً.

وبذات الوقت نرى ثمة إمكانية للانتقال السلمي لتحقيق البديل الديمقراطي بعد الخلاص من الدكتاتورية. وهذا يتوقف، إلى درجة كبيرة، على تحقيق المهمة الأولى المتعلقة بالمعارضة ووحدة نشاطها ومواقفها إزاء القضايا الرئيسية. حيث سيكون ذلك ترجمة فعلية وعملية للقواسم المشتركة التي تتفق عليها قوى المعارضة ذات المصلحة في التغيير وأداته الفاعلة.

وهنا بودي الإشارة إلى قضية أعتقدها بالغة الأهمية، وهي أن أسس إقامة مجتمع مدني في العراق ينبغي أن تستند بالدرجة الأولى على عملية دمقرطة شاملة للحياة السياسية، وتتحقق هذه العملية من أعلى ومن أسفل، لأن المعركة من أجل الديمقراطية هي معركة سياسية، معركة على السلطة إضافة إلى كونها معركة اجتماعية.

فالظفر بالسلطة السياسية يفرض التعامل المسؤول معها وضمان ديمومتها وفاعليتها عبر الاستناد على المؤسسات، دون أن ننكر الأثر السلبي لمخلفات ومؤسسات الدكتاتورية.

وإذا قبلنا مقولة هيغل "إن الحاجة هي وعي النقص"، استطعنا أن نرى التطور التاريخي في هذا المجال على أنه سد حاجة يعقبه وضع جديد، ينشأ فيه وعي لنقص آخر يتحول إلى حاجة يتم البحث عن سبل تلبيتها.

وضمن هذا الفهم يمكننا معالجة مرحلة الانتقال إن صحت التسمية، ولنا ثقة بشعبنا وتعامله المسؤول. وفي تاريخنا الحديث والمعاصر أدلة لا تحصى على البسالة والتضحية من جهة، والإدراك الواعي والسليم لمتطلبات الواقع من جهة أخرى.

ردود المهندس بيان جبر

عضو المجلس المركزي

ممثل المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق وسوريا

جواب السؤال الأول:

سبعون عاماً ونيف من عسكرتارية المجتمع والدولة والإنسان وديكتاتورية القرار ذاق الشعب العراقي فيها الأمرين، وتحمل وما زال مجمل مشاريع الموت والحروب وحملات الإبادة والسحق وإقصاء الحريات وتناقص الأرض، ولم يعش العراق وشعبه وراهنه فضلاً عن مستقبله أي بصيص أمل بانفتاح سياسي – اجتماعي وبولادة نظام ودولة يعبران عن طموحاته وأهدافه في الحرية واستعادة الدور والأمن والاستقرار الداخلي.

هذا النظام لم يعمل على ممارسة سياسة هدم البنية الداخلية في العراق، الاقتصادية والسياسية والسيادية والحريات ومنظومة البناء وحسب، بل أتقن خلال هذه السنوات الطويلة على هدم العلاقات العراقية العربية وعلاقات العراق بالأسرة الدولية، وأعتقد أن البديل السياسي القادم لا بد

أن يأخذ بالاعتبار تأثيرات سياسات الهدم الداخلي والخارجي، وتنقية المناخ السياسي والاجتماعي والثقافي من مجمل الأمراض والأوبئة الطائفية والعنصرية التي مارسها واستخدمها بخبث لصالح استمرار وجوده في السلطة، لأنه ومنذ اليوم الأول لمجيئه إلى الحياة السياسية العراقية ١٩٦٨ اشتغل بالأدوات الطائفية والعنصرية والإبادة وخنق الحريات وهي عنوانات تقيه أية عملية إنقلابية شعبية أم سياسية وإيماناً منه أن تفتيت البنية الوطنية هي أولى مقدمات البقاء واللبنات الأساسية في "معمارية" نفي الآخر وعدم الاعتراف بحقه الوطني والمجتمع والإنسان وتشكيل الحياة في العراق.

إن وجود دولة بمقاس السلطة أقصى في العراق أي مفهوم معاصر للـ"دولة" وشتت بنية القرار الذي يمكن أن يساهم في صنع بلد يشارك فيه أبناؤه على اختلاف أثنياتهم وأطيافهم السياسية والاجتماعية والثقافية ببناء الأسرة العراقية الداخلية المتماسكة – القادرة على حماية الأمن والمدافعة عن قضاياه وأهدافه.

بهذه "الدولة" المنتجة بذهنية سلطة "المنظمة السرية" جاءت المؤسسات والبنى السياسية من برلمان وتشريعات وجيش وأجهزة أمنية وخطاب الدولة في الداخل والخارج وهو يحمل روح المنظمة السرية وخصائصها في الإدارة والتنظيم والعلاقة بالأمة وبالآخر العربي والإسلامي والدولي.. ولم يشهد العراق الذي تعود حضارته إلى سبعة آلاف سنة في التاريخ، وفي عهد السلطة أي اتفاق عقلاني التزمت به حكومة صدام ابتداء بمجيئها عام ١٩٦٨ مروراً بمذابحها بحق الحركة الوطنية والإسلامية وآخرها الحروب والأزمات وتسويق الإرهاب والحصار الدولي.

من هنا لا مناص من التغيير السياسي وإلغاء المؤسسات والأجهزة والخطاب والمنهج الشوفيني الذي بنيت عليه الدولة. وبطبيعة الحال، لا يمكن قيام نظام بديل بأدوات قديمة كما أن أسس الدولة القادمة لا بد وأن تصاغ وفق قاعدة التوازن والتعددية ورأي الأمة انطلاقاً من خلفيات التعدد الأثني والقومي والسياسي، وفوق هذا وذاك إطلاق السبيل الأرحب لمشروع الحريات الأساسية – هذا المشروع الذي تجاوزه النظام وألغاه ودمر بنيته بأساليبه وممارساته الإرهابية.

إن منهج الدولة في العراق القادم لا بد أن يحترم خصوصيات العراقيين ويؤكد هذه الخصوصيات في أدائه وخطابه وبرنامجه الوطني، وإلا فإن أي منهج مخالف لعناصر هذه الخصوصيات سيدخل العراق وشعبه في دوامة إرهاب ودم جديدتين ولن تكون سوى تعبير رديف من تعبيرات التناقض المرير الذي ابتلي به مشروع الدولة العراقية منذ قيامها عام ١٩٢١ التناقض بين المنهج والممارسة بين البرنامج وأدائه، بين العراق الذي يجب أن يكون وبين الفراغ!!.

جواب السؤال الثاني:

من المؤكد أن أي محاولة للتفكير بما يسمى "الانتقال السلمي" ستبوء بالفشل وستخسر المعارضة العراقية التي شخّصت أزمة النظام وأدركت أسباب هزيمته واعوجاجه، كل أوراق صدقيتها وتمثيلها لعناصر صراعها مع الدكتاتورية في العراق.

حتى لو افترضنا أن المعارضة العراقية آمنت بـ"الانتقال السلمي" وأقنعت نفسها جدلاً بإمكانيته، فإن روح المنظمة السرية التي جبل عليها منطق الدولة في العراق لن تستطيع التعايش مع هذا المبدأ، ولا أريد هنا أن أستعيد التاريخ القريب ومحطات "الخيانة" و"الطعن" من الخاصرة التي جُبل عليها النظام في تعاطيه مع حركة الأحزاب والمعارضات السياسية التي دخل معها باتفاقات وكيف انقلب عليها وطارد كوادرها وقدم أبرز قادتها إلى محاكم التفتيش!.

النظام في تصوري، عصابة حملت ثقافة القرى واستوطنت المدينة واستطاعت في غضون ثلاثين سنة من وجودها في السلطة نزع عناصر المدينة من ثقافة وحريات ومشاركة ديمقراطية وسعة في استيعاب متغيرات المجتمع وقدرة على حاكمية البلاد.

كما أن هذه العصابة التي جاءت إلى الدولة بقفازات سوداء شكلت منظمة سرية غاية في التمرد على التقاليد السياسية المتداولة حتى في أكثر البلدان بعداً عن المدينة والمدنية، واستطاعت هذه المنظمة – العصابة في هذه الفترة من إقامة كيان سياسي فاقد لمعايير السيادة الكاملة، مطرود من الأسرة العربية والإسلامية والدولية، مشاكس ويعتمد الإرهاب في بسط سيطرته وتنفيذ أهدافه السوداوية في الكيان العربي عريق في ممارسة الجريمة، وقد وزع دمويته المنظمة على كل المشهد الاجتماعي والسياسي وأثنياته المحرومة.

لا أجد أية إمكانية لممارسة هذا الانتقال ولا يمكن بأي حال التنظير لها ونكون نداعب أحلامنا المسكونة بقلق العمل الديمقراطي إذا تصورنا مرة أن الحالة في العراق تتسع لذلك.

وفي يقيني أن أوضح السبل لتحقيق "الانتقال" هو العمل على تهيئة المناخ الطبيعي للشعب العراقي بعد إسقاط النظام هذا إذا كنا جادين فعلاً بتسويق هذا المفهوم وإطلاقه في العراق القادم، وهذا العمل لا يتحقق إلا بالعمل الميداني عبر الاعتماد على حركة الشعب العراقي وقواه الوطنية – الثورية وتوحيد كافة الجهود والمشاريع الوطنية سعياً إلى إسقاط النظام.

من هنا أعتقد أن مطلب إسقاط النظام هو المقدمة التي لا بد أن تنجزها المعارضة العراقية لتحقيق الانتقال السلمي، ففي الأجواء الطبيعية والهادئة والتثقيف المنهجي للأمة عبر عناوين المشاركة الوطنية والحق في الاقتراع السري واستنطاق رأيها في كل المجالات التي تتوقف عليها مصلحة الأمة والسيادة، تنسجم الجماهير مع مطالب هذا الانتقال وتحقق معه وبه جميع أهدافها على العكس من كل الجهود الزائفة التي بذلها النظام في "انتخاباته التشريعية الأخيرة"، فرغم الحصار والكبت والإجبار وقوانين الخوف لم يستطع النظام أن يعكس صورة "الديمقراطية" التي يحاول تسويقها للخارج، لأن العالم كما الشعب العراقي يدرك جيداً خلفية هذه الـ"ديمقراطية" ولونها وشكلها الإرهابي.

نحن مدعوون إلى مشروع ثوري – شمولي نساهم جميعاً في تأسيسه والدفاع عن عناصره وتثقيف الأمة بخطابه وبغير الأسلوب الثوري والمشروع الاجتماعي والسياسي الشعبي لا يمكن أن نحقق لشعبنا وأمتنا في العراق ما يصبو إليه من أهداف.

ردود الأستاذ مهدي العبيدي

عضو قيادة قطر العراق لحزب البعث العربي الاشتراكي
رئيس لجنة العلاقات الخارجية في لجنة تنسيق العمل القومي الديمقراطي

بما أن شعب العراق شعب عربي وذو حضارات قديمة قدم التاريخ أسهمت في بناء الصرح الحضاري وما زالت معاهد العالم وجامعاته تدرس قوانين حمورابي ومسلته الشهيرة، ثم حضارة الإسلام وتطور النظم وبخاصة المالية منها، إضافة إلى علوم الفلك والرياضيات والجغرافيا وغيرها، فحري بشعب هذه حضاراته وهذا تاريخه أن يستمر بإسهاماته في خدمة الإنسانية، وأجدني مضطراً لربط الماضي بالحاضر واستشراف المستقبل حيث شعب العراق شعب متعطش للديمقراطية نتيجة الاضطهاد وكبت الحريات وعدم احترامه حقوق الإنسان وهضم حقوق الأقليات والاعتداء على حريات ومعتقدات الآخرين وفرض نوع من الفكر الذي لا يتماشى مع رغبات الشعوب، والإنسان بطبيعته تواق إلى الحرية ومتعطش إلى الديمقراطية، فالشعب متعطش إلى دستور دائم يكون بمثابة الضامن لحقوق الشعب. لقد سيطرت الدساتير المؤقتة التي خلقتها الظروف الاستثنائية التي مر بها العراق مما أثقل كاهله بالقوانين الاستثنائية الجائرة التي يعاني منها شعب العراق والديمقراطية تعني ممارسة الشعب لحقوقه في كافة الميادين، وفي مستقبل العراق الديمقراطي الذي يأخذ دوره في كافة المؤسسات الإقليمية والدولية ونبذ أسلوب العنف في معالجة المسائل الداخلية منها والخارجية والاحتكام للقوانين والأعراف الدولية.

من الصعوبة بمكان الانتقال السلمي مع نظام مهمته افتعال المعارك داخلياً وخارجياً وعدم مراعاة مصلحة الوطن، وهضمه لحقوق الإنسان وتشريده ملايين العراقيين ومن كل الأطياف تحت حجج واهية منافية لأبسط الحقوق والأعراف الدولية والتنكر لقيم وتقاليد شعبنا وفق قوانين جائرة دون أي اعتبار. والانتقال السلمي هو من نظام ذي تراث ديمقراطي يتبع أساليب الحوار كطريقة لمعالجة القضايا المختلف عليها وهذا ما تلجأ إليه الشعوب والأنظمة المتحضرة وفي المقدمة منها فسح المجال للشعوب في اختيار ممثليها وتشكيل المؤسسات الدستورية، ومن يتصفح تاريخ هذا النظام لا يجد فيه ما يشير إلى احترام الآخرين بدءاً من قانون الحكم الذاتي مع الأخوة الأكراد عام ١٩٧٠ وإلى شنه الحروب الداخلية والخارجية وقتله عشرات الألوف من أبناء شعبنا، إلى حربه مع إيران واجتياحه الكويت وآخرها اللعبة البرلمانية المتمثلة بنسبة ٩٩،٩٩% وشروط إجازته للأحزاب، دعني عن ترداد ما طرحه وحتى من ساروا في فلكه لم يسمح لهم بالترشيح وكان ما كان.

أما الوسائل اللازمة لتحقيق النظام البديل فتتلخص في:

١) اعتراف كل منا بوجود الآخر وقد أثبتت الأحداث عدم قدرة حزب أو جماعة لحكم العراق.

٢) الاعتراف بمبدأ الأكثرية والأقلية واحترام الأكثرية للأقلية.

٣) الاحتكام للشعب في انتخاب قياداته عبر انتخابات حرة ديمقراطية وتأسيس المؤسسات الدستورية عبر ممارسة الشعب في خلقها.

٤) معالجة القضية الكردية معالجة جذرية وفق الأساليب الديمقراطية وإيجاد الوسائل التي تجعل العمل المشترك يمر عبر بوابة التفاهم مع الأخوة الكرد.

٥) الاستفادة من تاريخ العراق النضالي في إيجاد مرجعية تضم القوى الأساسية صاحبة التاريخ النضالي الطويل وعدم هضم حقوق الآخرين وأعني بها الجبهة الوطنية وسواء قبل إسقاط النظام أو بعد إسقاطه، وحتى مجيء حكومة ديمقراطية معبراً عنها ديمقراطياً.

ردود الدكتور محمود عثمان

شخصية كردية مستقلة

جواب السؤال الأول:

لقد ناضل شعبنا العراقي بعربه وكرده وأقلياته وكذلك قواه الوطنية منذ عقود بشتى الوسائل من أجل إنهاء الدكتاتورية وتحقيق الديمقراطية في بلادنا باعتبارها المفتاح لحل قضايا الشعب الأساسية. وهذا يعني عملياً إيجاد نظام ديمقراطي تعددي فيدرالي يؤمن بالتداول السلمي للسلطة ويضمن احترام حقوق الإنسان والحريات العامة وبناء مجتمع مدني سليم. لقد علمتنا التجارب المريرة التي مر بها العراق وشعبه، أن غياب الديمقراطية والتعددية الشمولية على دست الحكم وخاصة النظام الحالي الموجود منذ أكثر من ثلاثة عقود، كانت ولا تزال السبب الرئيسي فيما آلت إليه أوضاع البلاد وإنه بدون إيجاد تغيير جذري في كل هذا لا يمكن حل مشاكل البلاد وإنهاء معاناة شعبنا المريرة التي تفاقمت كثيراً جراء فرض الحصار الجائر عليه منذ عشر سنوات من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها، هذا الحصار الذي يلحق الضرر بالمواطنين أكثر بكثير من النظام. كما أن هذه الحقائق والوقائع هي التي خبرتها حركة شعبنا الكردي التحررية وقوى شعبنا الكردي الوطنية التي لم تستطع الوصول إلى حل ديمقراطي منشود للقضية الكردية لحد الآن، عن طريق الحوار مع النظام الذي دأب على استعمال العنف والتآمر ضد الكرد وأهدافهم المشروعة المتمثلة الآن بالفدرالية، التي أقرها البرلمان في كردستان عام ١٩٩٢، ضمن إطار عراق ديمقراطي تعددي.

إن الخصائص التي ذكرناها عن البديل للنظام الدكتاتوري الراهن تعطي الملامح العامة لهذا البديل فقط، أما فيما يتعلق بأسس ومبادئ الدستور ومنظومة القوانين وغيرها من التفاصيل المربوطة بإرساء أسس المجتمع المدني وحكم القانون فستترك للبرلمان الذي سينتخبه الشعب بحرية بعد سقوط النظام الحالي.

جواب السؤال الثاني:

إن الوسائل اللازمة لتحقيق هذا النظام البديل تتمثل أولاً بتشديد نضال شعبنا وقواه الوطنية المؤمنة بتحقيق هذا الهدف في سبيل إيجاد التغيير الجذري في بلادنا، على أن تعمل هذه القوى معاً ووفق قواسم مشتركة تتفق عليها بالحوار وعلى أسس ديمقراطية، كذلك على هذه القوى أن تتبنى الديمقراطية واحترام الرأي الآخر بشكل ملموس قولاً وعملاً وتبتعد عن كل ما يعتبر

احتكارا للعمل السياسي حيث أنها لا تستطيع المطالبة بالديمقراطية والنجاح في تحقيقها إذا لم تلتزم بها هي. كما أن على هذه القوى أن تتبنى خطابا سياسيا يتصدى للتغيير نفسه ولحل مشاكل البلاد الأساسية وفي مقدمتها القضية الكردية على أساس الفيدرالية التي هي خيار الشعب الكردي في هذه المرحلة. وينبغي على هذه القوى أن تحاول معا إيجاد الآلية الفعالة والضرورية لنضالها المشترك من أجل تحقيق البديل. كذلك فإن على قوى المعارضة الوطنية أن تأخذ بنظر الاعتبار الأبعاد الإقليمية والدولية لقضية شعبنا العراقي وأن تدرس بجد إمكانية الاستفادة من بعض جوانبها الإيجابية بعيدا عن التبعية لهذه الدولة أو تلك وعن المراهنة عليها في تحقيق التغيير المنشود حيث أن الالتصاق بسياسات الدول أثبت فشله وشكل على الدوام عاملا سلبيا ومضرا في مجال عمل المعارضة العراقية.

أما بالنسبة لإمكانية الانتقال السلمي إلى هذا النظام البديل فإنني لا أرى مجالا لتحقيقه وذلك حسب تجاربنا مع النظام الحالي واختبارنا لعقليته وسياساته خلال العقود الثلاثة الماضية والتي تخللتها فترات كانت لدينا نحن الكرد فيها اتصالات مباشرة مع مسؤولي النظام خلال جولات طويلة من المفاوضات إضافة إلى معاناتنا الرهيبة من سلوكهم الهمجي في كردستان خلال حرب الإبادة العنصرية الطويلة ومعايشتنا لسياساتهم الإرهابية ضد أبناء العراق بشكل عام، والمستمرة لحد هذا اليوم. نحن لم نر طوال هذه المدة أية مبادرة أو نية جدية من قبل النظام للانفتاح على الشعب وأي توجه ملموس نحو إيجاد تغييرات في سياساته، سواء على صعيد العراق أو على الصعيد الكردي. ليس هذا فحسب بل إن هذا النظام ورط الشعب والبلد في حروب داخلية وخارجية كلفت أبناء العراق الكثير دون ضرورة أو أي وجه حق ودون أي اعتبار للنتائج. لقد مكنت كارثة غزو النظام العراقي للكويت القوى الخارجية لتقوم باتخاذ أشد الإجراءات ضد العراق كبلد في سنة (١٩٩٠ – ١٩٩١)، هذه الإجراءات التي استهدفت وتستهدف في واقع الأمر عزله وتدمير طاقاته والإضرار بشعبه وتعميق معاناته بشكل خطير.

ردود الأستاذ محمد عبد الجبار

حركة الكوادر الإسلامية

إعادة بناء على أسس سليمة تضمن حقوق الجميع

الهدف المركزي الذي نسعى إلى تحقيقه هو إعادة بناء الدولة العراقية على أسس جديدة تضمن عدم إعادة إنتاج الدكتاتورية، من جهة وتضمن تحقيق العدالة وسلامة التمثيل الشعبي والأمان للمواطنين والتقدم الاجتماعي والسلام مع الذات والآخرين من جهة ثانية.

ويتحقق هذا من خلال بناء الدولة العراقية الجديدة على الأسس التالية:

أولا، الديمقراطية، بمعنى إسناد تولي المناصب العليا في الدولة إلى الإرادة الشعبية المشخصة

إما بالاستفتاء العام المباشر، أو عبر المجالس التمثيلية، أو كلاهما. وهذا يتطلب توفير الأسس الدستورية والقانونية لضمان الحريات السياسية والمدنية والتعددية الحزبية وقيام المؤسسات التمثيلية، وهي أمور جوهرية لضمان التعبير الحر عن الرأي الشعبي، كما يتطلب إقرار مبدأ التداول السلمي للسلطة.

ثانيا، الوطنية، بمعنى أن الدولة تعتبر أن الكفاءة الشخصية والمواطنة الصالحة أساس في تولي المناصب والمسؤوليات في الدولة والمجتمع. إن الامتيازات الطائفية مثلها مثل الاضطهاد الطائفي ظواهر متناقضة مع الطبيعة الوطنية للدولة. إن المشاركة الاجتماعية العامة في المناصب العامة، بمعنى مساهمة مختلف التكوينات الاجتماعية في تولي المناصب دليل على ديمقراطية الدولة ووطنيتها، كما أن انحصار تولي المناصب العليا بفئة قليلة طائفة كانت أم حزبا أم غير ذلك، بالشكل الذي تقوم عليه الدولة العراقية الحالية، أمر يتناقض مع الوطنية والديمقراطية.

ثالثا، اللامركزية، يجب أن تكون الدولة العراقية دولة لامركزية، بمعنى التوسع في توزيع السلطات بين المركز وبين الأقاليم أو الولايات أو المحافظات بالشكل الذي يحول دون تمركز السلطة في يد الحكومة المركزية، وهذا يتطلب إعطاء المحافظات والمسؤولين المحليين صلاحيات واسعة في الأمور التي تخص محافظاتهم ومناطقهم ومسؤولياتهم. وستبقى قضايا الدفاع والسياسة الخارجية والتخطيط الاقتصادي ضمن صلاحيات السلطة المركزية. أما مسائل التعليم والمناهج الدراسية والإعلام والتنمية الاجتماعية والاقتصادية والزراعية والصناعية فسوف تحتل مساحة كبيرة في صلاحيات الإدارات المحلية، لأن هذه الأمور يجب أن تتم بالتناسب مع المتطلبات المحلية للمحافظات سواء من الناحية الطبيعية أم الاجتماعية والثقافية.

ويتعين إعادة النظر بالتقسيم الإداري (المحافظات) للعراق لإيجاد وحدات إدارية متجانسة يمكن من خلالها تطبيق اللامركزية بصورة سليمة.

وسوف تحتل المنطقة الكردية موقعا خاصا في إعادة النظر هذه بعد الإقرار بحق تقرير المصير بالنسبة لأكراد العراق الذين اختاروا الفيدرالية كصيغة لتقرير المصير.

رابعا، الإنسانية، بمعنى أن الدولة العراقية يجب أن تقر مبادئ حقوق الإنسان السياسية والمدنية والاجتماعية والاقتصادية، المعلنة في الوثائق العالمية، ويجب أن تدخل هذه الحقوق في صلب تشريعات الدولة بما في ذلك الدستور الدائم. إن الدولة العراقية الجديدة يجب أن تتقيد بهذه الحقوق في تشريعاتها وممارساتها وعلاقاتها مع مواطنيها. إن انتهاكات حقوق الإنسان بما في ذلك أشكال التمييز الطائفي أو القومي يجب أن تعتبر من الجرائم التي يعاقب عليها القانون.

خامسا، القانونية، بمعنى أن الدولة العراقية يجب أن تكون "دولة القانون" التي تعلو سلطة القانون فيها على سلطة الحاكم، وتكون ممارساتها وممارسات مواطنيها والعلاقات بينهم قائمة على أساس القانون.

سادسا، ويجب أن تحترم الدولة العراقية في ممارساتها وتشريعاتها الهوية الإسلامية الحضارية للمجتمع العراقي.

ومن الناحية العملية فإن بناء الدولة في العراق بعد الإطاحة بنظام صدام يمكن أن يتم على الشكل التالي:

أولا، تشكل حكومة انتقالية ائتلافية تتمثل فيها جميع التكوينات الثقافية والقومية والسياسية في المجتمع العراقي بشكل يدعو إلى الاطمئنان، وتأخذ على عاتقها اتخاذ الإجراءات الكفيلة بالانتقال بالبلاد إلى الحياة السياسية السليمة، وعلى رأس هذه الخطوات إجراء انتخابات عامة لتشكيل الجمعية التشريعية التي تتكفل وضع الدستور الدائم للبلاد، الذي يكون أساس إعادة بناء الدولة العراقية بالمواصفات السابقة، ثم عرض هذا الدستور على استفتاء شعبي عام. وفي هذه المرحلة يجب أن تنجز عملية إعادة النظر بالتقسيمات الإدارية للعراق (أي المحافظات أو الولايات).

تقوم الحكومة الانتقالية بإنجاز خطوات عاجلة أخرى مثل إطلاق الحريات السياسية والإعلامية والحزبية، حل مشكلة المهاجرين والمهجرين، إطلاق سراح المعتقلين والمسجونين، حل مشكلة عوائل الشهداء وضحايا النظام الدكتاتوري وغير ذلك.

ثانيا، تجري انتخابات برلمانية على أساس الدستور الجديد الذي ينص على إقامة مجلسين أحدهما مجلس النواب والثاني مجلس الولايات. وبقيام المجلسين تنتهي مدة ولاية الحكومة الانتقالية وتنحل الجمعية التشريعية، وتتشكل الحكومة الجديدة على أساس نتائج الانتخابات البرلمانية.

ثالثا، تجري الانتخابات في المحافظات لتشكيل مجالس الشورى والمجالس البلدية في المحافظات وانتخاب المحافظين. وهذا يعني أن سلطة تعيين المحافظين سوف تسحب من السلطة المركزية وتحال إلى سكان الولايات، ينظم القانون هذه العملية.

رابعا، يشكل مجلس للنظر في حالات التمييز الطائفي أو القومي وانتهاكات حقوق الإنسان التي قد تمارسها السلطات التنفيذية المركزية أو المحلية، ينظم القانون أو الدستور طريقة تشكيل هذا المجلس، إما بالانتخاب أو من خلال مجلسي النواب والولايات.

ليست الديمقراطية خيارا مناقضا للإسلام ولا بديلا عنه، بل إن من شأن الديمقراطية بما توفره من آليات سلمية لإدارة الحياة السياسية وتداول السلطة أن تكون إطارا سليما للدعوة إلى الخيار الإسلامي غير المتناقض بدوره مع البديل الديمقراطي.

ولا نتصور أنه من الممكن تحقيق الانتقال السلمي نحو البديل الديمقراطي، فضلا عن البديل الإسلامي، في ظل السلطة الدكتاتورية الحالية في العراق. إن الإطاحة بهذه السلطة هي الشرط الأول والأساس لتحقيق ذلك.

ردود الأستاذ جعفر محمد

ممثل منظمة العمل الإسلامي، عضو المكتب السياسي

جواب السؤال الأول:

إن الديمقراطية (الاستشارية) أفضل أساليب الحكم لأنها تهيئ الجو الكامل للحرية، وفي الحرية تظهر الكرامة الإنسانية من جانب، والكفاءة الإنسانية من جانب آخر، فتتموا الملكات وتبرز العبقريات، ويعمل النقد البريء على إظهار عيوب الاستنباطات ومؤاخذة التطبيقات للقوانين، وبذلك تظهر الحياة الأصلح فالأصلح، وهو يوجب إعطاء الإنسان حاجاته ويقدم الإنسان إلى الأمام، كما أن المراقبة الدائمة من الرقباء توجب سد الإنسان خلله، وستر عيبه، خوفا من ألسنة النواب في أروقة المجلس، وهنا تقف السلطة التنفيذية موقف الحذر، كما أن النواب لا بد لهم من العمل الجاد المثمر لأنهم جاءوا إلى المجلس من أجل ذلك، وإذا حادوا سقطت حرمتهم عند الجماهير وفضحهم في الإعلام المسؤول، وانقطع أملهم في انتخاب الشعب لهم في المستقبل.

هذا ما نفهمه عن الديمقراطية ولكي يأتي النظام الذي يحل بديلا عن نظام صدام حسين، بديلا حضاريا عنه، فلا بد من أن يعتمد على الأسس التالية:

أولا: أن يعتمد على الشورى والرجوع إلى رأي الأكثرية من أبناء العراق، والشورى المطلوبة لا بد أن تعتمد على ما يلي:

١) حاكمية الناس، وحقهم في اختيار نوع وأشخاص الحكم، وحقهم في إقرار الدستور وتقرير مصائرهم في الحرب والسلم.

٢) ضرورة قبول الأقلية بحكم الأكثرية، مع التزام الأكثرية بتأمين حقوق الأقلية.

ثانيا: تأمين الحريات العامة بما فيها حرية الاجتماع وحرية التنظيم وحرية المعارضة.

ثالثا: تأمين الحريات العامة، بما فيها حرية الاجتماع وحرية التنظيم وحرية المعارضة.

رابعا: احترام حقوق الإنسان بما فيها حقوقه الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

خامسا: اعتماد التعددية بدلا عن الاستبداد وحكومة الحزب الوحيد، ولا شك أن المهم هو المحتوى وليس الإطار، والمعنى وليست الأسماء، فلا يهم أن نسمي ما ينبثق عن هذه الأسس بالنظام الديمقراطي أو نظام الشورى أو التعددية السياسية.. أو أي شيء آخر.

سادسا: الفصل بين السلطات الثلاث (القضائية – التشريعية – التنفيذية).

سابعا: استقلالية القضاء باعتباره أخطر وسيلة قانونية تسمح للحاكم المستبد مصادرة حقوق الشعب، والقضاء على المعارضة.

ثامنا: الحرية الإعلامية التي تكفل المراقبة وكشف المستور وخلق الوعي السياسي للشعب ضمن إطار الدستور.

جواب السؤال الثاني:

إن استمرار نظام صدام في السلطة يعد عامل ابتزاز لقدرات العراق والمنطقة، وعنصر تهديد للأمن العربي والإقليمي، وتمرد على المجتمع الدولي، وكل ذلك يلزم السعي بكل الوسائل المتاحة من أجل الإسراع في إسقاطه، وإنقاذ العراق من المخاطر المحدقة في ظل وجود النظام، ولذلك نؤكد على أهمية مشروع إسلامي وطني معارض يسرع في إسقاط النظام، وينهي معاناة الشعب، ويعيد العراق إلى محيطه العربي والإسلامي، وهذا لا يتم إلا بسقوط النظام وإقامة البديل السياسي والحضاري الذي يؤمن للشعب حقوقه ويطلق العنان لإرادته الحرة في ظل التعددية السياسية، ومبدأ تداول السلطة ونظام برلماني واحترام حقوق الإنسان، وبدأ حسن الجوار والعودة بالعراق إلى صف المجتمع الدولي. أي من الصعب تصور أي تغيير في العراق مع بقاء النظام بعقليته المتسلطة القائمة، بعيدة عن الحوار والمفاوضات، ومن ثم من الصعب تصور احتمال الانتقال السلمي للسلطة، من نظام حكم الفرد المتسلط إلى نظام تعددي يحترم حقوق الأفراد والمجتمع، ومن هنا فلا بد لتحقيق النظام البديل من النضال الدؤوب حتى يتم التخلص من صدام ونظامه، ومن ثم يتم ما يلي:

أولا: يجري انتخاب مجلس تأسيسي يقوم بوضع دستور جديد للعراق.

ثانيا: تقوم انتخابات حرة على أساس الدستور الجديد لانتخاب مجلس تشريعي لوضع القوانين في مختلف المجالات.

ثالثا: يتم انتخاب الرئيس مباشرة من قبل الشعب، ويتم انتخاب أعضاء الحكومة من ممثلي المجلس التشريعي، على أن يكون الرئيس مسؤولا أمام أعضاء المجلس.

أما كيف يتحقق إزالة طاغوت بغداد، يتم عبر الخطوات التالية:

١) الاتفاق على الحد الأدنى فيما بين المعارضة العراقية أي ضرورة العمل الجاد والسعي الحثيث من أجل استقطاب كافة التيارات وفصائل وقيادات حركة المعارضة العراقية، بما تؤهل للنهوض بمستوى صياغة البديل الحقيقي والطبيعي لنظام صدام.

٢) توظيف الاختلافات في وجهات النظر والتأثير التي يمتلكها كل طرف من أطراف المعارضة في الشارع العربي والإسلامي والدولي، لتطوير عمل المعارضة وكسب التأييد والإسناد لبرنامجها الجهادي والسياسي.

٣) السعي الجاد من أجل صب الجهد الإقليمي والدولي في بوتقة العمل المعارض لنظام الحكم في العراق، بما تضمن لها قوة حقيقية وإضافية يضمن استقلال القرار العراقي المعارض بعيدا عن التجاذبات الخارجية.

٤) يتم تشكيل حكومة منفى تسعى لانتزاع الاعتراف الإقليمي والدولي بها بدلا عن نظام صدام.

٥) يتم تشكيل نواة للجيش العراقي من قبل شرائح المعارضة.

٦) دعم وإسناد العمل الجهادي داخل العراق بكل الإمكانيات اللازمة، وبكل السبل والوسائل المتاحة ومن خلال الجيش العراقي والجماهير للقيام بالتغيير الحاسم للنظام.

(ملف)

آفاق الديمقراطية في العراق

اسماعيل شاكر الرفاعي

ينطوي مفهوم الديمقراطية على دلالة تاريخية هامة تشير إلى انتقال البشرية من عصر قديم إلى آخر جديد. وجدة هذا العصر لم تقترن ببزوغ نجم عائلة جديدة ينسب إليها العصر، ويتم التطابق بينها وبين العصر والدولة، كما تعودنا أن نقرأ ذلك في أسفار التاريخ وهي تتحدث عن دولة آل بوربون والقياصرة وآل عثمان والدولة الأموية أو العباسية أو الفاطمية.

تاريخ العصر القديم: تاريخ عوائل وطوائف (الموحدون، المرابطون) وقبائل فرضت هيمنتها (بويهيون، سلاجقة، أتراك ولاحقاً مماليك) بمقدار ما امتلكت من عصبية وتلاحم وقوة وبأس، أي بالتغلب. كما لاحظ ذلك ابن خلدون، وكما نلحظ نحن في الأوان الذي نعيش قوة حضور آل فلان وآل علان...

يرتبط العصر الجديد الذي انتقل إليه الإنسان، ببزوغ حركة جماهيرية واسعة، صنعت فيه تاريخها، بعد أن عاشرت دهرها وهي تصنع تاريخاً للعوائل والقبائل والملوك. وكانت خطوتها الأولى في صنع تاريخها هو أن فكت روابطها بهذه العوائل والقبائل واختارت لنفسها روابط جديدة.

فحرية الاختيار هي المَعلَم الأول والسمة الأبرز من بين سمات الديمقراطية.

* * *

ادعى كهنة وفقهاء العصر القديم بأنهم نظموا عصرهم وفقاً لشريعة السماء؛ فما قام (وما هو قائم) من إمبراطوريات وممالك وسلطنات ودول - مدن، وما انتظمها وينتظمها من علاقات سياسية واجتماعية، وما سادها ويسودها من وعي، هو بمجمله مستل من شريعة أوحت بها السماء. وفسروا وقائع التاريخ السابق عليهم (سقوط ممالك وقيام أخرى) بأنها سلسلة متواصلة من أوامر ربانية، عقوبة لها على ما ارتكبت من شرور. فوقائع تاريخ العصر القديم لم تتخلق في

وعي هؤلاء أرضياً، طالما أن عللها خارجية، وانسجاماً مع منطقهم لا يفسرون الظواهر على الأرض بربطها بأسبابها وعللها الأرضية بل بإعجاز من السماء. كان العصر القديم في وعي إيديولوجييه منظماً بأوامر من خارجه، وكان على الجماهير الإذعان للأوامر الصادرة من نواب السماء في الأرض الذين يحق لهم وحدهم قراءة وتأويل ما أوحت به السماء... فعدم تحكيم العقل سمة من سمات ومظاهر الوعي السياسي في العصر القديم.

* * *

نيل حرية الاختيار يعني أن أفراد المجتمع قد ارتقوا إلى سدة المشرع القديم، نفوه ونفوا مدونته القانونية ووضعوا مكانها مدونة أخرى تستوحي حاجاتهم الأساسية (العيانية والمباشرة) وجعلوا من ذلك عقداً اجتماعياً، تعاقدوا فيه على كفالة هذا الحق قانونياً. وتلك هي الخلفية الاجتماسياسية للمادة الحقوقية في الدساتير الجديدة: الشعب مصدر السلطات.

يمكن تسمية هذا النزوع من قبل المجتمع لإحلال ما يرونه مناسباً من قوانين بديلاً عن قوانين العصر القديم بـ(التحررية) مقابلاً لغوياً لـ(الليبرالية) لنصل إلى أن التحررية كمفهوم، عبر عن نزعة دنيوية، نزعة بشر أرادوا أن يجعلوا من القوانين التي استوحوها من عقولهم وضمائرهم بديلاً قانونياً عن القوانين السابقة... وبحلول قوانين البشر صار بالإمكان الحديث عن مجتمع مدني وعن علمانية.

فالعلمانية كالمجتمع المدني وكالديمقراطية وكالتحررية: إيمان البشر القاطع باستقلال وقائع تاريخهم عن أي توجيه خارجي والنظر إلى هذه الوقائع عقلانياً بربطها (كنتائج) بأسبابها الأرضية (مقدماتها الواقعية). وهكذا استولد البشر الطامحون إلى الاستقلال بحياتهم، منظومة فكرية لحمتها وسداها العقل، وأحلوها في التفكير وفي النظر بديلاً عن المنظومة الفكرية السابقة. والديمقراطية كركن من أركان هذه المنظومة الفكرية الجديدة تنطوي على زاوية نظر جديدة إلى الكون والحياة. الحديث عنها يجب بالضرورة أن يقترن بالحديث عن الإيمان المطلق بالعقل البشري وعن قدرته على السير قدماً في استكشاف النواميس والقوانين التي لم نستكشف بعد.

والإيمان بالأداة التي يستخدمها هذا العقل وهو يتوغل في مجاهل الطبيعة والكون: العلم والمنهج العلمي. كما أن الحديث عنها يجب بالضرورة أن يقترن بالحديث عن الحداثة والتحديث، إذ أن تحديث المجتمع الأوربي بدأ منذ تحولت العقلانية إلى تيار فكري جارف، تحول في لحظات تاريخية معلومة إلى ثورات شعبية. ولم يكن هذا التيار الشعبي العقلاني محمولاً على الأثير، بل كان له سند واقعي تمثل في بروز طبقة اجتماعية جديدة هي البرجوازية التي ألهمت فتوحاتها وعياً جديداً مفاده أن التاريخ لم يتوقف أبداً عند التشكيلة الاجتمااقتصادية الإقطاعية وأن المجتمع مقبل على انقلاب اجتماعي عظيم. وبقدر ما كانت فاعلية البرجوازية تثبت صحة منهجها العقلاني في تطبيقاته في ميادين الاقتصاد والعلم والاجتماع والسياسة بقدر ما تزداد شعبية هذا المنهج حتى تجرأ الناس على ما كان مقدساً. فزاوية النظر الجديدة (الديمقراطية ومنظوماتها الفكرية) لم تتحول إلى ملة أو نحلة، كما حدث للمعتزلة في التاريخ الإسلامي، لأن هذه المنظومة الفكرية الجديدة

ولدت محمولة على حركية آليات طبقة اجتماعية جديدة أجبرتها ملابسات صراعها من أجل تـأكيد ذاتها وتوسيع مصالحها، على ضرورة تعميم وجهة نظرها هذه عبر تحويلها إلى قوانيـن ناظمـة للعلاقات داخل المجتمع من خلال الاستيلاء على آلة الدولة. ولقد استولت البرجوازية علـى آلـة الدولة بالقوة، ونفت ثالوث الملك، الإقطاع، الكنيسة كما حدث في الثورة الفرنسية وفي تطوراتـها اللاحقة بدءاً من عام ١٧٨٩. ولكي لا نتحول في نظرتنا لأنفسنا كما لو كنا مستهلكين في سـوق ننتقي هذا ونرفض ذاك، يتطلب وعي الديمقراطية منا كمنظومة فكرية، نظرة لا تتعصب لوقـائع التاريخ المحلي والقومي، ناظرة إلى التاريخ بمحطاته الكبرى وبتحولاته الجذرية في هذه البقعـة الجغرافية أو تلك، شرقاً أو غرباً، على أنه تاريخ بشري واحد. وإن ما أنتجته محطاته وتحولاتـه الجذرية من نظم اجتماعية وآليات سياسية ومناهج جديدة في النظر والتفكير، هو نتـاج للبشـرية جمعاء. الذين يرفضون هذه النظرة هم – في التحليل الأخير – أولئك الذيـن مـازالوا يتمتعـون بامتيازات العصر القديم ولهذا نراهم يستمتعون بمنجزات هذه المنظومة الفكرية المادية ويرفضون مفاهيمها الاجتماسياسية، التي هي المناخ الذي لولاه لما استنبتت هذه الأمم والشعوب هـذه الآلات والأدوات، لسبب بسيط يتجسد في أن مفاهيم هذه المنظومة على المستوى الاجتماسياسـي يطيـح بمصالحها ويجعل منها كائنات مساوية لغيرها في المجتمع. ولهذا ناصرت محلياً دعوات منظـوري مابعد الحرب الباردة الذين تحدثوا وكتبوا عن "الهويات" و"صدام الحضارات" ناسـين أن المعلـم البارز للبشرية في أية بقعة جغرافية ينتمون إليها هو ما إذا كانوا مواطنين أم رعايا. والفرق بيـن الإثنين لا تستطيع حجبه كل المفاهيم المستوردة من الماضي في لعبة هذا الإيديولوجـي أو ذاك، فهؤلاء لم يفعلوا أكثر من بعث ما يؤبد تخلف وعي شعوبهم على علم منهم بأن الماضي (في ثقافة ما، أو حضارة ما، يعطي نفسه مرة واحدة ثم يموت) لا يمكن بعثه، كما تلمسوا ذلك بوضوح فـي أحداث التاريخ ووقائعه التي بخلت في أن تمد يد العون لأية مجموعة بشرية (هنديـة. عربيـة. إسلامية) في محاولاتها المتكررة من أجل استدانة حضارة سالفة.

فعل حراس الماضي ذلك باسم الحفاظ على (الأصالة... الهوية) وهي مفاهيم غامضة يعـاد تأويلها مع كل ظهور جديد لجماعة هي في الحقيقة ليست جديدة. وفي كل حالات الظهور الجديـد لهذه الجماعة يتم تأويل مفاهيم الهوية والأصالة بما يناسب مصالحها القائمة ووفقاً لهذا التأويل تتـم عملية الاستيراد من الماضي. لكن مهما كثرت هذه المفاهيم وتنوعت دلالتها، فهي جميعها لا تعدو أن تكون أكثر من مفاهيم ما قبل عصر المواطنة – التي نرى دلالتها مشتركة لدى كل القوميـات والشعوب التي أسست دولاً وأقامت عمراناً في عصر الرعايا، وهي تنطوي على جوهر واحـد، هذا الجوهر يحرم على الإنسان التشريع.

وهكذا، عاش الناس في العصر القديم، رعايا في (حضانة) عاهل، إذا لم يدع أنه على صلـة مستديمة بالسماء، فهو في الأقل، ظل الله في الأرض. وكل ما يتخذه من قرارات في السلم وفـي الحرب مقدس، من قداسة: (الراعي. العاهل. السلطان. الملك. الإمبراطور. الزعيم. الضـرورة... العليم بكل شيء. قيم الشريعة السماوية والناطق باسمها...) الذي صدع بها.

عصر المواطنة، جَبّ ما قبله، فمعه وفيه تمرد الناس على هذا الناموس. ومنذ ذلك الوقت الذي يمكن عد الثورة الفرنسية ١٧٨٩ فاتحته، حرك الناس التاريخ باتجاه آخر، تحولوا فيه من رعايا إلى مواطنين. إذ فتح فيه الإنسان ممرات، كتب فيها أسفاراً جديدة، صار كل منها: دلالة على علم جديد، تساندت فيما بينها، وارتقت بالإنسان – مكتشفها ومخترعها ومدون معادلاتها – ووصلت به إلى ما لم يحلم به أكثر عقول عصر الرعايا جموعاً أو جنوحاً: (ثورة المواصلات والاتصالات وسرعة انسياب المعلومات وتحولها إلى قوة). وعلى المستوى السياسي، افتتح عصر المواطنة تاريخه بمدونة قانونية جديدة (كتبتها المدن)، حلت (بالتدريج وعلى مراحل في إنكلترا، وتمرحلت عبر الثورة في فرنسا) محل المدونة القانونية لعصر الرعايا، التي كانت تتمحور حول الامتيازات وانتقالها بالوراثة. وبتلاشي حق الامتيازات قانونياً، انفتح المجال رحباً أمام الكفاءة الفردية التي أثبتت في ميدان البحث والتجريب العلمي أن العقلانية هي الطريق، وهي الرافعة التاريخية للابتكار والاختراع والاكتشاف، وفي ضوء هذه العقلانية، عممت الحداثة نفسها على كافة المستويات ومنها المستوى الاجتماعي. مخلخلة القاعدة المادية للروابط القديمة، وحاملة، ساكن المدينة، حملاً على إقامة روابط جديدة على حساب روابطه القديمة (الدم والطائفة)، تعممت في مجرى تشابك الأحداث ذات الحركية والنشاط (حركة تنقل داخل المدن لاتساعها، ونشاط في تحويل المواد والعناصر، في آلية الإنتاج المانيفاكتوري والمعمل لاحقاً، وحركية ونشاط في تحويل معمار المدينة لأسباب أمنية واقتصادية وتجارية وجمالية) وما يستتبع ذلك من بزوغ نشاطات مكملة: إدارية (بيروقراطية) وخدمية، وما يتطلبه كل ذلك من ضرورة وعي الفرد – المواطن لآلياتها.

أصبحت سمات هذه المدينة جاذبة لكل من يجد نفسه فيها. وباتساع نشاطها وتناميه تحولت، أو حولها هذا النشاط المنطوي على ضرورة التمدد والتوسع إلى: مدفع هد كل الأسوار التي انتصبت في وجه تعميم آلياته على مستوى ما صار لاحقاً يعرف بالدولة – الأمة.

الدولة – الأمة، إذن، من صنع عصر المواطنة... من صنع المواطنين الذين تداخل في فاعليتهم: سعيهم الحثيث من أجل تأكيد مصالحهم، بحماية هذا السعي قانونياً. وهكذا، لم تعد الأمة مفهوماً تجريدياً، يعاد تعريفه مع كل سلطة جديدة (كما هو لدى بعض التيارات في المشرق العربي) بل صار وجوداً متعيناً يعيش في مجتمع، هو مجتمع الأمة القومي الذي نحته المواطنون: (أفراد الأمة) على مراحل. فهو لم يهبط عليهم من عل بانقلاب أو بمؤامرة، إنما صعدوا هم به إلى الأعلى، وفرضوا له وجوداً حقوقياً، صارت العلاقات من خلاله (بين جماعات المجتمع وأفراده) تتعين بالقانون لا بـ(التغلب). الأمة، المجتمع القومي، مفهوم تال لتجربة تاريخية ملموسة لا سابق عليها، فهو لم يكن مفهوماً قبلياً (كما هو في التجارب الفاشستية) يحمل الناس على طاعته والتسبيح بحمده، الدولة – الأمة، المجتمع القومي، أو قل عصر القوميات، هو إحدى عبقريات عصر المواطنة، فالمواطنون هم الذين أرسوا دعائمه والمواطنون لا الرعايا، هم الذين منحوه مضمونه، الذي لم تعد السلطة فيه، سلطة ظل الله في الأرض، كما لم تعد سلطة ضرورة

قاهرة (عليهم أن يتنازلوا عن الكثير من حقوقهم لها). بل هي سلطتهم التي أوصلوها هم إلى حيث تجلس، وهم لا غيرهم من يطيح بها ويأتي بغيرها، في أوقات محددة ومعلومة، هم (مرة أخرى) من وضع سقفها الزمني، وصارت واحدة من معالم حضورهم في عصر المواطنة: (الدورات الانتخابية).

لقد فكك عصر المواطنة شرنقة عصر الرعايا، تلك التي تماهى النظام من خلالها، بالدولة وبالسيادة وبالقانون. وبهذا التفكيك، أشرقت هذه المفاهيم: (الدولة، السيادة، القانون، النظام) بمعان جديدة، كان المعنى الناظم لها جميعاً هو ديمومة القانون وآنية السلطة. بعد أن كانت العلاقة المهيمنة في عصر الرعايا: ديمومة السلطة وآنية القانون.

لم يكن هذا الفعل صنيع يوم وليلة. لقد تأسست هذه العلاقة بالتدريج، لكن على قاعدة متنامية المتانة من النشاط المؤسسي الذي استقل عن النظام ومن ثم عن الدولة بمسافة كفلت له حرية المبادرة، سيجها بمجموعة من القوانين التي تضعها المؤسسات لنفسها بعيداً عن اشتراطات الدولة وإملاءات السلطة القائمة، وبذلك تحولت علاقة الدولة بالنشاط المجتمعي من علاقة هيمنة وتدخل إلى حارس لهذه النشاطات، ومنها النشاط السياسي الذي نجح في تحييد الدولة بكل أجهزتها القمعية من التدخل لصالح أي من طرفي الصراع... لقد تعاقد المجتمع على أن تكون النتيجة مناطة بصناديق الاقتراع لا بهراوات الشرطة وبنادق العسكر، وبهذه الممارسة فك عصر المواطنة الاشتباك الحاصل في معاني الدولة، السيادة، القانون، السلطة، وأعطى لكل منها تعريفاً محدداً، مقيداً كلا منها – في الممارسة العملية – بدلالة هذا التعريف.

* * *

إذا أردنا الخروج من الرعية إلى فضاء المواطنة، علينا أن نتساءل عما يدور حولنا، وأن يكون رأينا في ما يدور واضحاً (قبولاً أو رفضاً). بدون ذلك لا كمال ولا اكتمال لإنسانيتنا التي تتعين فقط بحق المواطنة. ولقد مر حق المواطنة بمراحل، كانت ممارسة النقد السمة المهيمنة في كل أطوارها... وإذن، فلابد وأن يكون حق النقد واحداً من السمات، أو هو السمة الأرأس بين سمات شخصيتنا الجديدة، في الحد الجغرافي الذي ننتمي إليه: (العراق). لقد توارثت عراقيتنا الكثير من الدلالات المعروفة وصارت – عبر توارثها من جيل إلى جيل – قواسم مشتركة لشخصيتنا، كان النقد هو الغائب الأكبر من بينها، وتلك دلالة لا يجب أن يغيب حضورها عن وعي الساسة المهمومين بترسيم صوى وعلامات الممارسة السياسية العراقية في طورها الجديد.

بمعنى آخر، إن ولادة وعي عراقي جديد يرتبط ارتباطاً وثيقاً بولادة حس نقدي حيال ما يراد لحياتنا أن تكون، وإن مخطط حياتنا المقبلة، لا يجب أن يوجد بمعزل عن رأينا فيه. وهذا الحق في التخطيط للحياة، حق مشروع لكل العراقيين في الداخل والخارج، على اختلاف خياراتهم السياسية ومشاريعهم الفكرية وهو ينطلق من مشروعية حقهم في صنع حياة تقع في متناول مداركهم. لا حياة منفصلة بعيدة، تتبدى لهم دائماً كما لو كانت حلماً يزورهم في كل انقلاب

عسكري، حيث يصور الانقلابيون: التغيير، في بيانهم الأول، وكأنه قرار رئاسي أو حزبي (كما لو يمكن ترحيل الظواهر الاجتماعية بقرار واستتباباتها بقرار).

إن الحق في التخطيط للحياة، يجب أن يكون مفتوحاً للجميع وبلا تمييز. إذ ما إن تتنازل مجموعة من السكان عن هذا الحق، أو تجبر على هذا التنازل (مهما كانت الأعذار)، حتى يكون الاستبداد قد ذر بقرنه، وأعاد إنتاج ربيبه وصنوه: العنف.

تجربة الديمقراطية في العراق

قرار الديمقراطية قرار مجتمع لا نخبة

إن وعي الديمقراطية كحركة جماهيرية يقودنا بالضرورة إلى الحديث عن المعارضة العراقية للنظام الملكي[1] (جبهة الاتحاد الوطني عام ١٩٥٧) التي كان التياران الشيوعي والقومي عمادها. لقد أيقظ هذان التياران جذور الوعي الشعبي وغذياه بمفاهيم حديثة (الديمقراطية ومنظومتها الفكرية) بعد أن دمجاها بأسمى خصال العراقيين كالتضحية والشجاعة والصبر والتفاني في مقارعة الطغيان والاستعمار والإقطاع. لقد استطاع هذان التياران تأصيل هذه المفاهيم عراقياً بربطها بحركة جماهيرية ناهضة، حولت الانقلاب العسكري – الذي قاده عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف في الرابع عشر من تموز – إلى ثورة[2]، وشلت قرار التدخل العسكري الخارجي الذي اتخذته كل من الولايات المتحدة وبريطانيا. لكن ضعف الوعي القومي لدى دعاته المختزل في أذهانهم إلى بناء سريع لدولة وحدة. ووقوف الشيوعيين موقفاً تراجيدياً بين ضرورة الدفاع عن مكتسبات الجمهورية وتعميقها وبين اضطهاد السلطة القائمة لهم. وعجز البرجوازية العراقية عن تدعيم ركائز تيار ديمقراطي حقيقي، كما تجلى في تمرد محمد حديد على قرار الحزب الوطني الديمقراطي الذي ينتمي إليه وعلى زعيمه المناضل الوطني كامل الجادرجي وأصر على البقاء في حكومة عبد الكريم قاسم. كل ذلك أدى إلى ضخ وعي مضاد للديمقراطية ومنظومتها الفكرية. كان يمكن لتجربة ١٤ تموز أن تنجح ديمقراطياً وأن تعمم عربياً، لو لم يقع الاحتراب بين تياري الحداثة العراقية: الشيوعي والقومي[3]، هذا الاحتراب الذي شكل الأرضية التي نمت فيها نوازع الانقلاب على منجزات الثورة، فكان انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ كبوة كبرى لتيار الحداثة العراقي على المستوى السياسي، يتحمل مسؤوليتها التاريخية ذلك الفصيل الذي أدعى قيادته للتيار القومي، إذ عبّر الانقلاب عن عدم وعيه للمهمة التي ادعى تمثيلها تاريخياً: بناء المجتمع القومي ودولة الوحدة، التي تتطلب منه البدء بممارسة ما لم يمارس: الديمقراطية. فبدلاً من التوجه إلى نقد منهج السلطة الجديدة (سلطة ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨) التي لم تكمل تنفيذ برامجها على المستوى الاجتماسياسي (إصدار دستور دائم، الترخيص لجميع الأحزاب في العمل الوطني، إجراء انتخابات المجلس التشريعي) بدلاً من ذلك، أزاح الجميع وتوجه بدباباته واحتل الدولة، مفتتحاً طوراً جديداً من أطوار العراق الجمهوري: بناء دولة مستبدة، تكاملت ملامحها في طور صدام حسين.

ما حدث في ٨ شباط ١٩٦٣، لم يكن تآمرا على شخص عبد الكريم قاسم، بل تحديدا على هذا الوعي الحداثي، فكان الانقلاب انقلابا على هذا الوعي وعلى تجسداته العيانية (أحزاب، نقابات، نواد، جمعيات، أطباء، مهندسين، ضباط، أدباء، مفكرين، كتاب...) صفاهم الانقلاب وأجهز عليهم كوجود مؤسسي أو كأشخاص[٤]. إنه باختصار ردة فعل المجتمع القديم على نواتات الحداثة. فلولا هذا النشاط السياسي (الشيوعي والقومي) وهو نشاط ثقافي في الوقت نفسه، ينطلق من أفق فلسفي، لما تمكن الكثير من الكتاب والأدباء والمفكرين العراقيين، من تطوير وإبداع ما صار لاحقا سمة من سمات الحداثة في الثقافة العربية المعاصرة: حركة شعر التفعيلة الذي عممه عربيا ثلاثي السياب – نازك – البياتي، إضافة إلى مدرسة الفن الحديث في الرسم والمسرح.

ديمقراطية الأوان الذي نعيش

أورد الدكتور مجيد خدوري في كتابه (الاتجاهات السياسية في العالم العربي) حكاية ذات دلالة هامة مفادها أن شيخا من شيوخ قبائل شمر أعلن عن إيمانه بالديمقراطية تقربا من عبد الرحمن الكيلاني[٥] الذي وصف نفسه بأنه (شيخ الديمقراطية). وحين شرح (شيخ الديمقراطية) معنى الديمقراطية لشيخ القبيلة وأنها تعني في ما تعنيه المساواة وأنه لا كبير ولا صغير، أعلن شيخ القبيلة جهارا: أشهد الله بأنني لست ديمقراطيا. فلم تراجع شيخ القبيلة؟

للإجابة عن هذا السؤال، سأقارب موضوعة الديمقراطية في ضوء مفهوم الكبت الفرويدي، لنعي لم أشهد شيخ القبيلة الله بأنه ليس ديمقراطيا.

نحت فرويد هذا المصطلح انطلاقا من واقع محدد: واقع الحضارة الغربية المحمولة على نمط الإنتاج الرأسمالي. وقد عاد فرويد إلى التأكيد على أن حضارة نمط الإنتاج الرأسمالي هي حضارة كبت، وذلك في كتبه المتأخرة ذات الطابع الفلسفي مثل (قلق في الحضارة)، (الحلم وتأويله)، حين أكد على أن الفرد في هذه الحضارة لا يخلو من عصاب. كان فرويد في مفهوم الكبت مكتشفا لمرض موجود، وهو بإزاحته النقاب عن هذا المرض يكون قد وجه واحدا من النقود الحاسمة لهذه الحضارة. تنبه له الكثيرون من الطامحين إلى أن يستكمل الفرد العصري تحرره وتعبيد الطريق أمام تفتح مواهبه إلى النهاية...

لقد اشتغل فرويد على معاينة الفرد في أفق حضاري محدد. واكتشف بأن عالم هذا الفرد: بوعيه وبلا وعيه، بأناه، وبأناه الأعلى، وبعمل غرائزه، له مرجعية خارجية، وهذه المرجعية حاسمة في تشكيل عالم الإنسان الداخلي (بعض تيارات البنيوية لا تقر بتأثير الخارج على داخل النص، رغم كشوفاتهم الهامة في مجال تحليل الخطاب من الداخل). رؤية فرويد هذه تكذب رؤية فوكوياما[٦] عن توقف التاريخ ومراوحته عند الأفق الثقافي لحضارة نمط الإنتاج الرأسمالي وآليتها الديمقراطية، كما وتكذب أطروحة صامويل هنتنجتون[٧] عن صدام الحضارات بسبب من أن حضارة النمط الإنتاج الرأسمالي، وهي تعمم نفسها على المستوى الكوني، عممت تناقضاتها

العميقة التي ستحتم اصطفافا بشريا كونيا يكون مع أو ضد هذا النمط من الإنتاج الذي تزداد خطورته وهو يمعن سادرا في آلية تكثير الأرباح.

* * *

بعض الذين حاولوا استخدام منهج فرويد في دراستهم للشخصية العراقية، عذبوا هذه الشخصية ولم يحللوها... عذبوها حين حققوا معها ولم يدرسوها كما هي في واقعها. فبدلا من أن يعودوا بالشخصية العراقية إلى مرجعياتها الخارجية، ويتلمسوا في هذه المرجعيات أسباب كبتها (محنتها سياسيا وثقافيا واجتماعيا)، قفزوا إلى خلاصات النظرية وأسقطوا سمات الشخصيات التي درسها على الشخصية العراقية.

* * *

السمة الأرأس بين سمات الشخصية العراقية في الأوان الذي نعيش، تتمثل في انطفاء الحس النقدي لدى الجمهور العريض والتطير منه لدى أولي الأمر. ولأن رفضا عنيفا سيطل برأسه لدى قراءة هذا التوصيف، وجب التوضيح: انطفاء الحس النقدي (وهو نوع من أنواع الكبت) له مرجعياته الخارجية التي مارست ومازال تمارس قمعا منظما لهذه الشخصية ويتمثل هذا القمع بتطير الأب من نقد أفراد عائلته، وتطير شيخ العشيرة من نقد أفراد عشيرته، وتطير الفقيه أو رجل الدين من نقد أفراد طائفته أو ملته، وتطير قادة الأحزاب من نقد أعضاء أحزابهم، وتطير رئيس الدائرة من نقد مرؤوسيه، والمعلم وأستاذ الجامعة من نقد تلاميذه أو طلابه، وصدام حسين من أي نوع من أنواع النقد، وكان عدي صدام حسين ومايزال يختبر ولاء المقربين له بالعقوبة الجسدية أو بإهانتهم معنويا وذلك برميهم بالطماطم على مرأى من الجمهور، كما حدث لأحدهم في انتخابات المجلس المركزي لنقابة الصحافيين عام ١٩٩٦، ولأنه لم يحتج ولم يثأر لكرامته الشخصية المهدورة عين سفيرا[٨]. والتهمة في كل ذلك جاهزة لكل من يحاول زحزحة ثقل هذه المؤسسات: خارج، مارق، منشق، شعوبي، ملحد، متآمر أو عميل... الخ. علينا، إذا، أن نطيع ما توارثناه من مؤسسات (طائفية وعشائرية) وأن نكبت تساؤلنا حول ما إذا كانت هذه القواقع القديمة عقلانية أو غير عقلانية.

فالموت أو الرحيل بعبارة محمد الماغوط، لكل من يجرؤ على رفع سبابته بالسؤال. لكأننا مازلنا نعيش محنة طرفة بن العبد قبل أكثر من ١٤ قرنا:

إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد

وقد أطاع جمهورنا العريض ما توارثه.

وهذه الطاعة ذات مدلولات اجتماعية وفكرية ونفسية. فعلى المستوى الاجتماعي عبرت هذه الطاعة عن نفسها في إعادة إنتاج هذه المؤسسات لنفسها وإعادة شد الأعضاء إليها بالاستيلاء مجددا على ولاءاتهم، ويمكن لنا مقاربة هذه الحالة ببقاء الولاءات القديمة فاعلة في تنظيمات الأحزاب العراقية، التي يفترض فيها أنها نظمت نفسها على أساس حداثي، وأشهر

مثال على ذلك ما حصل داخل الحزب الحاكم (وقد سمى فرويد ذلك بعودة المكبوت في كتابه "موسى والتوحيد").

وعلى المستوى الفكري، عبرت هذه الطاعة عن تحكم الوعي الجمعي لهذه المؤسسات المتوارثة (الطائفة + العشيرة) بوعي أعضائها، وتحوله إلى مصدات، كبتت نوازع الاستقلال الفكري والذاتي، فقاد ذلك إلى تكوين عمق نفسي لجم العراقي عن معاينة ما يجري بين يديه آنيا واستعاض عنه بمناقشة ما جرى يوما في التاريخ البعيد.

الرضا بما توارثناه يعني أننا أفسحنا – بوعينا واختيارنا – المجال رحبا لهذه المؤسسات لأن تؤبد سيطرتها. وحتى لو وعينا أن هذا الذين تلقيناه ليس أكثر من سيرورة في التاريخ، وليس له – كما لكل الظواهر التاريخية – من ديمومة. إلا أننا تعاملنا معه كما لو كان معطى ثابتا وعددنا أعرافه وتقاليده على أنها المثال الذي يجب الاقتداء به.

وكما مارست المؤسسات المتوارثة كبتا منظما للشخصية العراقية، مارست النخب التي ادعت التحديث طريقا والحداثة شعارا، كبتا من نوع آخر، حين أسهمت في تزييف وعي الجمهور العريض وتشويه هذا الوعي بنظرة إرادوية للتاريخ صورت من خلالها أنه يمكن ترحيل الظواهر الاجتماعية بقرار واستنباتها بقرار. كظاهرة الوحدة مثلا أو الديمقراطية أو الاشتراكية، من غير التنويه بأن هذه ظواهر اجتماعية – سياسية، لا ترتبط بإرادة أو بقرار فرد أو مجموعة أفراد وإنما بإرادة الجموع. فالديمقراطية لم يجترحها فرد أو حزب ما، إنما اجترحتها شعوب، تسلحت بنقد حاضرها، ونقد مؤسساتها المتوارثة وحققت تعاليا على هوياتها القديمة: الطائفة أو الملة أو الأثنية، وتدامجت اجتماعيا، وسنت لنفسها قوانين جديدة عبرت عن حاجاتها الفعلية.

الديمقراطية كالسباحة ممارسة عملية، والفارق بينهما، أنه يمكن لفرد بعينه ممارسة السباحة ولكنه وحده لا يقدر على ممارسة الديمقراطية، كونها حركة مجموع لا فرد... مجموع وعى في لحظة محددة من تاريخه، أن الديمقراطية هي الطريق لتحرره من كبت المؤسسات القديمة... وهذه لحظة تاريخية، لحظة تخطي وتجاوز، تخطت بها الجموع انتماءاتها وولاءاتها القديمة وارتقت إلى مصاف مجتمع حديث، تعاقد فيه هذا المجتمع على حقوق الفرد وحق المواطنة. وهذا الحق لا ينحصر في حق التعبير والانتساب وتأسيس النوادي والأحزاب والجمعيات. هذه خطوة أولى وضرورية ولكنها غير كافية لأي مجتمع يروم تجاوز عصر الرعايا ودخول عصر المواطنة. هذه النقطة الهامة مسكوت عنها في خطاب الديمقراطيين الجدد.

إن حق المواطنة يرتبط أساسا بحق الفرد في أن يشرع قوانين حياته بعيدا عن أي سلطة مسبقة أو أي مرجع خارجي (خارج المجتمع) إذا بلغ الديمقراطيون الجدد هذا الشأو، وألهموا شعوبهم وعي هذا الحق: حق التشريع، وتحولت الديمقراطية إلى مطلب جماهيري كاسح وشعار يخطه التلميذ على حيطان مدرسته، والعامل على بوابة معمله، والفلاح على الطريق إلى قريته، ويعلقه الجندي على الكتف إلى جانب بندقيته، ويشبعه أستاذ الجامعة شرحا، موضحا مقاصده ومراميه القريبة والبعيدة، وتحولاته التاريخية (كمنظومة فكرية متكاملة لا تمكن تجزئتها) إذا بلغ

وعي العراقيين، على يد الديمقراطيين الجدد، هذا المستوى ثم قرن هؤلاء الوعي بالفعل، وهبطوا من سماواتهم، وقادوا مظاهرات الجموع الغاضبة في شوارع بغداد وشوارع المدن الأخرى، وسقط البعض منهم برصاص النظام الدكتاتوري الحاكم. لحق علينا تسميتهم بالصفة التي يطلقونها على أنفسهم: ديمقراطيون.

إن النضال من أجل الديمقراطية، نضال من أجل شخصية عراقية. تتحدى في هذا النضال عوامل ومؤسسات كبتها القديمة، وتستبق عوامل كبتها الجديدة بالنقد. وهذا الوعي النقدي ضروري لولادة ونمو شخصية عراقية، لأنه يسهم في إزالة الغشاوة عن عينيها ويؤجج لديها حسا تاريخيا: يرى إلى الآلية الديمقراطية كونها محطة في التاريخ وليست نهايته، ولكنها لحد اللحظة، المحطة الأرقى... ولكي يرتقي العراقي بها، عليه أن يتسلح، منذ البدء، بالنقد حيالها، لكي لا تتحول في وعيه – مرة أخرى – إلى صنم يدور حوله بالتسبيح والتمجيد.

الهوامش

(١) لا كما يفعل البعض في رد الاعتبار لنظام غير ديمقراطي.

(٢) أستلهم هنا أطروحة عالم الاجتماع العراقي الدكتور علي الوردي حيال الانقلابات العسكرية في العراق، إذ عد ١٤ تموز ثورة لحصول إجماع عراقي عليها وما عداها من الانقلابات سماها حركة لعدم حصولها على ذلك الإجماع.

(٣) أنطلق في هذا التوصيف من الكثير من المذكرات الشخصية لقادة هذين التيارين، ومن لقاءات شخصية في كردستان ودمشق.

(٤) في كتاب (أوكار الهزيمة) لهاني الفكيكي، وهو من قياديي الصف الثاني من قادة الانقلاب، تفاصيل مروعة عما جرى من تصفيات، لكن الكتاب الجاد هو كتاب الدكتور علي سعيد كريم (عراق ٨ شباط) الصادر عام ١٩٩٩، المتكون من متنين، الأول حوارا مطولا مع وزير خارجية الانقلاب طالب شبيب، والثاني هوامش الكاتب على ما ورد على لسان وزير الخارجية، وهي هوامش فيها الكثير من الجرأة والصراحة وتوخي الحقيقة. ويبقى لما قاله علي صالح السعدي، قائد حزب الانقلاب، أهمية خاصة لأنه السبب وراء مذبحة الديمقراطية في العراق.

(٥) عبد الرحمن الكيلاني، نقيب أشراف بغداد في العهد العثماني، وصار رئيسا لأول وزارة عراقية بعد الاحتلال البريطاني للعراق، ووزاراته الأهلية كانت بعد ثورة العشرين المجيدة، وقبل التتويج الرسمي للملك فيصل ملكا على العراق في آب ١٩٢١.

(٦) نهاية التاريخ والإنسان الأخير، فرانسيس فوكوياما. مركز الإنماء القومي، بيروت ١٩٩٣.

(٧) صدام الحضارات، صاموئيل هنتنجتون. شركة سطور، ط٢، القاهرة ١٩٩٩.

(٨) فعل ذلك صباح اللامي، وهو كاتب سياسي حكومي، حين نشر في جريدة (الزمان) مذكرات ذات تفاصيل هامة، حول ما تعرض له من عقوبات، حين كتب هذا المقال أو ذاك.

(ملف)

لا اشتراكية بدون ديمقراطية

ولا ديمقراطية راسخة دون عدالة اجتماعية

حمدان يوسف

انتهى الوقت الذي كان يوصف بأنه مرحلة الانتقال إلى الاشتراكية، ومرحلة الحرب الباردة والصراع ذي القطبية الثنائية. وفيه لم يكن فهم أي حدث وتفسيره ممكناً إلا من هذه الزاوية. أما اليوم، بعد عقد على انهيار المعسكر الاشتراكي، وهيمنة القطب الأوحد ونظامه العالمي الجديد، الذي أعلن الرئيس بوش قيامه مع عاصفة الصحراء لتحرير الكويت - مع هدف تدمير العراق - فقد أضحت كل الأمور تجري تحت شعار العولمة وأضحت الديمقراطية وحقوق الإنسان رايتها. ويراد الإيهام بأن الديمقراطية وحقوق الإنسان صنوان ملازمان للرأسمالية بالجوهر، وبأن "الشمولية" ملازمة للاشتراكية. فيقال إن الديمقراطية هي المفتاح السحري لكل القضايا والمشاكل. فننسى النظر إلى الديمقراطية كسيرورة تاريخية، فديمقراطية أثينا غير ديمقراطية اليوم، وهذه الأخيرة ليست هي خاتمة المطاف ولا نهاية التاريخ. وبدون النظرة التاريخية تغيب عنا حقيقة أن حتى الديمقراطية الغربية هي اليوم ليست كما كانت قبل التجربة الاشتراكية الأولى، ولا كما كانت عليه في الخمسينات والستينات، أيام التمييز العنصري ضد الزنوج في أمريكا، وأيام المكارثية ومعاداة الشيوعية في ذروة الحرب الباردة. وهل ننسى السياسة الاستعمارية للديمقراطيات الغربية؟ فبدون هذه النظرة التاريخية نطمس الدور الفعال لنضالات الحركة الجماهيرية، ودور الحركات الماركسية، من اشتراكية ديمقراطية وشيوعية، في فرض وتطبيق الكثير من الحريات والحقوق الديمقراطية، التي تتباهى بها الدول الغربية اليوم، رغم أنها بدأت في التراجع عن الحقوق الاجتماعية الديمقراطية بعد زوال الضغط الذي كان حاصلاً لمجرد وجود المعسكر الاشتراكي. فالبابا بولص الثاني كان له دور كبير جداً في تهيئة الأجواء للقوى المناهضة للمعسكر الاشتراكي. لكنه يعلن اليوم أن التغيرات التي طرأت على الرأسمالية ذاتها إنما "يرجع الفضل فيها وإلى حد كبير إلى تأثيرات التفكير الاشتراكي". وتبدو الحريات الديمقراطية المتوفرة اليوم في بلدان الديمقراطية وكأنها جزء عضوي من النظام الرأسمالي، بينما لم تكن حتى بضعة عقود خلت معترفاً بها في تلك البلدان، مثل حق الانتخاب المباشر المتساوي

السري، حق التجمع في نقابات وأحزاب علنية، حق الاجتماع السلمي والتظاهر، حق الإضراب. فلم ينل الناس هذه الحقوق إلا بفضل نضالات الحركة العمالية. وهكذا صار الاحتفال بالأول من أيار وبيوم المرأة العالمي مثلاً احتفالاً رسمياً أو شبه رسمي، بينما كان لعهد ليس بالبعيد من الاحتفالات الممنوعة في الكثير من البلدان، لأن الاحتفال بهما بدأته الحركة الماركسية الثورية، وبقي لفترة طويلة شكلاً نضالياً تلاحقه قوى القمع في كل البلدان قبل أن يتحول إلى ما يشبه الطقوس للحركة الشيوعية وبلدان المعسكر الاشتراكي، ويتحول في البلدان الرأسمالية من يوم نضال الطبقة العاملة لفرض حقوقها إلى يوم عيد العمل.

وفي بداية تطبيقات الديمقراطية مع الثورة الفرنسية كانت المطالبة بالمساواة تقتصر على المساواة في الحقوق والحريات السياسية، لكن مع نمو الحركات الاشتراكية اتسعت المطالبة لتشمل المساواة الاجتماعية أيضاً. وانعكس هذا التوسع للمطالب الديمقراطية في تسمية الحركة الاشتراكية لأحزابها باسم الحزب الديمقراطي الاجتماعي، يوم لم تعد تستطيع استخدام الشيوعي أو الاشتراكي، والذي ترجم إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي. وهذه الترجمة تاريخية ينبغي الاحتفاظ بها، بدل محاولات ترجمتها مجدداً إلى الحزب الديمقراطي الاجتماعي. وإلى هذه الحقيقة أشار رئيس جمهورية ألمانيا الغربية عند انهيار المعسكر الاشتراكي بقوله: "إن الكثير من المكتسبات الديمقراطية والاجتماعية في المجتمعات الغربية تحققت بفضل نضالات الحركة العمالية الثورية". فهي التي رفعت شعار المساواة والحرية والديمقراطية وهي التي ناضلت في سبيل توسيع حق الانتخابات الديمقراطية ليشمل جميع المواطنين، وطالبت بحقوق المرأة وحق الشعوب والقوميات المستعمرة في الاستقلال وتقرير المصير، كما طالبت بتحقيق الفرص المتساوية للجميع في التعليم والصحة. لقد طالبت بالديمقراطية وبتطوير ما تحقق من ديمقراطية في البلدان الغربية.

كان لينين يدعو لأن تكون الديمقراطية السوفيتية أكثر ديمقراطية من الديمقراطية البرجوازية، وحذر من نشوء وتسرطن البيروقراطية السوفيتية. كان يعتقد "أن من مستلزمات الشيوعية إقامة سلطة السوفييت باعتبارها جهازاً سياسياً يتيح لجماهير المضطهدين فرصة اتخاذ جميع القرارات بأنفسهم. وبدون مثل هذه الديمقراطية لا يمكن تصور الشيوعية. فليس مصادفة أنّ الحركة الشيوعية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وقبل بدء الحرب الباردة صار شعارها: "في سبيل ديمقراطية شعبية في سبيل سلم وطيد"، وكانت التنظيمات التي تأسست بمبادرة أو مباركة الحركة الشيوعية أو تبنتها كانت توصف بالاتحادات الديمقراطية: اتحاد الشبيبة الديمقراطي العالمي، اتحاد النساء الديمقراطي العالمي، اتحاد العلماء الديمقراطيين العالمي، وليس ببعيد الزمن الذي كانت فيه القوى الرجعية، وبينها العربية والاستعمارية، ترى في الديمقراطية والشيوعية شيئاً واحداً. فكانت تحارب الحركات الديمقراطية وتتهم الديمقراطيين بالشيوعية. لكن تطبيقات المعسكر الاشتراكي بتغييب الرأي العام الديمقراطي باسم دكتاتورية البروليتاريا والمركزية الديمقراطية كشفت عن مفارقة صارخة. فالحركة العمالية الثورية التي كان هدفها أن يحل "بدل المجتمع البرجوازي القديم بطبقاته وتناقضاته الطبقية تجمع يكون فيه التطور الحر لكل فرد فيه الشرط للتطور الحر للجميع" انتهت إلى مجتمع

يتحكم فيه جهاز الأمن وتقوده مجموعة صغيرة من العجزة، تسمرت حتى الموت في المكاتب السياسية. ومع اشتداد الحرب الباردة من قبل الغرب، ومعها اشتداد الميول الستالينية لفرض النظام السوفيتي شكلاً وحيداً للبناء الاشتراكي، اختفى شعار الديمقراطية الشعبية، بل الديمقراطية، ليحل محله صنم "دكتاتورية البروليتاريا". فتخلى الشيوعيون الألمان مثلاً عن برنامجهم الذي رفعوه بعد انتهاء الحرب مباشرة، وأعلنوا فيه خطأ فرض النظام السوفيتي على ألمانيا لأنه لا يتفق مع ظروف تطور ألمانيا، وأن ما تحتاجه ألمانيا هو: إقامة نظام ديمقراطي، معادي للفاشية، إقامة جمهورية برلمانية – ديمقراطية تضمن فيها جميع الحريات والحقوق الديمقراطية. وقد تكمن بوادر هذا التراجع لدى لينين نفسه، بعد عامين ونصف من ثورة أكتوبر، عندما أعلن، تحت تأثير وقائع الحكم أو تأثير الفئة البيروقراطية السوفيتية، أن دكتاتورية البروليتاريا لا تحققها الجماهير وإنما أقلية، نخبة من الثوريين، أطلق عليها الطليعة لتكون مقبولة إذ أن تعبير النخبة يتناقض من حيث الجوهر مع ديمقراطية الفكر الاشتراكي، القائل بالجماهير لا النخبة هي القوة المغيرة في التاريخ.

لقد عاد إلى الصدارة شعار النضال في سبيل حقوق الإنسان والديمقراطية، الذي ناضلت الحركات الديمقراطية الثورية أساساً من أجله، فيما مضى، تحت شعار النضال في سبيل الحريات والحقوق الديمقراطية، قبل أن يتبلور مصاغاً في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، بل إن لازمة نشيد الأممية في النص الألماني تؤكد على أن "غد الأممية ينتزع حقوق الإنسان"، ونصه العربي يقول "غد الأممية يحرر البشر". كم من المفيد العودة إلى التعرف على ما في تراث الحركة الثورية من نضال في سبيل الديمقراطية وحقوق الإنسان، كي لا نكتفي برفض الأساليب اللاديمقراطية التي اتسمت بها دولة الاشتراكية البيروقراطية وننسى سوءات الرأسمالية، فننجرف في السيل الغالب اليوم، الذي يريد طمس كل ما في تاريخ الحركات الديمقراطية من إيجابيات، ساعياً بتضخيمه السلبيات فقط إلى أن يهيل التراب على كل التجربة التاريخية ويجعلنا نتصرف وكأن الرأسمالية المنفلتة هي حقاً نهاية التاريخ، وكأن شرط الديمقراطية وصنوها الملازم على الدوام هو حقاً اقتصاد السوق الرأسمالية، وأن لا خطر من ظهور فاشية جديدة فيها.

لم يعد اليساريون "المتحجرون، المتكلسون، العقائديون" وحدهم يرون سوءات النظام الرأسمالي ومخاطره على الديمقراطية نفسها، فتقرير منظمة الأمم المتحدة عن التقدم البشري يكشف أن ثروة ثلاثة أفراد فقط تعادل ثروة ستمائة مليون فرد، أي أن تغييرات العولمة تتيح مزيداً من السلطة لأفراد، وليس "للأفراد عموما " كما يستخلص فوكويوما. فتلك التغييرات تؤثر على الديمقراطية بعمق سلباً وليس إيجابياً فقط.

يضطر حتى فوكوياما ليتساءل عن مستقبل الديمقراطية الليبرالية وعما إن كانت ستبقى مستقرة، وتستطيع التوسع إلى الدول التي ما تزال استبدادية، أم أنها ستتعرض إلى ما تعرض له في الثلاثينيات من القرن الماضي، عندما صعدت الفاشية إلى الحكم في أوروبا.

وكثيرون يرون أن في انتقال مراكز اتخاذ القرارات من الحكومات المنتخبة ديمقراطياً، والبرلمان، إلى المراكز الاقتصادية التي تتحكم فيها الطغمة المالية يشكل خطراً فعلياً على

الديمقراطية، إذ تتحول السلطات الديمقراطية المنتخبة إلى هيئات منفذة لما تتخذه مراكز الاقتصاد من قرارات. ومشاركة المواطنين في الحياة العامة الآخذة بالتضاؤل تنعكس في انخفاض نسبة المصوتين في الانتخابات. الأمر الذي يتنافى مع جوهر الديمقراطية: نقل السلطة من حكم أقلية إلى حكم الشعب، وحماية حقوق وواجبات المواطنين على السواء. لقد انهار المعسكر الاشتراكي لغياب الديمقراطية السياسية، بالرغم من عدم وجود تناقض بنيوي، بل وحدة عضوية في جوهر النظام. ومن جهة أخرى فإن الديمقراطية السياسية لا يمكن أن تبقى راسخة مع سلب المكتسبات الاجتماعية، مع التنصل من تطبيق الديمقراطية الاجتماعية، والتراجع عما أثبتته مواثيق حقوق الإنسان الاقتصادية والاجتماعية. إن العولمة وسياسة الليبرالية الجديدة تنطويان على تناقض بنيوي لا يمكن حله في إطار الرأسمالية. فمثلما أثبتت التجربة أن لا اشتراكية بدون ديمقراطية، فكذلك لا ديمقراطية سياسية راسخة مع بقاء التفاوت الاجتماعي، الآخذ بالاتساع في ظل العولمة، ليس فقط بين الدول الغربية والعالمين الثاني والثالث، بل داخل الدول الصناعية الكبرى نفسها.

الشعب مهيأ للديمقراطية؟

الديمقراطية مصطلح معرب من اللاتينية، مثل كثير من المصطلحات الأجنبية الأخرى، وهو يعني حكم الشعب، ويتميز عن أشكال أخرى من الحكم، في العلاقة بين الحاكم والمحكوم، مرت بها البشرية، كأنواع من حكم الاستبداد تجاه الشعب، السلطة فيها لنخبة من "الأشراف" والمالكين. الديمقراطية تتطلب إشراك الشعب دون تمييز في إدارة شؤونه. ولقد وجد هذا الفهم للديمقراطية سبيله في العراق منذ ثورة العشرين، وبداية تأسيس الدولة العراقية الحديثة، التي شُكِّلت بعد الحرب العالمية الأولى وفق حدود تم الاتفاق عليها بين الدولتين الاستعماريتين، بريطانيا وفرنسا، فوضع العراق تحت الانتداب البريطاني، وبعد عام من ثورة العشرين، ووصول فيصل الأول تنفيذاً لخطة بريطانية، "أصدر مجلس الوزراء، بناء على اقتراح رئيس الوزراء، قراراً جماعياً ينادي بفيصل ملكاً على العراق بشرط أن تكون حكومته دستورية، نيابية، ديمقراطية، مقيدة بقانون". وفي بيان معاون متصرف (محافظ) البصرة إلى وزارة الداخلية حول طريقة الاستفتاء التي اتبعت في البصرة كتب: "بما أن الانتخاب يجري من أجل حكومة ديمقراطية فقد وجدنا من المرغوب فيه أخذ الأصوات من جميع السكان وليس من الأشراف المتنفذين". ولهذا "تم تبليغ يوم الانتخاب إلى أهالي كل منطقة انتخابية ودعي جميع الرجال الذين يبلغون عشرين سنة من العمر فما فوق للحضور في مكاتبهم الانتخابية للتصويت" (نشأة الدولة – العطية ص٥٠١-٥٠٢).

وينطلق البعض من كون المصطلح أجنبياً للبرهان على أن مفهومه غريب ومستورد ينبغي رفضه. لكن فكرة الحرية والعدل – المساواة في التاريخ العربي الإسلامي إنما كانت في لب الخلافات التي نشأت حول مفهوم الإمامة والخلافة. وكانت المصالح الدنيوية، المادية، وراء الكثير من تلك الخلافات بين المسلمين. يقول الخليفة عمر بن عبد العزيز: "إن هذه الأمة لم تختلف في ربها ولا في نبيها ولا في كتابها وإنما اختلفت في الدينار والدرهم". والشورى هو التعبير عن

سيادة الشعب، إذ أن العبرة بالروح لا بالحرفية والشكلية. فالمبايعة، القائمة على الانتخاب، شرط واجب في الخلافة، ورأي أغلبية الفقهاء أن الخلافة لا تكون شرعية إذا استندت إلى القهر والغلبة.

إن رفض الجديد بحجة أنه مستورد، هو عود لذلك المنطق الذي تبناه أصحاب الجاهلية في رفضهم الإسلام بحجة تمسكهم بما وجدوا عليه آباءهم. وليس صحيحاً أن الديمقراطية لا جذور لها في منطقتنا تماما ، فقبل الإسلام كان على سبيل المثال نظام الحكم في اليمن يتألف من ملك مقيد بسلطة تمارسها مجالس وهيئات نيابية تتألف من ممثلي القبائل، ولا توجد معلومات عن الطريقة التي كان يتم بها اختيار المندوبين في ذلك النظام البرلماني (العلوي – في السياسة الإسلامية ص٣٦). وكانت دار الندوة في مكة، وفي بلاد سومر، كما يذكر صموئيل كريمر في كتابه الموسوم "كل شيء بدأ في سومر" إن أول برلمان يتكون من مجلسين وجد في بلاد سومر، كواحدة من ٢٧ شيئاً يوجد أول مرة في التاريخ، كأول مدرسة، وأول حادث رشوة، وأول ملحمة (ملحمة جلجامش).

إن عدم وجود تقاليد ديمقراطية يجعل الأخذ بها صعبا ، وتكون معرضة للانتكاس بسهولة لكن ذلك ذريعة للقول إن الشعب غير مهيأ للديمقراطية، فأي شعب لم يمر بمرحلة كانت الديمقراطية معدومة فيها؟ في قلب أوربا، دخلت ألمانيا عهد نظام فاشي بعد فترة قصيرة من حكم جمهوري أعقب سقوط القيصرية بالثورة بعد الحرب الأولى، ولكن بالنضالات والممارسات ترسخت الديمقراطية. لنتذكر على سبيل المثال أن سكان "واحة الديمقراطية في الشرق الأوسط"، إسرائيل، كانت غالبيتهم عند تأسيس الدولة ينحدرون من بلدان أوربا الشرقية حيث لم تكن توجد تقاليد ديمقراطية. ولكن رغم انعدام التقاليد الديمقراطية ورغم ظروف الحرب الدائمة ترسخت الديمقراطية البرلمانية في إسرائيل، رغم كل ما فيها من علات، بينما صفي في البلدان العربية ما كان قد نشأ فيها من بذرات الديمقراطية، بحجة حماية مؤخرات الجيوش العربية التي أرسلت إلى حرب "إنقاذ فلسطين" تحت قيادة كلوب باشا، وما تبع ذلك من عسكرة المجتمعات العربية بحجة العمل من أجل تحرير فلسطين، أو بحجة "الشرعية الثورية" لحماية الأنظمة "الثورية التقدمية"، أو حفاظاً على تقاليدنا العربية الإسلامية السمحة.

غير أن الإعلان عن قبول الديمقراطية شيء وتطبيقها شيء آخر. فمثل ما يحدث في الثورات والحركات الشعبية، ينشغل الثوار عن تحقيق الهدف بتوزيع غنائم الحكم الجديد، فيجري توزيع المناصب والإدارات وحتى إنشاء إدارات ومناصب جديدة ويكتفون بترديد شعارات الثورة بين الحين والآخر. وهكذا بقيت المملكة العراقية حتى بعد انتهاء الانتداب تابعة للاستعمار البريطاني، ولم يبق من الدستور والمجلس البرلماني والقانون سوى أشباح، فأكثر من نصف العهد الملكي سادته الأحكام العرفية، وعندما استطاعت الحركة الوطنية فرض فوز بضعة نواب للبرلمان عام ١٩٥٤ قام نوري السعيد بحل البرلمان بعد أول اجتماع له، وصار يحكم بالمراسيم مجدداً وتزوير الانتخابات، حتى ثورة تموز ١٩٥٨ التي أطاحت عن طريق انقلاب عسكري بذلك النظام.

هذا الصراع بين القوى الحاكمة الناشئة وبين الجماهير الشعبية من أجل توسيع الديمقراطية ورقابتها على النخب الحاكمة صراع موضوعي، وسيرورة طويلة من أجل ترسيخ التقاليد

الديمقراطية وكبح فساد الساسة، الذي قد يصيب بعضاً من ثوريي الأمس، فيتحولون إلى لصوص الثورات، وتنتكس الثورة بانتقال السلطة من لصقراطية إلى لصقراطية جديدة. ويكون ذلك تأكيداً لما قاله المعري بلزوميته عن ضرورة الحذر من القادة والحركات:

إنما هذه المذاهب أسبا ب لجلب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم متعة ، لا يرقو ن لدمع الشماء والخنساء

العلاقة بين ظروف ووسيلة الوصول للحكم وطبيعة النظام اللاحق

يبدو أن ثمة علاقة عضوية بين ظروف ووسيلة الوصول إلى السلطة وأساليب وطبيعة الحكم الذي يقام لاحقاً. العهد الملكي جاء به الإنكليز كنظام يخفف العداء الشعبي لحكمهم فأقاموا أولاً نظام الانتداب بدل إعلان العراق مستعمرة، وكان هذا بعد الثورة البلشفية التي فضحت اتفاقية سايكس بيكو ودعت مسلمي الشرق للتحرر والاستقلال، ووجدت صدى لدى المناضلين من أجل الاستقلال.

في رسالة من السكرتير العام لفرع جمعية العهد في الموصل إلى المركز في دمشق، أواخر ١٩٣٠ ينتشر رأي هنا "أنه لا خلاص للعرب خاصة، وللإسلام عامة إلا باتفاق العرب والأتراك مع البلاشفة" (الرسالة نشرت في جريدة صدى الأحرار الموصلية عدد ١٩٥٣/٤/٣، نقلاً عن نشأة الدولة ص٤٠٣). لقد أقاموا النظام الملكي عبر استفتاءات شكلية ولعبة برلمانية، فكان النظام يتسم بالتزييف وبشكلية برلمانية هي حقاً أفضل مما لحقها من أنظمة استبدادية فاشية، لكنها لم تكن ديمقراطية، أي حكومة الشعب للشعب. ولم تتح الفرصة لتطور سلمي، فكانت تلجأ للأحكام العرفية. لذلك تخلت الحركة الديمقراطية عن أساليب النضال الجماهيري والسلمي، وارتضت اللجوء إلى العنف فأطيح بالنظام بانقلاب عسكري، أخذ شكل الثورة الشعبية بفعل التعبئة الجماهيرية قبل الثورة. ولكن رغم كل إخلاص ووطنية عبد الكريم قاسم، ونظراً للاحتراب السريع بين حلفاء الأمس، خاصة بين القوميين واليساريين، وعدم النجاح في التغلب على المكائد الاستعمارية والرجعية، المحلية والإقليمية، أهمل النضال من أجل إقامة نظام ديمقراطي فجرى التركيز على شعار صيانة الجمهورية. وفي غياب الديمقراطية أطاح انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ بثورة تموز، فأحكم العسكر هيمنتهم، وتتابعت انقلابات عسكرية حتى وصل الأمر إلى المهيب الركن السيد القائد الضرورة.

وفي بقية العالم الثالث تم نيل الاستقلال، في الأغلب، بانقلابات عسكرية، أو حرب التحرير. وبدل تحقيق الديمقراطية وحكم الشعب قضي حتى على الأشكال المزيفة للديمقراطية وعلى النواءات المجتمع المدني، وعُسكر المجتمع أو اندلعت حرب أهلية بين الفصائل المسلحة التي ساهمت في نيل التحرر، كما في اليمن، أفغانستان وكردستان. هذه هي الصورة العامة، الغالبة، ولم يشذ عن هذا المنهج إلا سوار ذهب واحد في السودان، ولكنه لم يستطع أن يرسخ نظاماً ديمقراطياً.

الهند كانت الدولة الوحيدة التي نالت استقلالها ليس عن طريق الكفاح المسلح، وإنما عن طريق النضال الديمقراطي، وانتهاج سبيل غاندي في المقاومة السلبية. وبقيت رغم كل المشاكل

الاقتصادية والاجتماعية، ورغم التنوع الديني والقومي والعرقي والطائفي الهائل بعيدة عن الانقلابات والحرب الأهلية.

إن الكثير من الحركات الثورية المسلحة من أجل الاستقلال أو الديمقراطية أخذت في الثمانينات تحقق أهدافها ليس نتيجة الحسم العسكري بل بتعبئة الجماهير في النضال السياسي. وتحققت الحقوق المدنية للزنوج في أمريكا عبر النضالات السلمية.

نحو نظام ديمقراطي في العراق

السبيل الذي سيوصل العراق للخلاص مسألة تحتاج إلى بحث. فالانقلاب العسكري، بذهنية العسكر الذين تربوا طيلة الثلاثين سنة الأخيرة بروحية الجيش العقائدي والخنوع والخضوع للقائد الضرورة، لن يقود إلا إلى دكتاتورية جديدة، وإلى دورة جديدة من العنف.

ولأن صدام لا يعرف غير العنف سبيلا ، ولا يقر بالحقوق الديمقراطية والحوار، لا يرى الكثير من قوى المعارضة سبيلاً لتغيير نظامه سوى العمل الميداني، فلا يبحثون عن سبيل غيره، ويرفضون، بل يسفهون دون نقاش وتأمل كل دعوة تبحث عن طريق سلمي. ويعتبرون هذا السبيل مستحيلا ، ولا يريدون أن يروا حقيقة أن طريق العمل الميداني، الذي يدعون إليه لم يحقق هدفه، رغم أنهم سلكوه طيلة العقود الثلاثة الأخيرة، ورغم الشهداء الذين قدموا أرواحهم في سبيل تخليص الشعب من الطغيان، ورغم الاستعداد للبذل والفداء. فهو سبيل يكاد يكون مسدوداً بسبب تناسب القوى، وضعف وتشرذم المعارضة، وانشغال الناس بما يوفر للعائلة بعضاً من أسباب البقاء على قيد الحياة ليس إلا. ولا يأخذون درساً وعبرة حتى من واقع الاحتراب في كردستان الذي يكشف بجلاء عدم استطاعة أحد الحزبين الحاكمين الانتصار عسكرياً.

إن الانتقال السلمي شكل نضالي ثوري يتطلب تنامي حركة جماهيرية واسعة تفرض التغييرات بإسناد الرأي العام العربي والإسلامي والعالمي، وليست نتيجة مفاوضات وتنازلات من قبل المعارضة لهذا النظام.

التنظيمات في الخارج والديمقراطية

نتيجة الحكم الإرهابي الفاشي طيلة ما يزيد على ثلاثين عاما ، وزج البلاد في حروب مستديمة داخلية وخارجية، ونتيجة إبادة الجنس التي يرتكبها الأمريكان والإنكليز عبر مواصلة فرض الحصار، سلاح الإبادة الشاملة، على شعبنا تحت راية الأمم المتحدة، تزايد عدد العراقيين في المهاجر والمنافي ليصل حدود الأربعة ملايين، بعد مجازفات خطيرة تعرض لها الكثيرون قبل أن يصلوا المرافئ الآمنة. وقد تكونت في العديد من البلدان الأوربية وأستراليا والأمريكتين جاليات عراقية تتوفر لها إمكانية تنظيم نفسها بجمعيات ونوادي متنوعة مختلفة، وقد تشكلت بالفعل في العديد من البلدان مختلف التنظيمات الثقافية الاجتماعية، المستقلة عن الأحزاب، رغم انتماء

عدد من نشطائها إلى أحزاب. وليس من الغريب أن تلجأ بعض التنظيمات الحزبية إلى السيطرة على مثل هذه التنظيمات وتحويلها إلى توابع للمنظمة الحزبية، فهذا ديدن العمل الحزبي القصير النظر، الذي لا يريد الاستفادة من تجربة المنظمات الديمقراطية في السابق، الأمر الذي حولها إلى ميدان للصراعات الحزبية، وأسهم في إضعاف المنظمات الديمقراطية، بانفضاض العراقيين عنها، وأدى بالنتيجة إلى خسران المنظمة الحزبية ثقة أفراد الجالية. إن العمل في هذه المنظمات إسهام في التربية على الروح الديمقراطية، والعمل في مجالات التنظيمات المدنية، اللازمة لإقامة مجتمع ديمقراطي. ليس هذا فقط وإنما يمكن لمنظمات الجالية منذ الآن أن تتطور لتشكل رقابة على النخبة السياسية النشطة في المعارضة في الخارج، والتي تتنطع مدعية التحدث باسم العراقيين في الخارج دون أن تسعى للحصول على تفويض من الجالية، عن طريق السعي للاستفادة من إمكانية مساهمة الدول المضيفة في إجراء انتخابات بين صفوف الجالية لانتخاب ممثليها، وقد نظمت الحكومة البلجيكية مثلاً انتخاب ممثلي جالية المسلمين، أو تنظيم مشاركة اليوغسلاف اللاجئين في الاتحاد الأوربي في الانتخابات الجارية في بلدانهم. كما يمكن أن تلعب الجاليات العراقية دور جماعات ضغط لرفع الحصار الاقتصادي مع العمل على التحقق من تدمير أسلحة التدمير الشامل، ومن أجل تطبيق قرار مجلس الأمن ٦٨٨ لكفالة حقوق الإنسان وإجراء انتخابات برلمانية تحت إشراف دولي. ويمكن لتنظيمات الجالية العراقية أن تتهيأ في إعداد المراقبين الدوليين.

في أعدادنا القادمة..

الإسلام السياسي والدولة

وقائع الندوة التي عقدتها مجلة

(الثقافة الجديدة)

في هولندا – حزيران ٢٠٠٠

(ملف)

(ملف)

إشكاليات مسيرة الديمقراطية

في كردستان العراق

هادي محمود

تتوجه مجتمعات عديدة في العالم وبدرجات متفاوتة نحو الديمقراطية، حيث يمكن تلمس أشكال متفاوتة من التعددية السياسية على أساس التخلي عن حكم الحزب الواحد والدكتاتورية الفردية، والتوجه نحو الإقرار بحقوق الفرد وقبول الرأي الآخر وتداول السلطة وإفساح مجال العمل السياسي للمعارضة وضمان الحريات العامة.

وعلى خلاف أنظمة منطقة الشرق الأوسط والعالم العربي عموماً والتي كانت أقل تأثراً بالمد الديمقراطي الساري في العالم – رغم أنها لم تكن بمنأى عنه إذ وجدت الديمقراطية هوامش وواحات لها في تلك البلدان – شهدت كردستان العراق تجربة ديمقراطية تأسست على أسس حقيقية لا بمجرد التأثر بما يجري في العالم وانعكاساته على المنطقة، بل لإدراك ضرورة الديمقراطية كقضية حياتية وكحاجة موضوعية. وهي أي الديمقراطية، لم تمنح من قبل سلطة أو حاكم معين، بل أخذت عنوة بفضل الانتفاضة الشعبية العارمة التي اجتاحت كل العراق واستطاعت أن تحقق مكاسب لها في جزء من إقليم كردستان العراق الذي تحرر من سلطة الدكتاتورية ووضعت هذا الجزء المحرر من الإقليم على مسار الديمقراطية الحقيقية.

إن موضوعة الديمقراطية تكاد تقفز إلى المركز الأول من اهتمامات المواطن الكردستاني، وبالأخص فئات المثقفين المتابعين لما يجري في العالم من تطورات سياسية واقتصادية هامة. علماً أن هذا الاهتمام لم ينبع من فراغ، فالحركة التحررية الكردية بفصائلها المختلفة ناضلت منذ سنوات وبدعم من الجماهير الشعبية منذ عقود ضد الدكتاتوريات الحاكمة في العراق من أجل حقوقها القومية التي هي في جوهرها حقوق ديمقراطية وحريات عامة. كما أدركت الحركة وجماهير الشعب الكردستاني من خلال تجربتها التاريخية مدى ارتباط حل المسألة القومية حلاً عادلاً بمسألة الديمقراطية لا لكردستان العراق فحسب بل لعموم العراق، وذلك ليس من منظور

التلازم الميكانيكي بين طرفي المعادلة بل من خلال التفاعل الديالكتيكي والارتباط الموضوعية الذي خلق على أرضية الواقع تحالفات سياسية في إطار كردستان وفي إطار عموم العراق.

إن الاهتمام بمسألة الديمقراطية في كردستان العراق تضاعف في السنوات الأخيرة التي أعقبت الانتفاضة وخاصة بعد تجربة الاقتتال الداخلي المريرة التي أضرت بالتجربة الديمقراطية في الإقليم عموماً وأساءت إلى سمعة الشعب الكردي ونضاله التحرري.

وارتبط الحديث عن الديمقراطية بأزمة الحكم في كردستان العراق بعد الانتفاضة وتلكؤ القوى الكردية الحاكمة في حل المهام الوطنية المطروحة على صعيد كردستان العراق وعدم قدرة السلطات على تحقيق التنمية ومعالجة حالة الفقر بين جماهير الشعب والتعويل على العامل الخارجي لحماية الإقليم وفي تحديد آفاق تطور مستقبل الإقليم. ولا يمكن في هذا المجال إغفال الجانب الاجتماعي حيث تعثرت السلطة الكردستانية في طرح برنامج اقتصادي اجتماعي من شأنه معالجة التخلف والتبعية والتهميش وتفعيل دور المرأة ومساهمتها في عملية البناء ووضع حد لحالة اقتصاد السوق المنفلت الذي يعتبر بمثابة حاضنة للفئات البيروقراطية والطفيلية ولأثرياء الحرب.

إن جملة هذه الأمور ضاعفت من اهتمام الفرد الكردستاني بقضية الديمقراطية وتصور البعض أن الديمقراطية تعتبر حلاً سحرياً لجميع المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية، في حين أن المسألة تتطلب توافر مستلزمات ومقومات وفي مقدمتها عدم الاكتفاء بالحديث عنها فقط، بل اعتبارها مسألة صراعية تستوجب خوض النضال المرير وتقديم التضحيات وعبر إدراكها كضرورة حياتية.

وارتباطاً براهنية الوضع الكردستاني حيث يمكن أن يتلمس المرء هامشاً كبيراً للديمقراطية في مجالات مختلفة، تتعايش حالات النقيض مع هذا الهامش الديمقراطي حيث يتلمس المرء أيضاً وجود عراقيل وثغرات مختلفة سياسية واجتماعية واقتصادية في هذه المسيرة الديمقراطية وتمارسها فئات وشرائح متواجدة في الإدارة الحاكمة والأحزاب المتنفذة أو من قبل الآخرين الذين يبررون القمع ومصادرة الحريات إيديولوجياً ويعتبرون الديمقراطية بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار واعتبار الديمقراطية على هذا الأساس مفهوماً معادياً للشريعة الإسلامية.

إن الحديث عن الديمقراطية والنضال من أجلها وارتباطها بالنضال من أجل السلم والخبز للمواطن الكردي، لا يعني في الوقت الحاضر أن المناضلين من أجل الديمقراطية يطرحون ستراتيجية ثورة ديمقراطية عنيفة وبالشكل الذي يطرح للتغيير في العراق حيث يواجه الشعب دكتاتورية صدام حسين. فالمطروح في كردستان العراق هو تطور ديمقراطي تدريجي وسلمي وإيجاد أوسع تحالف ممكن من أجل تحقيق ذلك ويتطلب الأمر أن يكون اليسار الديمقراطي الكردستاني والذي يشكل الحزب الشيوعي الكردستاني – العراق أساسه، واضحاً في سياساته وبعيداً عن التردد في فضح الانتهاكات الموجهة ضد حقوق الإنسان والتجاوزات الحاصلة على الحريات العامة.

إن بدايات الديمقراطية في كردستان العراق المحررة من الدكتاتورية، كانت حقيقية وواقعية حيث بادرت الجماهير بالانتفاضة وحررت المدن ولحدة تلو الأخرى ومارست الجماهير حق الاجتماع والتظاهر والإضراب وحق تشكيل الأحزاب والجمعيات وإصدار الصحف وإبداء الآراء دون أن يمنحها أحد ذلك. وجاءت السلطة الكردستانية لتستلم مقاليد الأمور على أكتاف الجماهير ولتحدد هي عبر القوانين والتشريعات كيفية تنظيم ممارسة تلك الحريات ووضعت السلطة عراقيل تشريعية في هذا المجال. ثم تعثرت هذه المسيرة الديمقراطية بسبب عدم وضوح أبعادها ومتطلباتها واستحقاقاتها من قبل القوى المتنفذة في السلطة، وتجسد تعثر الديمقراطية في أزمة الحكم في فترة المناصفة في الحكم بين الحزبين وبعدها في اندلاع الاقتتال الداخلي واللجوء إلى السلاح لحل الخلافات، إضافة إلى العراقيل التي وضعت أمام مشاريع التنمية والتغيير الاجتماعي المطروحة من قبل الفئات الشعبية المتضررة حتى قبل اندلاع الاقتتال الداخلي. وأخص بالذكر هنا تلك المشاريع المتعلقة بإجراء تغييرات في مجالات الحقوق الفردية وإجراء تعديلات في قانون الأحوال الشخصية بعد تفاقم مظاهر العنف ضد النساء وتصاعد مظاهر العنف في المجتمع عموماً.

إن جزءاً كبيراً من الإشكاليات المتعلقة بالديمقراطية يرجع إلى آثار السياسة الدكتاتورية التدميرية للأنظمة التي تعاقبت على حكم العراق عموماً إضافة إلى نظرة القوى الحاكمة والقوى السياسية في الوقت الحاضر لمفهوم الديمقراطية نفسها ومدى الحريات والحقوق العامة التي تكفلها الديمقراطية وتشكل فحواها وجوهرها.

وإذا كانت الديمقراطية أسلوباً لإدارة الحكم يضمن تداول السلطة بالأساليب السلمية وعبر صناديق الاقتراع، فإنها تعني أيضاً ضمان حق الاختلاف والتنوع في الآراء وإبدائها والسعي لإيجاد القواسم المشتركة وإفساح المجال للفرد لكي يعبر عن إمكانياته بشكل حر، وضمان حرية العمل واختياره وحرية الثقافة والتعليم والتفكير والرأي والسكن والتظاهر والاجتماع والتنقل والانضمام إلى الجمعيات والأحزاب الاجتماعية والسياسية.

وهنا أزعم أن الخرق الفاضح جداً لمسيرة الديمقراطية في كردستان العراق بدأ مع مسألة الانتخابات البرلمانية عام ١٩٩٢ وتزييفها الواضح من قبل الحزبين الأساسيين اللذين يتقاسمان أراضي الإقليم منذ اندلاع الاقتتال وحتى الوقت الحاضر.

وقد دلت التجربة أن أسلوب المساومات السياسية والتغاضي عن خرق الديمقراطية بحجة حماية القضية الوطنية، ليس فقط لا يحمي القضية الوطنية والقومية والوحدة الوطنية، وإنما أيضاً يلحق أفدح الأضرار بها. بل إن حماية المسألة القومية والوحدة الوطنية تتطلب عدم التغاضي عن خرق الديمقراطية والعودة دائماً إلى إرادة الشعب الحرة النزيهة.

إلا أن سلطة الأمر الواقع التي تشكلت في كل منطقة من مناطق نفوذ الحزبين، لجأت إلى تبرير شرعيتها وفق صيغ ديمقراطية. ويشير الخطاب السياسي لكلا الحزبين ومن مواقع متعارضة إلى تحقيق الديمقراطية في منطقة نفوذه وفقدانه في المنطقة الأخرى الخارجة عن

نفوذه. وهناك تصور شائع لدى الطرفين بأن الديمقراطية قد تحققت بمجرد سماح كل طرف منهما لقيام الأحزاب وإجراء الانتخابات في بعض الجمعيات ومؤسسات المجتمع المدني والمنظمات "الديمقراطية" الموالية له أو إجراء الانتخابات في بعض المؤسسات التمثيلية والسماح بإصدار الصحف. في حين أن العمل الحزبي غير مسموح لكل طرف في منطقة نفوذ الطرف الآخر ولم تحسم قضية الآلاف من المهجرين والنازحين من أنصار وأعضاء الحزبين بعد أن رحلوا أثناء الاقتتال الداخلي.

رغم هذه الحالة، فهناك قوى وفئات محددة داخل الحزبين، تتطلع إلى الديمقراطية وتسعى لتحقيقها وفق المفهوم الليبرالي الجديد للديمقراطية ومن منطلق مراعاة العامل الدولي والتكيف مع ما يجري في العالم بذريعة أن مصلحة الشعب الكردي والقضية القومية تتطلب الانسجام مع فهم القطب المتحكم في السياسة الدولية للديمقراطية والتكيف مع العولمة الحالية وآليات السوق والخصخصة. إلا أن وجهة نظر هذه الفئات تواجه عقبات وعراقيل ليست بالقليلة؛ فالتركيبة الاجتماعية الطبقية للحزبين وسيادة نمط العلاقات العشائرية التي تتم مراعاتها في التعامل الاجتماعي كنمط للسلوك الاجتماعي المحدد لسياسات وممارسات الحزبين وحتى لسلوك وممارسات الفئات الداعية للديمقراطية في داخلهما، يجعل الأمور تسير بالاتجاه المعاكس للدعوات المتطلعة إلى الديمقراطية.

وهنا يكمن التناقض والازدواجية في سلوك الكثير من الداعين للديمقراطية والمتحدثين عنها داخل الحزبين، حيث يجري الحديث في القاعات الكبيرة في المدن عن ضرورات التحديث والعصرنة والمجتمع المدني والمنظمات الديمقراطية الحرة والحرية الفردية، ويتم في الوقت نفسه إحياء علاقات عشائرية وصرف مبالغ طائلة لشراء الذمم لكسب الأصوات الانتخابية قبل الدخول في أية عملية انتخابية.

إن الديمقراطية لا يمكن أن تنشأ من فراغ وتتطلب ممارستها سياسة واضحة معتمدة على إرادة الجماهير وطاقاتها عبر أجهزة مؤسساتية عصرية حقيقية ومجموعة قيم ومثل سياسية لا تنسجم مع الازدواجية الفكرية المتأصلة في العقلية السياسية للبعض ممن يريدون ممارستها ويعتبرونها أمراً لازماً لخدمة القضية القومية بينما يقومون في الوقت نفسه باحتكار القرار الحزبي وتغييب إرادة القاعدة الأساسية للحزب الحاكم نفسه، ناهيك عن إرادة الجماهير، والتفكير في حسم الصراع عبر شراء الذمم وإحياء العلاقات العشائرية والقبلية والمنطقية.

لهذا، فاعتبار الديمقراطية مفتاحاً لحل القضايا ووعاء لإدارة الصراع الاجتماعي بشكل سلمي ولإعادة الجماهير إلى مسرح الحياة السياسية وقبول إرادتها في تطبيق الأوضاع والسلم الدائم الشامل، يتطلب تهيئة القوى القادرة على الجمع بين النضال من أجل الديمقراطية السياسية والنضال من أجل رفع مستوى الأفراد اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً. فمن الصعوبة الحديث عن حرية حقيقية وتعبير حقيقي عن الرأي في ظل الجوع والحرمان والفقر والذي لا يقل عن القمع والاستبداد السياسي في كبح الديمقراطية.

لقد أصبح الإنسان الكردي يتمتع بحرية سياسية أكبر بعد تطبيق القرار ٩٨٦ الخاص بالنفط مقابل الغذاء وبعد توزيع الحصص التموينية على المواطنين مما قلل من فرص اضطرار الشبيبة إلى الانخراط في صفوف ميلشيات الحزبين المتقاتلين أو حالات شراء الذمم واستغلال حاجة الأفراد المعاشية من قبل من يمارسون نشاطاتهم تحت يافطة جمعيات الإغاثة الدينية.

ولا شك في أن توفر فرص العمل وتقليل البطالة وإيجاد آليات اقتصادية لاحتواء الأضرار التي تلحقها آليات السوق المنفلت بالأغلبية العامة من الجماهير الشعبية سوف يخدم في المحصلة النهائية الوحدة الديمقراطية بأبعادها السياسية.

إن الديمقراطية السياسية سوف تفرغ من محتواها الحقيقي ما لم تتحقق ديمقراطية في المجالين الاقتصادي والاجتماعي مما يعني توفير الفرص والحقوق المتكافئة اقتصادياً واجتماعياً وإطلاق طاقات المرأة وإمكاناتها في عملية البناء والتنمية.

وقد لا أكون مخطئاً إذا قلت إن ممارسة المزيد من الانتهاكات ضد الديمقراطية ومصادرة حقوق الإنسان ستكون لها ردود أفعال سلبية مسيئة للهامش الديمقراطي الموجود حالياً. فبسبب آثار الاقتتال الداخلي ودعم الطرفين المتقاتلين لأطراف من الإسلام السياسي المعادي للديمقراطية لغرض جرّها إلى طرفها في الاقتتال الدائر بينها، تضاعف نشاط قوى الإسلام السياسي المعروفة بعدائها للديمقراطية إيديولوجياً. وأصبح نشاط القوى الإسلامية يهدّد حتى تلك الأحزاب والأطراف الرئيسية التي دعمتها واعتبرتها حليفاً استراتيجياً لها في صراعها ضد بعضها. كذلك أصبحت مقولة الاستبداد ونفي الآخر غير كامنة في النظام السياسي أو مقتصرة على حاكم معين، وإنما مدّت هذه المقولة أطيافها إلى مختلف أوجه الحياة والتفكير وانعكست في ألوان من التطرف وادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة وتكفير الآخر واغتياله.

على ما فيها من تعقيدات شائكة، فإن الأوضاع في كردستان العراق تظل أهون من الأوضاع في مناطق العراق الأخرى الخاضعة لسيطرة نظام صدام حسين. وينبغي ملاحظة هذا الاختلاف النوعي، مثلما ينبغي عدم غض النظر عن الانتهاكات الجارية في المنطقة الكردية. إن قضية تحقيق التطبيع والسلم في كردستان والدفاع عن مسيرة الديمقراطية وترسيخها وتعميقها، ستساهم عملياً في عملية النضال ضد الدكتاتورية الحاكمة في العراق عبر تجديد الآمال بمستقبل الديمقراطية وآفاق تطورها.

(ملف)

الديمقراطية:

المجرد والملموس في نضالنا الوطني الديمقراطي

فاخر جاسم

بعد تفكك النظام الشمولي في الاتحاد السوفيتي وغيره من بلدان أوربا الشرقية، ونشوء أنظمة ديمقراطية وفق النموذج الليبرالي، منهية بذلك حقبة طويلة من نظام الحزب الواحد، أخذت قضية الديمقراطية تحتل حيزاً كبيراً في الدعاية الغربية ووسائل الإعلام الموجه للعالم النامي الذي تسود في أغلب بلدانه أشكال مختلفة من أنظمة الحكم الاستبدادية. وقد حفزت هذه التطورات النضال الشعبي من أجل الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان الأساسية.

فيما يخص المنطقة العربية التي تميزت بثلاثة أنواع من أنظمة الحكم – نظام الحزب الواحد الشمولي المشابه، من حيث الشكل فقط، للنمط السوفيتي، الملكية المحافظة والأنظمة ذات المسحة الليبرالية المحدودة – فإن التطورات أعلاه، تزامنت مع مضاعفات حرب الخليج الثانية، وبالتالي فإن الآمال بالإصلاح السياسي الديمقراطي تزايدت لسببين، الأول، زوال النظام الشمولي الأم في البلدان الاشتراكية، الذي كان يشكل المثال والغطاء الخارجي الداعم بقوة لأنظمة الحزب الواحد في صراعها ضد قوى التغيير الداخلية. أما السبب الثاني فإنه يتمثل في تزعم الولايات المتحدة للتحالف الدولي الذي أخرج القوات العراقية من الكويت، وما نتج عن ذلك، من زيادة تبعية حكام الخليج العرب للولايات المتحدة الأمريكية، بسبب حاجتهم، إلى الدعم الأمريكي للوقوف ضد عدوان "الجيران" وحماية الاستقرار الداخلي الذي أصبح مهدداً بسبب عجز الأنظمة الحاكمة عن حماية الحدود وصد التهديد الخارجي، وهو عجز غدا واضحاً لأعداد واسعة من المواطنين، بمن فيهم أفراد من العوائل الحاكمة الذين تأثروا بالنموذج الليبرالي نتيجة تعليمهم في الدول الغربية. وقد اكتشفت هذه النخبة المثقفة أن الاعتماد على الحماية الغربية وموارد النفط والعمالة الأجنبية غير كاف لحماية بلدانهم من العدوان الخارجي وتحقيق الاستقرار الداخلي. إن كل هذه التطورات

أعطت الانطباع بإمكانية إجراء تغييرات في أسلوب إدارة الأسر الحاكمة للسلطة باتجاه زيادة المشاركة والانفتاح السياسي، على اعتبار أن ذلك يشكل تجاوباً مع رغبة أمريكية لا تستطيع السلطات الحاكمة مقاومتها.

إن الآمال بحدوث إصلاحات ديمقراطية جذرية، وليست شكلية كالتي جرت في بعض بلدان مجلس التعاون الخليجي، لم تتحقق لثلاثة أسباب هي:

أولاً: طبيعة الموقف الغربي، والأمريكي بشكل خاص، من الديمقراطية في البلدان النامية الذي يتسم الازدواج، حيث تهاجم، باسم الديمقراطية، أنظمة حكم غير موالية للغرب، وتفرض تحت نفس الذرائع "الديمقراطية" أنظمة ديكتاتورية موالية للغرب. ويمكن تعليل هذا الموقف الذي يعزل الممارسة عن النظرية فيما يخص تطبيق الديمقراطية في البلدان الأخرى بطبيعة السياسة الخارجية الأمريكية التي تضع تحقيق المصالح الخاصة كمعيار أول يسبق القيم الإنسانية والأخلاق. هذا هو الجانب الأول من هذه المسألة، أما الجانب الثاني فإنه يتعلق بمفهوم "الاستحقاق للحرية" الذي ترسخ عند أوساط واسعة من صانعي القرار في الإدارة الأمريكية. وفق هذا المفهوم فإنه "من الخطأ الكبير التأكيد على أن جميع الشعوب سواسية في حقها في الحرية لأن الحرية في الفكر السياسي الأمريكي مكافأة ينبغي أن يستحقها من يبتغيها وليس بركة تسبغ على الجميع بدون استثناء"(١).

لقد كانت الولايات المتحدة أكثر التزاماً بهذه المعايير في علاقاتها مع الدول الأخرى، على الرغم من تزعمها الحملة العالمية من أجل الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان الأساسية، خلال الفترة التي أعقبت إنهاء الحرب الباردة. وقد أوجز الباحث الأمريكي المعروف، نعوم تشومسكي، الموقف الأمريكي من تطبيق الديمقراطية في البلدان الأخرى بقوله: أنت حر لتفعل ما تريد ما دمت تفعل ما نريدك أن تفعله.

لقد طبق هذا المفهوم، بشكل ملموس، عند التعامل مع الشعب العراقي بعد انتهاء حرب الخليج الثانية، حيث وقفت الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى، تتفرج على المعاملة الوحشية التي تعرض لها الشعب العراقي أثناء انتفاضته في آذار ١٩٩١. وقد جرى، آنذاك، الترويج لفكرة "عدم نضوج الشعب العراقي لإقامة الديمقراطية.. وان النظام المركزي القوي هو الوحيد القادر على المحافظة على الوحدة السياسية والجغرافية للعراق" لتبرير التغاضي الأمريكي عن دعم الانتفاضة(٢).

ثانياً: عجز القيادات العربية الحاكمة عن إدراك الأسباب الحقيقية لأزمة الخليج الثانية، باعتبارها أزمة الأنظمة السياسية العربية، وأن تجاوزها لا يتم إلا عبر الانفتاح السياسي الداخلي وزيادة المشاركة الشعبية في إدارة الحكم.

ثالثاً: المعوقات الداخلية للديمقراطية ومن أهمها:

- تخلف البنية الاجتماعية الناتجة عن ضعف البنى الاجتماعية الجديدة - الأحزاب، النقابات،

المنظمات المهنية والثقافية – أي منظمات المجتمع المدني، والتي نشأت بعد تفكك وانحلال البنى التقليدية كالعشيرة والقبيلة والطائفة.

– تخلف حضاري مرتبط بالتطور الاقتصادي – السياسي.

– ضعف الوعي الاجتماعي المرتبط بالإرث الثقافي الثقيل حيث تترسخ التقاليد الاجتماعية غير الديمقراطية. فالمواطن الذي لا يدرك معنى الديمقراطية، فكراً وممارسة، يكون عائقاً كبيراً أمام أي تطبيق للديمقراطية.

لقد عمق الإرهاب والقمع المنظم، الذي كان السمة المميزة لتعامل الحكومات العربية مع شعوبها، من تأثير العوامل أعلاه في إعاقة نمو الديمقراطية. كما أنها ساهمت أيضاً في عرقلة تكوين قوة منظمة قادرة على فرض التغيير وإيقاف النهج الاستبدادي.

عرض موجز للديمقراطية:

الديمقراطية ظاهرة تاريخية تنشأ وتتطور في مجتمع محدد، وفي مرحلة زمنية معينة، ولا يمكن النظر إليها بمعزل عن الظواهر الاجتماعية الأخرى: المؤسسات القائمة، أساليب الإنتاج وعلاقاته، منظمات المجتمع (الأحزاب السياسية، النقابات والمنظمات المهنية والاجتماعية، المؤسسات الثقافية)، العقائد الإيديولوجية.

– الديمقراطية إطار سياسي، يعبر عن التعددية الاجتماعية ويحاول أن يستوعبها في إطار سلمي. بمعنى آخر، الديمقراطية شكل للحياة السياسية يوفر أكبر قدر من الحرية لأكبر عدد من المواطنين، وفي الوقت نفسه يوفر، أي الشكل، مستلزمات حماية وإعادة إنتاج نفسه.

– الديمقراطية بحاجة إلى مقدمات ضرورية لنجاحها أهمها:

– توفر نظام للعلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية، ينظم العلاقات بين: أفراد المجتمع وطبقاته، بين الدولة والمجتمع، بين مؤسسات الدولة نفسها – تنفيذية، تشريعية، قضائية.

– للديمقراطية مبادئ أساسية هي:

– سيادة القانون.

– الانتخابات العامة.

– الاعتراف بمجموعة من الحريات العامة وحقوق الإنسان (حرية تكوين الأحزاب والمنظمات المهنية والاجتماعية، حرية الرأي، حرية الاجتماع والتظاهر، حرية التعبير "الصحافة والنشر").

– التداول السلمي للسلطة.

– الاعتراف بالتعددية السياسية والحزبية.

التجربة العراقية في الديمقراطية:

للديمقراطية في العراق تجربة، سياسية وفكرية، ابتدأت بعد نشوء الحكم الوطني مباشرة.

مرت التجربة بثلاث مراحل:

- مرحلة العهد الملكي ١٩٢١ – ١٩٥٨
- مرحلة ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ – ١٩٦٣
- المرحلة التي أعقبت انقلاب شباط ١٩٦٣ – إلى الفترة الراهنة

المرحلة الأولى:

وتعتبر من أوائل التجارب الديمقراطية في البلدان العربية، وقد تضمنت أهم عناصر الديمقراطية اللبرالية الأساسية – الأحزاب السياسية، الانتخابات والدستور. حيث تأسست ثلاثة أحزاب بعد صدور قانون الجمعيات في آب ١٩٢٢ وهي الحزب الوطني برئاسة الزعيم الوطني جعفر أبو التمن، وحزب النهضة برئاسة أمين جلبي الجرجفجي وعبد الرسول أفندي كبة، والحزب الحر برئاسة محمود أفندي الكيلاني. وقد استمرت الحياة الحزبية بشكلها العلني حتى ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨[٣].

كما جرت أول انتخابات في العراق لاختيار أعضاء المجلس التأسيسي في ١٩٢٤، وأجريت (١٦) دورة انتخابية لمجلس الأمة "البرلمان العراقي" للفترة من ١٩٢٥ لغاية ١٩٥٨. كذلك صدر أول دستور عراقي "القانون الأساسي" في تموز ١٩٢٥. وقد احتوى القانون الأساسي على المبادئ الرئيسية لأي دستور ديمقراطي حديث، حيث نص على:

- مبدأ الفصل بين السلطات الثلاث (التنفيذية، التشريعية والقضائية).
- أقر مبدأ الانتخابات.
- نص على الحريات العامة، وحرية تأسيس الأحزاب السياسية، بشكل خاص.

مرحلة ثورة ١٤ تموز:

جلبت التغييرات التي أحدثتها ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ على طبيعة السلطة السياسية تأثيراً كبيراً على تطور التجربة الديمقراطية، خاصة أنها لاقت تأييداً شعبياً واسعاً، اشتركت فيه كل مكونات المجتمع المدني. وقد ساهمت الإجراءات التي قامت بها سلطة الثورة في سنتها الأولى، بحصول تطور ديمقراطي واسع، سواء في قمة السلطة أو على المستوى الشعبي. وقد تمثل ذلك في:

- تشكيل حكومة ائتلافية تضم كل الأحزاب السياسية التي ساندت الثورة – باستثناء الحزب الشيوعي الذي كان له تأثير غير رسمي على الحكومة.

- السماح بحريات سياسية واسعة، تمثل بإجازة العديد من الأحزاب السياسية والنقابات والجمعيات المهنية.

- توفر قدر كبير من الحريات الديمقراطية الأخرى (الصحافة، التظاهر والتجمع، التعبير عن الرأي).

- إصدار دستور مؤقت يثبت لأول مرة أن العراق شراكة بين العرب والأكراد وسن قانون للأحزاب والجمعيات.

- إصدار العديد من القوانين التي تلبي الحقوق الاجتماعية. ومن أهمها قانونا الإصلاح الزراعي والأحوال الشخصية.

- القيام بالعديد من الإجراءات الاجتماعية والاقتصادية لتحسين وضع الفئات الاجتماعية محدودة الدخل.

- السعي الحثيث لبناء هوية وطنية عراقية، لتشكل أحد المستلزمات الضرورية للاستقرار السياسي والاجتماعي، ولمعالجة الأخطاء التي رافقت تكوين الدولة العراقية. والقيام بإجراءات ملموسة لتجاوز كل أشكال التمييز القومي، الطائفي والمحلي/ الإقليمي.

لقد ساهمت جملة من الملابسات التي رافقت مسيرة الثورة بعرقلة قيام تجربة ديمقراطية، أغنى من تجربة العهد الملكي، حيث بقيت الانتخابات البرلمانية والدستور الدائم مجرد أمنيات. ولكي لا يخرج التقييم عن سياقه الموضوعي - التاريخي، لابد من الاشارة إلى أهم الملابسات التي أدت إلى ذلك، وهي:

١- الميول الفردية عند قيادة السلطة.

٢- الاحتراب الحاد بين القوى السياسية العراقية.

٣- اشتداد النزاعات القومية والعنصرية.

٤- التدخل الخارجي والإقليمي في الشؤون الداخلية.

المرحلة الثالثة:

بعد انهيار تجربة ثورة ١٤ تموز، إثر انقلاب شباط ١٩٦٣، شهد العراق ارتداداً كبيراً في مسيرة التجربة الديمقراطية، حيث بدأت مرحلة المزايدة السياسية ضد الشكل الليبرالي للديمقراطية، في فترة الستينات والسبعينات، وهي الفترة التي شهدت سيطرة الخطابين، الماركسي والقومي على فصائل حركة التحرر الوطني العربية. ونتيجة للتنافس بين التيارين الماركسي والقومي على كسب الجماهير، بدأت تغيب عن الفكر السياسي العراقي ومفردات خطابه، العناصر الأساسية للديمقراطية - حرية العمل للأحزاب السياسية، حرية الصحافة، الانتخابات (البرلمانية والرئاسية) - وغيرها. وسمح ذلك بصعود مفردات جديدة مثل: الديمقراطية الثورية والشعبية،

الحزب القائد، الواحد، المتميز (إشارة إلى ما ورد في ميثاق "الجبهة الوطنية والقومية التقدمية" التي تشكلت في ١٩٧٣) وغيرها من المفردات الفكرية والسياسية للنظام الشمولي، الذي أخذت معالمه تتشكل كنظام استبدادي بعد تفاقم الجنوح نحو تجربة الحزب الواحد في الحكم التي بدأت، بشكل فعلي، بعد الصعود الثاني للبعث إلى السلطة عام ١٩٦٨.

لقد أدت نتائج سياسات سلطة الحزب الواحد، الاستبدادية، إلى عودة المجتمع العراقي إلى المراحل الأولى لما نطلق عليه بـ"الثورة الوطنية الديمقراطية"، وبناء على ذلك سيتم تناول المرحلة الحالية من نضالنا الوطني الديمقراطي التي تمتاز بالخصائص التالية:

– وصاية دولية "غير مباشرة" على العراق تعبر عنها العقوبات الدولية المفروضة عليه منذ عشر سنوات.

– التداخل العميق بين المهام الوطنية – الديمقراطية والمهام الاجتماعية نتيجة للتدمير الكبير الذي سببته الحروب الداخلية والخارجية للدكتاتورية الحاكمة، واستمرار الحصار الاقتصادي، وتأثيرات ذلك على البنية الاجتماعية التي أصابها التفكك، بحيث أصبح النسيج الاجتماعي للمجتمع يتكون من أغلبية فقيرة ومعدمة، وأقلية غنية حد الإفراط.

– سلطة دكتاتورية – استبدادية ذات سمات إرهابية سافرة.

– معارضة شعبية شاملة للسلطة مع عدم توفر الإطار التنظيمي المناسب للاستفادة منها لإحداث التغيير المطلوب في طبيعة السلطة.

إن هذه الطبيعة المعقدة لمرحلة النضال الوطني الديمقراطي الراهنة، تجعل الكفاح في سبيل الديمقراطية يجري في ظروف شائكة وصعوبات هائلة، نتيجة الاندماج الشديد بين مهام النضال ضد الوصاية الدولية ومحاولات الهيمنة الأمريكية على العراق، بشكل أكثر تحديداً، والمهام الداخلية للنضال ضد سلطة الاستبداد الشمولي ونتائجها السياسية والاجتماعية والثقافية. ولا يمكن للنضال الوطني الديمقراطي، للشعب وقواه الوطنية الديمقراطية، أن يكون ناجحاً دون الجمع بين وجهي النضال المذكورين.

وبناء على التحديد السابق لطبيعة المرحلة الراهنة التي يمر بها المجتمع العراقي، لابد من الإشارة بشكل مكثف إلى المفردات الرئيسية للبرنامج الوطني الديمقراطي والتي يمكن إجمالها بالعناوين التالية:

أولاً، النضال لرفع الحصار الاقتصادي:

إن مهمة العمل لرفع الحصار الاقتصادي تحتل الأولوية في النضال الوطني الديمقراطي لسببين، الأول، التدمير الذي شمل كل مناحي الحياة في المجتمع العراقي بسبب استمراره كل هذه المدة الطويلة. وهنا نشير بشكل خاص إلى المخاطر المباشرة للحصار على البنية الاجتماعية التي

أزيلت منها، تقريباً، الطبقة الوسطى، التي تلعب دوراً مهماً في تماسك تلك البنية. فبفضل الوظائف المهنية والاجتماعية التي تؤديها تكون الطبقة الوسطى أساساً لحفظ التوازن الاجتماعي. ولهذا لا يمكن، بسبب التلازم بين إقامة الديمقراطية ووجود الطبقة الوسطى، تحقيق الديمقراطية في مجتمع أغلبيته من الفقراء المعدمين، الباحثين عن لقمة العيش، فمثل هؤلاء لا يتوفر عندهم الوقت الكافي للتفكير بالديمقراطية. وفي الوقت نفسه، فإن حاجة الأغنياء للديمقراطية تبقى محدودة في ظل مثل هذا الوضع. السبب الثاني، تعارض العقوبات الاقتصادية مع المواثيق الدولية لحقوق الإنسان، وبشكل خاص مع بنود الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لعام ١٩٤٨، فإذا كانت السلطة الدكتاتورية تنتهك الحقوق السياسية الواردة في الإعلان والتي نصت عليها المواد (٢ – ٢١) وتعرقل، بشكل غير مباشر، تمتع الشعب العراقي بالحقوق الاجتماعية التي نص عليها الإعلان، فإن الحصار الاقتصادي يخرق، وفق المعايير السياسية – الحقوقية، الحقوق الاجتماعية والثقافية التي وردت في المواد (٢٢ – ٢٨)، والتي تشمل (الحق في العمل والضمان الاجتماعي، الرعاية الصحية، الحصول على تعليم مناسب وحماية الأمومة والطفولة).

إن دور الحصار والعقوبات الدولية في تدهور الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي نصّت عليها المواثيق الدولية لحقوق الإنسان، ليست دعاية للنظام الدكتاتوري، حيث أكدتها المنظمات الدولية الإنسانية مثل: منظمة الأغذية والزراعة الدولية ومنظمة الطفولة الدولية ومنظمة أطباء بلا حدود وغيرها. كما أن ذلك لا يعفي السلطة العراقية من مسؤوليتها في تعميق آثار الحصار.

ثانياً، إنهاء الدكتاتورية:

إن مهمة إنهاء الدكتاتورية تعتبر من أولويات النضال الوطني الديمقراطي، وليس هناك خلاف على هذه القضية بين القوى والأحزاب العراقية، بما فيها أوساط من الحزب الحاكم. رغم ذلك، فإن عملية الإنهاء تثير إشكالين هامين: الأول، يتعلق بالأسلوب، والثاني يخص القوى التي تقوم بهذه المهمة.

فيما يتعلق بالإشكال الأول، يطرح الأسلوب العنفي "المسلح" كأسلوب وحيد ورئيسي، من قبل أغلبية القوى المعارضة الوطنية[٤]، على اعتبار أن السلطة الحاكمة لم تترك خيارات أخرى أمام التغيير السلمي. ورغم صحة الأسباب التي تطرحها قوى التغيير العنفي، إلا أن الناحية العملية – ميزان القوى، استعداد الجماهير وتوفر القيادة الميدانية داخل الوطن – لا ترجح احتمالات حدوثه وانتصاره، وفق عمل منظم يتصاعد تدريجياً. بل إن تفجره يعتمد على المفاجآت، كما حدث في آذار ١٩٩١ وشباط ١٩٩٩ بعد استشهاد السيد محمد صادق الصدر.

أما الإشكال الثاني، عوامل التغيير، فإن هناك تبايناً كبيراً بين القوى التي تنادي بإنهاء الدكتاتورية، فقسم كالشيوعيين وأغلبية أطراف الحركة الدينية، التيار القومي العربي والكثير من الشخصيات الوطنية المستقلة منها يعتمد على العوامل الداخلية للشعب العراقي، مع عدم إهمال

الدعم السياسي والمعنوي للعامل الخارجي. وقسم آخر ممثل خاصة بقوى "مؤتمر نيويورك" الذي عقد في العام الماضي، يراهن كلياً على العامل الخارجي معتمداً على قانون "تحرير العراق" الذي تتبناه الولايات المتحدة.

ثالثاً، حل القضية القومية:

إن بقاء القضية القومية الكردية بدون حل عادل، يستجيب للحقوق المشروعة للشعب الكردي والأقليات القومية والأثنية الأخرى – التركمان والكلدو آشور – شكل حالة استنزاف متعدد النواحي للمجتمع العراقي، خلال المراحل المختلفة التي مرّ بها تطور الدولة العراقية الحديثة.

وبناء على ذلك، يعتبر تلبية الحقوق المشروعة للقومية الكردية والأقليات القومية الأخرى التي يتكون منها الشعب العراقي، أحد الأهداف الرئيسية لنضالنا الوطني – الديمقراطي في المرحلة الراهنة. ونظراً لاختلاف وجهات نظر القوى السياسية العراقية حول الشكل الفدرالي الذي اتخذه الشعب الكردي لتلبية حقوقه القومية، بعد التطورات التي أعقبت حرب الخليج الثانية، وليس حول مبدأ الاعتراف بالحقوق القومية للأكراد الذي يقره الجميع، سأتطرق بشكل موجز إلى الفدرالية، كتعريف وأهداف.

تعني الفدرالية أو النظام الفدرالي، من حيث الجوهر، "المشاركة السياسية والاجتماعية في السلطة، وذلك من خلال رابطة طوعية بين أمم وأقوام أو شعوب، أو تكوينات بشرية من أصول قومية أو عرقية مختلفة، أو لغات وأديان أو ثقافات مختلفة، وذلك في نظام اتحادي يوحد بين كيانات منفصلة في دولة واحدة أو نظام سياسي واحد"[٥].

من التعريف السابق، نرى إن الفدرالية هي وسيلة للوحدة الطوعية بين القوميات المختلفة وليس أداة لتقسيم أو تجزئة الكيان السياسي الموحد[٦]، وبالتالي يمكن اعتبارها آلية يتم عبرها تحقيق/ تمتع مجموعة معينة من المواطنين في بلد محدد، سواء كانت هذه المجموعة (قومية، دينية، لغوية، أو محلية) بالحقوق الإدارية والثقافية. أو بعبارة أخرى، ممارسة الإدارة الذاتية للشؤون المحلية بدون تدخل مباشر من المركز. وهي وفق هذا المفهوم، تعتبر وسيلة لتعزيز الوحدة السياسية والجغرافية، خاصة في الفترة التي تلي حكم شديد الاستبداد، لأنها تطمئن مصالح المجموعات السكانية المعرضة للتمييز، عبر الاشتراك الأفقي لأكبر عدد من السكان في السلطة.

وإذا أخذنا تجربة ممارسة السلطة، في العراق تحديداً، نرى أن الحاجة تزداد لتطبيق صيغة الحكم الفدرالي، لتفتيت الممارسة الشمولية/ المركزية التي طبعت سلوك السلطات الحاكمة، خلال عقود كثيرة، نظراً لما تحمله صيغة الفدرالية من قدر كبير من اللامركزية. إن تطبيق الفدرالية، لا يؤدي إلى تمتع الشعب الكردي بحقوقه القومية فقط، بل إلى إنهاء تركز وتمركز السلطة في منطقة واحدة وفئة معينة من سكان العراق، مما أدى إلى توسع حالة التذمر من عدم المساواة والتمييز، عند أبناء المناطق الأخرى، خاصة في وسط وجنوب العراق.

المرحلة الراهنة من نضالنا الوطني الديمقراطي وخطاب المعارضة الوطنية

مقدمات أولية:

أ - المهام الديمقراطية التي ينبغي أن يتضمنها خطاب المعارضة الوطنية يجب أن تكون شديدة الملموسية، لأنها موجهة لشعب يعاني من سلطة استبدادية، فاقت كل تصور. ولهذا فإن العمومية في الطرح تشعر المواطن العراقي بأن الخطاب صادر من مراقب خارجي وليس من جهة وطنية عراقية متحمسة تعتبر الديمقراطية من أولى اهتماماتها.

ب - العمومية أو الغموض في الخطاب السياسي لأي حزب، خاصة إذا كان معارضا، تسهل على هذا الحزب التنصل من الالتزام به، متهما الآخرين، إما بسوء فهم الخطاب أو تحميله أكثر مما يحتمل. أما الملموسة فإنها ملزمة لصاحب الخطاب وبالتالي فإن عدم الالتزام يضعف من مصداقية الحزب المعني أمام المواطنين.

ج - إن الوضوح في خطاب المعارضة حول الديمقراطية، تفرضه متطلبات الواقع الاجتماعي والسياسي في العراق، حيث عانت الديمقراطية، إما من التزييف، كما في العهد الملكي، أو من التغييب والتزييف معا، في العهود اللاحقة. إن كل ذلك أدى إلى فقدان الثقة بتحقيق الديمقراطية.

بناء على المقدمات أعلاه سيتم تناول البرامج والخطاب السياسي للمعارضة الوطنية العراقية بخصوص المسألة الديمقراطية من خلال ملاحظات مكثفة، حيث تمت الإشارة إلى بعض مواقفها ضمن الفقرات السابقة.

١- أغلب الأحزاب لا توجد لديها برامج مكتوبة تحدد فيها رؤيتها للديمقراطية، باستثناء الحزب الشيوعي والأحزاب الكردية الرئيسية (حدك وأوك). وفيما يخص الأحزاب الدينية، يتميز حزب الدعوة منها بوجود مثل هذا البرنامج.

٢- تأثر الخطاب السياسي حول الديمقراطية بالتطورات الإقليمية والدولية التي حدثت خلال العقد الأخير، دون أخذ الظروف والتجربة المحلية بنظر الاعتبار، مما جعل هذا الخطاب يتسم بالاغتراب والابتعاد عن الحاجات الفعلية للمواطن العراقي في الداخل.

٣- انعزال الخطاب عن الممارسة الفعلية، حيث أثبت الكثير من الحوادث النزوع نحو التسلط والاستئثار والانفراد من بعض قوى المعارضة. فيجري تقديم الخلافات الإيديولوجية على الأهداف السياسية المشتركة خاصة عند بعض الأطراف الدينية. كذلك يجري التلاعب والتزوير في الانتخابات، كالتي أجريت في كردستان من قبل الحزبين الكرديين الرئيسين.

٤- الخلط في المفاهيم عند تناول المهام الديمقراطية: فالشورى توضع كمرادف للديمقراطية، الفدرالية كمرادف لنظام الولايات الإسلامي، الانتخابات كمرادف للبيعة.

٥- الغموض في الطرح بخصوص مبادئ أساسية للديمقراطية مثل: التداول السلمي للسلطة، القبول غير المقيد بالمعارضة السياسية والفكرية، احترام الرأي الآخر، احترام الأكثرية لرأي الأقلية. إن هذه السمة غالبا ما يتصف بها الخطاب السياسي للقوى الدينية.

٦- في أحيان كثيرة تغيب عن الخطاب السياسي المعارض، المهام الأساسية للنضال الديمقراطي في المرحلة الراهنة، مثل إزالة الدكتاتورية ورفع الحصار والعقوبات الدولية، ومقاومة مشاريع الهيمنة الأجنبية على العراق. ويرجع ذلك إلى مصالح حزبية وفئوية ضيقة تضمر ميول للمصالحة مع السلطة أو تتخوف من إحراج القوى الدولية ذات الاهتمام المباشر بالقضية العراقية.

خلاصة وملاحظات ختامية:

أولا، مفهوم الديمقراطية: إن عناصر الديمقراطية الأساسية (النظام القانوني، الانتخابات، التعددية السياسية والفكرية، التداول السلمي للسلطة والحريات العامة والشخصيات) مترابطة فيما بينها، ولهذا فأي انتهاك لأحد يعتبر إخلالا بالعناصر الأخرى، وبناء على ذلك يمكن القول:

- الاقتراع العام بدون وجود أحزاب مختلفة، سياسيا وفكريا لا معنى له.
- التعددية مع عدم وجود الحريات السياسية والفكرية تصبح "مسرحية بدون ممثلين".
- وجود الحريات مع منع التداول السلمي للسلطة، يمهد الطريق إلى صراعات دموية حادة.
- وجود التعددية والحريات والانتخابات، بدون تطبيق القانون لضمان تكافؤ الفرص بين الجميع، يؤدي إلى سيطرة النزعات الطائفية والعشائرية والمحلية.

ثانيا، التجربة العراقية في الديمقراطية:

تعتبر التجربة العراقية في الديمقراطية، واحدة من التجارب الرائدة في المنطقة العربية، على الرغم من المحاولات التي قامت بها سلطات العهد الملكي، لإفراغها من محتواها الديمقراطي، سواء عبر الممارسة أو القوانين الاستبدادية التي أصدرتها[٧]. لذا يفترض أن تقيم هذه التجربة على ضوء الظروف الموضوعية - التاريخية والتوازنات الفكرية - الاجتماعية التي جرت فيها، وليس بالاحتكام إلى التعصب الإيديولوجي والمصالح الحزبية الضيقة، مثلما فعلته كل القوى السياسية العراقية.

ثالثا، المهام الديمقراطية في المرحلة الراهنة:

للمهام التي تنتظر القوى الوطنية الديمقراطية العراقي طابع نظري وآخر عملي. فالنظري يتلخص بالاطلاع على تجربة شعبنا وتراثه وثقافته واكتشاف الجوانب الإنسانية الديمقراطية فيها التي يمكن أن تغني توجهنا نحو الديمقراطية، إضافة إلى التعمق في دراسة تجارب الشعوب الأخرى في هذا المجال. أما العملي فله طابع مباشر يتلخص بما يلي:

- النضال في سبيل رفع الحصار الاقتصادي. إن هذه المهمة تعتبر جزءا هاما من النضال

الملموس في سبيل الديمقراطية، حيث لا يمكن القيام بنضال فعال من أجل الديمقراطية والشعب على حافة الجوع ومعزول عن العالم الخارجي.

- ينبغي العمل على ربط رفع العقوبات عن السلطة الحاكمة بمدى احترامها للحقوق الأساسية للمواطن، وليس فقط بنزع أسلحة الدمار الشامل العراقية، استنادا لقرار مجلس الأمن المرقم (٦٨٨). وتوظيف ذلك لصالح الكفاح الوطني العام لإنهاء كافة مظاهر الدكتاتورية وممارساتها على صعيد المجتمع والدولة.

- إن حالة تشوه البنية الاجتماعية، حيث تنقسم إلى قسمين، أغلبية فقيرة وأقلية غنية، تستدعي الاهتمام المتكافئ بجانبي الديمقراطية: السياسي والاجتماعي. إن التركيز على الجانب السياسي فقط، يؤدي إلى تحويل الانتباه عن العدالة والمساواة، أي من الشرطين الضروريين للاستقرار الاجتماعي الذي يحتاجه البناء الديمقراطي السليم.

- من أهم مستلزمات نجاح النضال لإقامة الديمقراطية، مكافحة الأشكال المتخلفة للوعي الاجتماعي - كالعشائرية، العنصرية، الطائفية والإقليمية - المنتشرة، الآن، في المجتمع. ولا يتم ذلك بدون التأكيد على بعث الهوية الوطنية العراقية التي لها دور رئيسي في تماسك الوعي الوطني.

- إن حل القضية القومية الكردية من خلال تبني النظام الفدرالي، وتوسيع اللامركزية في الحكم، لا يعني في الواقع العملي والنظري، دعوة إلى تغيير الوحدة السياسية - الجغرافية للدولة العراقية. بل يأتي استجابة لحل مشاكل العراق المزمنة الناشئة عن عدم مراعاة التعدد الأثني والقومي والطائفي من قبل السلطات الحاكمة. وهو ما أدى إلى تفاقم أشكال التمييز، وتنامي مشاعر الغبن والتذمر، وخلق حالة من عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي.

رابعا، الحركة الوطنية العراقية والديمقراطية:

- تشير تجربة الأحزاب العراقية إلى ضعف الاهتمام بالديمقراطية داخل بنيتها التنظيمية، مما أدى إلى شيوع ظاهرة الانقسامات التنظيمية والنزاعات الفكرية والسياسية الحادة. إن لهذه الظاهرة تأثير سلبي، حيث أدت إلى إضعاف الوعي الديمقراطي العام في المجتمع. وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها بعض الأحزاب لتلافي هذه الظاهرة السلبية، كالشيوعي العراقي، على سبيل المثال، فإنها بحاجة إلى معالجة جدية، إذا أردنا تأسيس وعي ديمقراطي قادر على مقاومة الميول الاستبدادية عند الحاكمين والمحكومين.

- إن الأسلوب الذي تعتمده قوى المعارضة الوطنية لإحداث التغيير مهم جدا، خاصة للفترة التي تلي إنهاء الدكتاتورية، حيث أثبتت التجارب أنه كلما كان العنف المستخدم في التغيير أقل، اصبح من الأسهل إقامة الديمقراطية. فالعنف من حيث المبدأ يتناقض مع الديمقراطية باعتبارها أداة لضبط الصراعات السياسية والاجتماعية في المجتمع وتوجيهها وجهة سلمية.

- إن التخلي عن الغموض والضبابية والعمومية والمواجهات الإيديولوجية في خطاب قوى

المعارضة عن الديمقراطية، يساهم في التوصل إلى نظـرة سياسـية مشـتركة تشـكل الشـرط الضروري لوحدة المعارضة الوطنية التي بدونها لا يمكن استنهاض طاقات الشعب العراقي فـي سبيل الكفاح لإنهاء الدكتاتورية.

وأخيرا، ينبغي على أحزاب المعارضة الوطنية العراقية أن تساعد مؤسسات الجالية العراقيـة (الجمعيات والنوادي الثقافية والاجتماعية) المتواجدة في الخارج، لتنمية الوعي الديمقراطي عنـد أبناء الجالية، التي يزيد عددها على الثلاثة ملايين، من خلال الممارسة الديمقراطيـة فـي إدارة الشؤون الداخلية لتلك المؤسسات وفي تعاملها مع الوسط العراقي والامتناع عن فرض الوصايـة عليها.

هوامش:

(١) كلود جوليان "معرض الحريات والإمبراطوريات الأمريكية" نقلا عن سيف سيد علي "حقوق الإنسان في العراق.. واقع وآفاق" مجلة دراسات عراقية، العدد ٦/ ١٩٩٨.

(٢) هذا ما صرح به ريتشارد هاس، عضو مجلس الأمن القومي/ المسؤول عن شؤون العراق. نقلا عن شبلي الملاط "تذليل العقبات من مسار الطريق الديمقراطي العراقي" جريدة الحياة، ١٩٩٢/١١/٢٥.

(٣) د. لطفي جعفر فرج عبد الله "عبد المحسن السعدون، دوره في تاريخ العراق السياسي المعاصر" بغـداد ١٩٨٨، ص٦٨.

(٤) موقف الحزب الشيوعي العراقي المعلن هو الأقرب للواقعية، لأنه يدعو إلى استخدام كل الأساليب. أنظـر علـى سبيل المثال مقالة حسان عاكف، عضو م.س في "طريق الشعب" آذار/ ١٩٩٨ الذي يدعو إلى اسـتقالة الرئيـس العراقي، صدام حسين، كطريق لإنهاء الدكتاتورية. أما موقف قوى المعارضة الأخرى – التيار الدينـي، القومـي العربي والتيار الليبرالي "قوى المؤتمر الوطني" فإنها مع العنف كأسلوب وحيد.

(٥) عامر عبد الله "المشاركة السياسية والاجتماعية في السلطة من خلال رابطة طوعية" جريدة المؤتمر ١٩٩٥/١٠/٦.

(٦) أنظر الندوة التي أقامتها مجلة "دراسات عراقية" حول الفدرالية مع ممثلي بعض قوى المعارضة الوطنية العراقيـة ونشرت في العدد التاسع كانون الثاني ١٩٩٩، حيث اعتبر ممثلو القوى الدينية العربية الحل الفدرالي، الذي أقـره البرلمان في كردستان العراق، صيغة لتقسيم العراق. في حين دافع عن الفدرالية ممثلو الأحزاب الدينية الكردية.

(٧) أصدرت سلطات العهد الملكي ٢٧ قانونا ومرسوما للفترة من ١٩٣١ – ١٩٥٨ تحدا من الحريـات الديمقراطيـة، كانت حصة نوري السعيد أكثر من نصفها (١٧). جرجيس فتح الله، "العراق في عهد قاسم، تاريخ سياسـي ١٩٥٨ – ١٩٦٣" الملحق ص٥٩٦–٥٩٨.

(ملف)

الديمقراطية والتحول الديمقراطي

(مناقشة مفاهيمية)

د. عبد الوهاب حميد رشيد

تعبر الديمقراطية عن مفهوم تاريخي اتخذ صوراً وتطبيقات متعددة في سياق تطور المجتمعات والثقافات. وتقوم مكوناتها الأساسية على حكم الشعب وممارسته الرقابة على الحكومة. ويتمثل جوهر الديمقراطية في توفير وسيلة سلمية منهجية حضارية لإدارة المجتمع السياسي بغية تطوير فرص الحياة[1]. وظهرت في صورتها الأولى مع ازدهار الحضارة الإغريقية ونشوء دولة المدينة الإغريقية. إذ مورست مباشرة، واقتصرت على الأحرار من الذكور، وفي ظروف عدم الفصل بين السلطات[2]. ففي عام ٦٠٠ ق.م أصبحت أثينا تحت قيادة بيركلس المناصر للحرية. يقول في إحدى خطبه: إن حياتنا السياسية حرة... ونحن أحرار متسامحون في حياتنا الخاصة... ثم يدعو بقوله: احزم أمرك على أن السعادة أن تكون حرا ، وأن الحرية تتطلب أن تكون شجاعاً[3]. استمرت التجربة الإغريقية فترة قصيرة قبل زوالها. وبعد حوالي ألفي عام ظهرت الديمقراطية المعاصرة غير المباشرة أو النيابية لصعوبة تطبيق الديمقراطية المباشرة في عصر الكثافة السكانية. ورغم مزية الديمقراطية غير المباشرة في توفيرها للتكاليف الزمنية والمالية، إلا أنها تقود إلى تقليص القوة السياسية للناخبين مقارنة بالديمقراطية المباشرة[4]. وهذا يوضح أحد مبررات تعزيز الرقابة المؤسسية على الحكومة المنتخبة..

تشكلت الديمقراطية الحديثة نتيجة الأفكار التي انبثقت في فترة النهضة الأوربية. ولم تظهر بالمعنى الليبرالي قبل القرن الثامن عشر، حين بشّر المفكرون الغربيون بفكرة المساواة، وطالبوا بحق الشعب في اختيار حكومته والإشراف عليها. وكانت الدعوة منصبة على حق الاقتراع العام بضمان دستور مكتوب صادر عن مجلس تأسيسي منتخب بأغلبية أصوات الناخبين. وقد ربط روسو تحقيق المساواة بتوفر عاملين: الإرادة (معنوي) والمقدرة (مادي)، وطالب بخلق التوازن

بينهما[٥]. وفي ظروف تمحور الديمقراطية الدستورية حول المساواة السياسية والحرية الاقتصادية عندئذ فتحت الطريق أمام الرأسمالية الغربية إقامة المشروعات الضخمة وفتح الأسواق العالمية واجتياح الشعوب الأخرى وإنشاء الإمبراطوريات الاستعمارية. فظهرت الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، وتولدت النظريات الجديدة التي تناولت مشكلات المجتمع بالدراسة والنقد. وأخذ الفكر الاشتراكي في إبراز عيوب البرجوازية. ورأى أن الطبقة المسيطرة على النظام السياسي تعمل على إخضاع الديمقراطية لصالحها. ونتيجة لهذه التطورات ظهرت الديمقراطية الاجتماعية باتجاه بناء مجتمع أكثر عدلاً بالمقارنة مع الديمقراطية الليبرالية[٦]. كما تعددت تطبيقات الديمقراطية وأخذت الأنظمة السياسية المختلفة حتى تلك الأكثر هدراً لحقوق الإنسان تدعي أحقيتها بصفة الديمقراطية. وربما وجدت هذه الظاهرة تفسيرها في العوامل الثلاثة التالية: **الأول** أن الديمقراطية ليست إرثاً ثقافياً لأية حضارة معينة. **الثاني** عدم بلوغ الأنظمة السياسية مستوى من الموازنة بين جانبي الديمقراطية – السياسي والاجتماعي – يحظى بالقبول العام. **الثالث** عدم حصول إجماع على مفهوم ومكونات الديمقراطية في ظروف قيام عملية التحول الديمقراطي بجانبيها – السياسي والاجتماعي – على النسبية. إذ لا يوجد نظام حكم سياسي فقط أو اجتماعي فقط.

تقوم الديمقراطية على مبادئ الحرية Freedom وهي تختلف عن فكرة التحرير Liberty ، حيث دعت أولاً إلى تحرير الإنسان من قيود العبودية، وتطورت فيما بعد إلى تحرير الاقتصاد لتوفير الظروف المواتية لانطلاق البرجوازية الصاعدة. فالحرية تقوم على مفهوم نوعي إيجابي يتضمن مبادئ حقوق الإنسان[٧]. وتجسد الحرية قضية إنسانية تتعدى قيمتها قيم الأشياء الأخرى لأنها تعبر عن امتلاك الإنسان لفكره وإرادته، وتمنحه شعور المواطنة الكاملة في استجابته للحقوق والواجبات، وتعمل على تحرير عقله للانطلاق نحو المستقبل واكتشاف المجهول وتعزيز بديهته وبصيرته وألمعيته. كما أنها توفر الأساس الراسخ لاطمئنان الإنسان لذاته وراحته النفسية، وتؤسس قيم التفاهم الاجتماعي، بل التفاهم بين الشعوب، كمثل لغة الاسبيرانتو العالمية[٨]. وتوقع جان جاك روسو تضاؤل احتمالات الحرب بين الدول الديمقراطية لاهتمام شعوبها بتطوير حياتهم الحضارية[٩]. ويربط الدكتور علي الوردي نشوء الديمقراطية بمرحلة متقدمة من مراحل تطور الحضارة البشرية "... إن ظهور الديمقراطية الحديثة لا يقل في أهميته الاجتماعية عن ظهور الدولة. فإن الدولة قضت على التقاتل القبلي، بينما الديمقراطية قضت على التقاتل السياسي"[١٠].

ومع ذلك تبقى الديمقراطية – الحرية بدون معنى حقيقي في غياب حرية الاختيار "أن تنصحني بعدم القيام بفعل ما، هو كلام أجوف، ما لم أقتنع أني قادر على صنع قراري بقبول أو رفض النصيحة. ومن المؤكد إذا فقدت قدرتي على اتخاذ قراري بالخيارات المتاحة وأصبحت مجرد منفذ لصوت القدر الذي أملاه قاض متصلب أو بسبب ظروف اجتماعية قاسية، عندئذ من الصعب أن أفهم لماذا أتحمل مسؤولية تصرفي"[١١]. إلا أن الحرية ليست مطلقة، بل هي محدودة

ومحددة في إطار المسؤولية المشتركة لأفراد المجتمع. وهذا ينطوي على أمرين: أولهما ليس لأحد الحق في رفض الحرية، لأن ذلك يعني نكران آدميته والتهرب من مسؤولياته الاجتماعية. لذلك قيل "لا مهرب من الحرية"[١٢]. وثانيهما تتطلب الحرية درجة من الانضباط لتحديد ممارسة الفرد لحريته بالعلاقة مع حرية الآخرين.

إن إحدى العقبات التي تواجه الحرية ومهمة التحول الديمقراطي هي النزعة الذاتية القوية تحت السلطة. يحذر Lord Acton من أن السلطة تحفز على الفساد. ويرى أن هؤلاء الذين يتمتعون ببعض السلطة، حتى وإن كانوا من أصحاب الضمائر الحية عادة ما يرونها منقبة virtue عند حصولهم على المزيد منها[١٣]. وهذا مبرر آخر لفرض الرقابة المؤسسية على تصرفات السلطة التنفيذية لكي لا تتبنى سياسات وتشريعات يمكن أن تقود إلى إضعاف أو تشويه أو تقييد الديمقراطية – الحرية، لأن ما يتخذ بطريقة ديمقراطية لا يكون بالضرورة ديمقراطياً[١٤].

من مبادئ الديمقراطية رفض الإيمان المطلق بالأفكار والإيديولوجيات السائدة لصالح التعامل النسبي معها، والتخلي عن همجية العنف في ظل احترام قيمة الإنسان ووجوده، ونبذ المواقف الحادة – العصبية – في إطار استعداد النخب والأطراف السياسية للعيش بسلام والقبول بالمنافسة الانتخابية وفي سياق الاتفاق على الحد الأدنى الضروري للأهداف العامة المشتركة.. "إن أعضاء المجتمع السياسي يسعون وراء أهداف متباينة يتم التعامل معها – بين أمور أخرى – من قبل الحكومة. إن الاختلاف والاتفاق جانبان مهمان من جوانب الأنظمة السياسية. إن الناس وهم يعيشون معاً لن يستطيعوا أبداً الاتفاق على كل شيء، ولكن إذا أرادوا الاستمرار في الحياة معا ، فهم لن يستطيعوا إلا أن يتفقوا على أهدافهم"[١٥].

كما تتطلب عملية التحول الديمقراطي بيئة اجتماعية وسياسية وثقافية واقتصادية ومؤسسية توفر لها إمكانية الاستمرارية والنمو بطريقة نمطية متصاعدة بعيداً عن الانقطاعات والتراجعات. وهنا يلعب الإرث التاريخي – الاجتماعي دوراً حيوياً في هذه المسيرة. ففي الهند مثلاً طبقت الديمقراطية منذ أوائل الخمسينات من القرن العشرين وسط انتشار واسع للأمية والفقر والانشقاقات اللغوية والأثنية والدينية، بحيث شكّلت لغزاً enigma للمفكرين الغربيين ولنظريات الديمقراطية الغربية[١٦]. فرغم دور حزب المؤتمر الهندي في تحقيق التطوير التدريجي للمؤسسات الديمقراطية والأحزاب السياسية، إلا أن مواريث الثقافة الهندية احتلت مكانة متقدمة في مسيرة التحول الديمقراطي في الهند. يذكر أحد كبار كتّاب الهند في قضايا التحضر وهو Badrinath Chaturvedi أن أحد مبادئ الفكر الهندي الذي ساد ممارسات المجتمع الهندي هو القناعة بأن كافة الأفكار تقريبية (نسبية) بالعلاقة مع الحقيقة. عليه لا يوجد فكر يمتلك الحقيقة الكاملة. وبالنتيجة استطاع الهنود تطوير موقف فكري تجاه الأفكار الأخرى على نحو مرن ومقبول جداً[١٧]. برزت هذه الأفكار الثقافية وممارساتها جلية في الفترة الكولونيالية، واحتلت القلب في مسيرة التحرر الهندية. إذ وفّرت قدرة عظيمة على الاستعاب assimilation والتكتل agglomeration وفي اتباع طريقة تؤكد على التوفيق accommodation بدلاً من العزل segreation ، وعلى الإجماع consensus أكثر من

المواجهة confrontation . وهذه الأفكار شكلت فيما بعد ديمقراطية عالية مقارنة بممارسات معظم شعوب العالم الثالث.

ولما كانت الديمقراطية مفهوماً تاريخياً وحصيلة تراكمية لعملية طويلة وصعبة من الممارسات، لذلك فهي تتطلب نفساً طويلاً في سياق العلاقات الاجتماعية السلمية بين الأطراف السياسية. وتتشكل مملكة السويد مثالاً لامتداد عملية الصراع من أجل نقل السلطة من الملك إلى نواب الشعب (البرلمان) لفترة امتدت منذ عام ١٤٣٥م عندما تحقق ولادة البرلمان في صورته الأولى (اجتماع اربوغ Arbogg) ولغاية النصف الأول من سبعينات القرن العشرين عندما استكملت السويد نظام الملكية الدستورية. ولم تظهر التسمية الحالية للبرلمان Riksdag قبل عام ١٥٠٠م، ولم تتطور قواعد متينة لكيفية عمل البرلمان السويدي قبل عام ١٦٠٠م عندما أخذت الفصول البرلمانية دورتها كل ثلاث سنوات في استوكهولم بدلاً من مدينة أربوغ. وجاءت المحاولة المركزية التالية عام ١٨٦٦م عندما تم إحلال مجلسي البرلمان محل المجلس القديم، رغم أن حق الاقتراع العام بقي محصوراً في فئات معينة من أصحاب الثروة وذوي المنزلة الاجتماعية لغاية عام ١٩٠٩ عندما شمل كافة الذكور. وبقيت المرأة محرومة من هذا الحق لغاية عام ١٩٢١. وحصل التغيير الكبير الأخير بالعلاقة مع تعزيز سلطة البرلمان عام ١٩٧١ عندما اجتمع البرلمان ذو المجلس الواحد. وفي دورة انعقاده عامي ١٩٧٣ و١٩٧٤ شرع قانوناً جديداً للوزارة وآخر للبرلمان الذي افتتح دورته في صورته الجديدة عام ١٩٧٥ بعد تجريد الملك من سلطاته السياسية ليصبح رمزاً للبلاد[١٨].

ليست الديمقراطية عسلاً نقياً، أي قاصرة على الإيجابيات فقط، ولا تقدم حلولاً سحرية للمعضلات المجتمعية، بل لها كذلك سلبياتها، سواء ما تعلق ببطء صنع القرار أو انفتاح المجال لاحتمالات حصول المزيد من الانحرافات السياسية والإدارية أو الجرائم الاجتماعية والسوق السوداء، خاصة في المجتمعات الأقل نمواً.. من هنا كانت مهمة التحول الديمقراطية نمطية تتسع وتتعمق مع انتشار الثقافة الوطنية الديمقراطية وتحسين الأوضاع الحياتية للمجتمع. هذا علاوة على أهمية تطوير الكفاءات والمهارات لإدارة العملية السياسية المجتمعية ومواجهة مخاطر الانحرافات الاجتماعية. وهذا ما يستوجب تأكيد شروط التحول الديمقراطي مثل صيانة ودعم الاستقلال السياسي وحماية النشاط الوطني الاقتصادي والثقافة الوطنية في مواجهة الثقافة الاستهلاكية الغربية. كذلك تتطلب عملية التحول الديمقراطي انضباطاً مجتمعياً في سياق تحقيق موازنات بين مهمة التحول هذه، من جهة، وبين تعظيم خطوات تنمية الإنسان، من جهة أخرى، وتعزيز الاستقلال الاقتصادي من جهة ثالثة، بغية تقليص ظاهرة عدم التكافؤ (الاستغلال) في التعامل مع العالم الخارجي، خاصة الغرب الصناعي، وحتى لا تتحول الديمقراطية إلى مجرد ظاهرة شكلية سطحية وممارسات غوغائية وتراكمات للمديونية الخارجية وإنهاكات لمعيشة الأغلبية وتعميق للتبعية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لصالح الأقلية الفاسدة (الأوليغاركية).

تعني لفظة الديمقراطية بمعناها الإغريقي "حكم الشعب". وعبر عنها الرئيس الأمريكي الأسبق

ابراهام لنكولن بقوله "حكم الشعب من الشعب وإلى الشعب". ورغم سهولة التفسير اللغوي للديمقراطية إلا أن محاولات تحديد مفهومها واجهت اختلافات واسعة. ولعل ذلك بسبب أن الديمقراطية ليست مفهوماً علمياً يمكن بالتالي تعريفه بطريقة منهجية، بل هي مجرد تعبير لغوي ينظر إليها كل فريق من زاوية مختلفة[١٩]. ويرتبط بذلك أيضاً تباين وجهات النظر حول ما إذا كانت الديمقراطية سياسية فقط أم أنها كذلك اجتماعية. بكلمات أخرى مسألة الربط بين الحرية السياسية والمساواة الاقتصادية، رغم الاتفاق على أن السير باتجاه التوازن النسبي بينهما يبقى مسألة مركزية لاستقرار النظام السياسي[٢٠].

نوقشت الديمقراطية من منطلقين متباينين. فهي وفقاً للنظرية المعياريةNormative Theory هدف قائم بذاته (وصف ما يجب أن تكون عليه). من هنا تكون الديمقراطية سياسية فقط. بينما هي وسيلة حسب النظرية التطبيقية (الإمبريقية) Empirical Theory (وصف ما هي عليه فعلاً). وربما تصبح المناقشة أقل صعوبة وأسهل فهماً عند الفصل بين الديمقراطية كنظرية وبين الديمقراطية كعملية (التحول الديمقراطي). فالأولى تعبر عن فكرة نظرية بحتة غرضها تقديم صورة مثالية لما يجب أن تكون عليه الديمقراطية. أما الثانية فهي تنصب على التطبيق العملي لهذه النظرية[٢١]. وهذه المناقشة تقود إلى إبداء ثلاث ملاحظات:

الأولى: إن الديمقراطية كنظرية بحتة هي سياسية فقط، وإنها سياسية – اجتماعية منظوراً إليها من الناحية التطبيقية.

الثانية: طالما أن الديمقراطية ليست حكراً على إيديولوجية معينة، بل هي وسيلة سلمية لإدارة المجتمع السياسي، فهي متاحة لكافة الإيديولوجيات والأنظمة لاستخدامها. عليه فإن درجة نجاحها أو عجزها في تطبيقها، خاصة ما يتعلق بالموازنة بين الحرية السياسية والمساواة الاقتصادية، لا تخص الديمقراطية في حد ذاتها بقدر ما تعود إلى الأنظمة الاجتماعية المعنية.

الثالثة: وكما هي الحال في المجالات الأخرى، تقترن الديمقراطية عموماً بصفة المثالية. إذ لا توجد لحظة زمنية يمكن عندها الادعاء ببلوغ هذه الحالة المثالية. بمعنى أن التعامل هنا ينصب في الواقع العملي على عملية التحول الديمقراطي بجوانبها المتعددة من ثقافية وسياسية واقتصادية واجتماعية والتي تستمر إلى ما لا نهاية من أجل تحقيق مستويات حضارية أكثر تقدماً للمجتمع السياسي.

وبغض النظر عن الأشكال الرسمية للتطبيقات الديمقراطية، يمكن أن تشكل العناصر الثلاثة التالية الحد الأدنى لمكونات الديمقراطية في ظل أي نظام سياسي – اجتماعي[٢٢]:

الأول: حقوق الإنسان، متضمنة مجموعة حقوق أساسية للمواطن مثل حقه في الحياة وأمنه وكرامته، وحرية التعبير عن الرأي، والانضمام إلى التنظيمات السياسية وما شابه. ومن المهم التأكيد على ثلاثة جوانب لهذه الحقوق: **أولها** تحقيق المساواة الكاملة في الحقوق والواجبات بين أعضاء المجتمع السياسي. **وثانيها** ضمان الحقوق الاجتماعية للمواطنين بما في ذلك حق العمل والتعليم والصحة والسكن والرعاية الاجتماعية.. **وثالثها** الممارسة الإيجابية لهذه الحقوق بحيث

تقود إلى مشاركة المواطنين بصورة فعالة في صنع قراراتهم الجماعية. إن تحديد هذه العناصر الثلاثة يجسد أهمية الممارسة العملية لهذه الحقوق بغض النظر عما تنص عليه الدساتير، ومهما كانت المبررات الإيديولوجية.

الثاني: التعددية السياسية والاجتماعية، بما في ذلك حق اختيار الناخبين لممثليهم من خلال انتخابات حرة لإدارة شؤون حكمهم لفترة زمنية محددة. ولما كان الاختيار هنا وظيفياً وليس شخصيا ، لذلك وجب تعدد الخيارات، أي عدم حصر الترشيح في شخص واحد. ويرتبط بذلك أن تعدد الاتجاهات السياسية حول قضايا العمل الوطني تشكل سداً مانعاً لحدوث الأخطاء الفادحة وتوفر ضمانة أكيدة للتجديد وترشيد التعامل مع المتغيرات الداخلية والخارجية. هذا بالإضافة إلى القبول بالتعددية الثقافية واللغوية في إطار المجتمع الواحد.

الثالث: التداول السلمي للسلطة، إذ أن التعددية السياسية تفقد جوهرها في ظل احتكار السلطة. ذلك أن التعددية تتطلب توفير فرص متكافئة لكافة الأحزاب والجماعات المتواجدة للدخول في منافسة انتخابية متماثلة لكسب ثقة الناخبين بشأن تولي السلطة النيابية عنهم وتنفيذ البرنامج الأكثر قبولاً من وجهة نظر الأغلبية. وهذا يتطلب تداول السلطة بصورة شرعية وسلمية بعيداً عن العنف والانقلابات والتصفيات. وهذه الطريقة توفرها الديمقراطية ومؤسساتها الدستورية. وهنا أيضاً فالعبرة بالممارسة العملية وليس بمجرد النصوص الدستورية.

وقبل ختام الموضوع، فإن إثارة المزيد من المناقشة تبرر طرح الملاحظات الأربع التالية:

الملاحظة الأولى: ماهية الديمقراطية وطبيعتها

السياسة وسيلة لإدارة المجتمع، ومرآة للفعل الإنساني – المجتمعي.. والنظام الديمقراطي هو شكل من أشكال أنظمة الحكم وإن كان الشكل الأكثر تحضراً.. وكل منظمة: عائلة/ مدرسة/ مزرعة/ مصنع/ مؤسسة، ولغاية نظام حكم المجتمع السياسي لها جوانبها الحياتية المتعددة من أهداف وسياسات، ويقودها نظام اجتماعي من أجل تحقيق غايات منشودة. بمعنى أن الإنسان – المجتمع لا يتعامل مع السياسة من أجل السياسة، بل لأنها انعكاس لعلاقاته ووسيلة لحل معضلاته وطريقة لإشباع حاجاته. من هنا لا توجد منظمة تكون سياسية فقط أو اجتماعية فقط، بل هي تتضمن دوماً الظاهرة الحياتية بجوانبها المتعددة من اجتماعية وسياسية، أي بأهدافها ووسائلها.

عليه فالقول بأن الديمقراطية سياسية فقط يتجه نحو نظرية الديمقراطية ومن منظور فكرة مثالية فلسفية تعبر عن مظلة فوقية. هنا القول بأن الديمقراطية سياسية ليس القصد منه الجوانب التطبيقية، لأن الإنسان – المجتمع لا يشبع حاجاته بالسياسة فقط. من جهة أخرى فالقول بأن الديمقراطية هدف في حد ذاته يقوم على نظرة مطلقة وتعسفية لتجزئة جانبي الظاهرة الحياتية، أي نظرة أحادية تنطلق من زاوية واحدة للظاهرة المعنية (سياسية أو اقتصادية، جيدة أو سيئة، نافعة أو مضرة، الخ..) وتتغافل عن حقائق للحياة الدنيوية النسبية التي تقوم على منطق أن لكل شيء أو ظاهرة جانبين أو وجهين متنوعين..

من هنا فإن إطلاق لفظة "ديمقراطية سياسية" أو القول بأن هذا الحزب أو ذاك النظام هو "ديمقراطي"، يبقى قولا غامضا لأنه يقتصر على البعد السياسي فقط للظاهرة دون أبعادها الاجتماعية. بينما يكون واضحا نسبيا عند الإشارة إلى نظام ما أو حزب ما بأنه: ديمقراطي ليبرالي.. ديمقراطي ماركسي.. ديمقراطي إسلامي.. ديمقراطي قومي عربي/ كردي، الخ.. لأن الأخير يربط بين النظام السياسي (الوسيلة) والنظام الاجتماعي (الفكرة – الإيديولوجية)، على أساس أن كل نظام سياسي يتطلب نظاما اجتماعيا ليقوده ويحقق غاياته. وهكذا تكون الديمقراطية سياسية واقتصادية (اجتماعية)..

الملاحظة الثانية: حدود الديمقراطية وعلاقاتها الحضارية

تعبر الديمقراطية عن مفهوم تاريخي اتخذ صورا وتطبيقات متعددة في سياق تطور المجتمعات والحضارات البشرية، أي أنها ظاهرة حضارية تراكمية. وهذا يتضمن مسألتين: **أولاهما** أن الديمقراطية ليست حالة آنية، أي أنها ليست قالبا أو نموذجا جاهزا للتطبيق.. **وثانيتهما** أن الديمقراطية تشكل إرثا حضاريا لا يخص ثقافة أو حضارة معينة. إنها ظاهرة حضارية عالمية..

وفيما يخص المسألة الأولى، فإن الديمقراطية ليست حالة آنية تتحقق في لحظة زمنية محددة، بل عملية ممتدة وصعبة من مراحل تطبيقية تتطلب صبرا عميقا ونفسا طويلا وممارسة متواصلة بعيدة عن الانقطاعات والتراجعات. وهي تعني أيضا أنها تنمو وتنتشر وتتسع وتتعمق مع نمو وانتشار واتساع وعمق تطور الجوانب الحضارية المجتمعية، المتمركزة حول تنمية الإنسان نفسه.

إذن الديمقراطية لا تتحقق فجأة من خلال الدساتير والقوانين الأوامرية، رغم ضرورتها لتنظيم الحياة المجتمعية، وهي ليست قالبا جاهزا يمكن استيراده وبناؤه كما هو حال المنشأة الإنتاجية، بل هي قيم وممارسات حضارية تتولد وتتشكل بصورة نمطية تدريجية. لذلك لا يمكن الادعاء بعائديتها إلى ثقافة أو حضارة معينة. بل هي متاحة لكافة الثقافات والأفكار الإيديولوجية والأنظمة الاجتماعية التي تأخذ بها كطريقة حضارية من أجل بلوغ غاياتها المجتمعية.

من هنا لا يمكن اعتبار الديمقراطية الغربية نموذجا عالميا صالحا لكافة الأنظمة الاجتماعية، لأن الديمقراطية الغربية هي ديمقراطية ليبرالية لخدمة النظام الاجتماعي الرأسمالي، إذ أنها نشأت ونضجت وتشكلت في أحضان الرأسمالية وتجسد خطابها السياسي. وفوق ذلك، فإن اعتبار الديمقراطية الليبرالية قالبا ملائما لكافة الأنظمة الاجتماعية يقوم ضمنا على حكم تعسفي.ودعوة غير مباشرة إلى إلغاء بقية الأفكار الإيديولوجية الإنسانية والتخلي عن الأنظمة الاجتماعية الأخرى من دنيوية أو دينية. وهو يتضمن تشويها مخلا للحقيقة العالمية القائمة على تنوع الأفكار الإيديولوجية والأنظمة الاجتماعية.. وهو يعني أخيرا ، وليس آخرا، الهرولة وراء سراب المقولة الأمريكية بـ: أن الرأسمالية (الديمقراطية الليبرالية) هي نهاية التاريخ!!

الملاحظة الثالثة: شروط الديمقراطية ومتطلباتها

الديمقراطية، مثلها كمثل بقية ظواهر الحياة عامة، لها إيجابياتها ولها أيضا سلبياتها.. فهي في جوهرها طريقة حضارية لإدارة المجتمع السياسي وتطوير فرص حياته، أما في تطبيقاتها، خاصة عندما تسير على نحو غير متسق مع بقية الفروع المجتمعية، فيمكن أن تولد مشكلات اجتماعية قد تكون من الخطورة بحيث تقلل كثيرا من إيجابياتها.

من هنا لا تقتصر الديمقراطية على الإيجابيات ولا تقدم حلولا سحرية للمعضلات، لأن لها كذلك العديد من السلبيات، سواء ما يتعلق باحتمالات حدوث المزيد من الانحرافات الإدارية والسياسية والجرائم الاقتصادية بما فيها سيطرة منظمات المافيا واتساع السوق السوداء، أو ما قد تولده من صراعات حضارية بين القيم الحديثة الوليدة وبين قيم التراث القديم.. هذا علاوة على احتمالات توسيع التبعية وتنمية جيوب الأقلية النخبوية. وبكلمات موجزة، تتطلب الديمقراطية الانتباه الشديد إلى أهمية تحقيق التوازن في مسيرتها بالعلاقة مع مسيرة بقية الفروع الاقتصادية والاجتماعية. يرتبط هذا بثلاثة أمور: أولها إدارة عملية التحول الديمقراطي.. وثانيها توازن المسيرة الديمقراطية ومسيرة التنمية.. وثالثها تأكيد الاستقلال الاقتصادي من أجل تعزيز الاستقلال السياسي.

وفيما يخص الموضوع الأول، فإن إدارة عملية التحول الديمقراطي ربما تكون الأكثر صعوبة مقارنة بإدارة أشكال أنظمة الحكم الأخرى.. لأن المسألة تتطلب منذ البداية بناء التناسب بين تنمية الكفاءات الإدارية وفق مفاهيم وأساليب تتفق والقيم الجديدة وبين التوسع في العملية الديمقراطية. وهذا يجسد بدوره طبيعة عملية التحول التي تكون تدريجية أولا وتبدأ على نحو متناسب وقدرة المجتمع ورغباته وممارساته للقيم الجديدة وفق خطوات نمطية. فعلى سبيل المثال يتطلب الكشف عن الانحرافات والجرائم الإدارية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية إدارة نوعية جديدة وعقلية متشبعة بقيم القادم الجديد تقوم على مراعاة حقوق الإنسان من جهة واستخدام أساليب متطورة في التعامل واكتشاف الأدلة الجرمية من جهة أخرى. وهذا وحده يبرر تدريجية عملية التحول وضرورة بناء التناسب بين مسيرة الديمقراطية وبين تنمية كفاءة إدارة هذه المسيرة.

أما عملية التحول الديمقراطي في سياقها المجتمعي العام فهي تتطلب التعامل الحضاري مع التناقضات والصراعات والخلافات التي تتحرك على قدم وساق بين مختلف الأطراف الاجتماعية وتتطلب صبرا عميقا ونفسا طويلا في سياق بنية مؤسسية قادرة على التعامل معها بصورة سلمية ومساعدتها على إيجاد نقاط التقاء مشتركة تتحاشى تحولها إلى تناحرات وتوفر لها سبل الاتفاق والتعاون في إطار تعميق مفهوم وحدة المجتمع – الوطن – الدولة. وهذا مثال آخر يؤكد على أهمية تطوير إدارة الحكم بمفهومها الواسع من القاعدة إلى القمة وعلى نحو متناسب ومسيرة الديمقراطية حتى لا تتحول إلى حالات من الفوضى وتنمية الانحرافات والصراعات التناحرية والانفصالية السياسية والطائفية والمذهبية والأثنية.

أما الأمر الثاني فيتطلب إحداث مسيرة متوازنة بين العملية السياسية (التحول الديمقراطي)

من جهة وتنمية بقية الفروع الاقتصادية والاجتماعية من جهة أخرى وذلك في سياق تنمية شاملة، وبما يؤدي إلى ولادة قيم جديدة وانتشارها وتجذرها في كافة حقول المجتمع من أجل تخفيف حدة الصراع مع قيم التراث القديم وحسمه لصالح القادم الجديد. وهذا يتطلب أن تقوم عملية التحول الديمقراطي في شكل حزمة متكاملة وفق توازنات تحقق التناسب في عملية النمو والتنمية الحضارية المجتمعية. وبهذا تجسد عملية التحول الديمقراطي طريقة حديثة للتنمية الحضارية المجتمعية الشاملة.

ويتعلق الأمر الثالث بمسألة الاستقلال السياسي الذي يشكل ركنا أساسيا من أركان الديمقراطية بشكل خاص والتنمية المجتمعية بشكل عام.. فطالما كانت عملية التحول الديمقراطي طريقة منهجية للتنمية الحضارية، فهي تتطلب ربطها بهدف الاستقلال السياسي والاستقلال الاقتصادي/ أي بالتحرر والعدالة في سياق تقليص الاستغلال الاقتصادي والخارجي. ذلك أن الديمقراطية في غياب صنع القرار الوطني واستمرار ظاهرة الاستغلال ستنتج مأساة ومهزلة في آن معا بتفريغ المؤسسات الدستورية من مضامينها وتحويلها إلى قوالب شكلية فارغة من جهة وإنهاك معيشة الأغلبية لصالح تنمية جيوب نخبة الأقلية (الأوليغاركية) من جهة أخرى.. كما أن مبدأ التوازن أو إحداث التقارب بين الحرية السياسية والمساواة الاقتصادية، السابق الذكر، يبرر أيضا ربط الديمقراطية بمهمة مكافحة عوامل الاستغلال وتنمية الاستقلال الاقتصادي ودعم الاستقلال السياسي.

الملاحظة الرابعة: الديمقراطية بين الحرية والتحرير

الديمقراطية باعتبارها ظاهرة حضارية عالمية لها مكونات رئيسية مشتركة متمثلة في: حقوق الإنسان السياسية والاجتماعية.. التعددية السياسية والاجتماعية.. الانتقال السلمي للسلطة.. هذه المكونات تشكل مركز القلب في كافة الخطابات الديمقراطية للأنظمة الاجتماعية المتباينة.. والديمقراطية في دعوتها إلى مبادئ الحرية تقوم على تحريم الظلامية والعنف والاعتقادات المطلقة والوحدانية السياسية – الحزبية لصالح العلنية والتعامل السلمي والقناعة النسبية والتعددية، ونبذ المواقف الحادة والعصبية، وتقديس حياة الإنسان واحترام كرامته والاعتراف بوجود حقوق الطرف الآخر.

والحرية تختلف عن التحرير، كما سبقت المناقشة، فالحرية تخص حقوق الإنسان، بينما ينصب التحرير على مفهوم الحرية الاقتصادية الذي يشكل أحد المبادئ الأساسية في النظام الاجتماعي الرأسمالي. لذلك يجب عدم الخلط بين الحرية في سياق حقوق الإنسان وبين التحرير الاقتصادي (الليبرالية) في إطار النظام الرأسمالي. لأن ذلك يعني أيضا دعوة مبطنة غير مباشرة للإيحاء بوحدانية الديمقراطية الليبرالية وإلغاء وجود أفكار إيديولوجية إنسانية وأنظمة اجتماعية مغايرة، وبطرح الديمقراطية الليبرالية (الرأسمالية) باعتبارها "نهاية التاريخ".

وهذا يتطلب الانتباه باهتمام وحذر إلى مخاطر الدعوات التي تنطلق تحت شعارات الديمقراطية من أجل القبول بالانفتاح غير المنضبط لأسواق وثقافات دول العالم الثالث على أسواق وثقافات العالم الغربي تحت شعارات رأسمالية كـ"الاعتماد المتبادل" و"العولمة"، بحيث تتحول هذه الدول إلى ساحات مكشوفة للشركات الاحتكارية الدولية وأجهزتها الإعلامية العالمية الضخمة لنشر الثقافة الاستهلاكية الغربية المدمرة للبنى الإنتاجية الوطنية وبما يؤدي إلى تعميق التبعية وتهميش الأغلبية.. وهذا ما حصل فعلا في السنوات الأخيرة حين ازدادت ظاهرة سوء توزيع الدخل عالميا لصالح الغرب الصناعي، وتعمقت ظاهرة سوء توزيع الدخل والثروة محليا (قطريا) لصالح النخب.

من هنا الحاجة إلى تأكيد شروط التحول الديمقراطي مرة أخرى، خاصة مهمة صيانة ودعم الاستقلال السياسي وحماية النشاط الوطني الاقتصادي، والثقافة الوطنية في مواجهة الثقافة الغربية الاستهلاكية التبذيرية المدمرة.. وهكذا، فكما تتطلب الحرية انضباطا ووعيا فرديا ، كذلك تتطلب الديمقراطية انضباطا ووعيا مجتمعيا في سياق التزام مبدأ التوازنات بين مهمة التحول السياسي وبين تعظيم خطوات التنمية، وتنمية الإنسان بوجه خاص، وتعزيز الاندماج القطاعي والقدرة الاقتصادية، وربط الانفتاح والتحرير على العالم الخارجي، خاصة الرأسمالي، وفق خطوات تدريجية متوافقة ونجاح خطوات التنمية ومسيرة بناء الاستقلال الاقتصادي، وبما يؤدي إلى الاقتراب من مبدأ التكافؤ في التعامل الخارجي. هذه الشروط ضرورية حتى لا تتحول الديمقراطية إلى مجرد ظاهرة شكلية – سطحية، وممارسات غوغائية، وتراكمات للمديونية الخارجية، وتنمية جيوب نخبوية، وإنهاكات لمعيشة الأغلبية، وتعميق للتبعية الاقتصادية والاجتماعية، والتخلي عن الإرادة الوطنية.

وختاما ، فالديمقراطية لا تعني التنكر للقيم والمبادئ والأهداف والأفكار والإيديولوجيات الإنسانية، ولا تعني مجرد الهرولة وراء الديمقراطية الغربية، ولا تساوي بين الحرية والليبرالية.. بل تعني وعاء حضاريا لتجسيد هذه الأفكار وتحسين فرص بلوغ تلك الأهداف بطريقة لا تلغي إمكانيات تطويرها في إطار خطابات وطنية قومية اجتماعية للديمقراطية ووفق قيم مجتمعية جديدة تقوم على التعايش السلمي وبناء الإرادة الوطنية.

الهوامش والمصادر

(١) قارن: د. علي الدين هلال، "مفاهيم الديمقراطية في الفكر السياسي الحديث"، ندوة أزمة الديمقراطية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٧، ص٣٦.

(٢) The New Encyclopaedia Britannica, vol.4, Macropaedia, 15th ed., U.S.A 1993, p.5.

(٣) Charles M. Sherover, Time, Freedom, and the Common Good, an Essay in Public Philosophy, State University of New York Press, U.S.A 1989, pp.131-132.

(٤) John Dunn, Western Political Theory in the Face of the Future, Cambridge, U.K 1993, p.1.

(٥) د. عصمت سيف الدولة، (تعقيب)، ندوة أزمة الديمقراطية، مرجع سابق، ص٥٩.

(٦) د. أحمد صدقي الدجاني، "تطور مفاهيم للديمقراطية في الفكر العربي الحديث"، ندوة أزمة الديمقراطيـــة، مرجـــع سابق، ص ص١١٨-١٢٠.

(٧) Charles M. Sherover, op.cit., pp. 75-76.

(٨) Juhn Dunn, op.cit., p.2.

اسبيرانتو :Esperanto لغة عالمية ترعاها منظمة اسبيرانتو العالمية Universal Esperanto Association ، بتسهيل مهمـــة تطبيقها وانتشارها. تضم الرابطة أكثر من (٩٠) دولة، ومقرها هولندة.

– أنظر للباحث، معجم المؤسسات المشتركة "العربية والإقليمية والدولية"، دار الشباب (قبرص)، ومؤسسة الكميل (الكويت)، ١٩٩٠، ص٧٢٩.

(٩) Charles M. Sherover, op.cit., p. 241.

(١٠) د. علي الوردي، في الطبيعة البشرية، تقديم سعد البزاز، الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الأردن، عمـــان ١٩٩٦، ص٧٣.

(١١) Charles M. Sherover, op.cit., p.68.

(١٢) Ibid., p. 241.

(١٣) Ibid., p. 132.

(١٤) Undres Uhlin, Democracy and Diffusion, Transnational Lesson - Drawing among Indonesia Pro-Democracy Actors، Lund Political Studies 87, Lund University, Sweden 1995, p. 10.

(١٥) Robert A. Dahl, Political Analysis, 5th ed., Prentice-Half International Inc., Englewood Cliff, New Jersy, U.S.A 1991, p. 54.

(١٦) Hans Blomkuist and Sten Windmalm, Democracy in India, Report Commission by the Swedish International Development Authority – SIDA, Uppsala University, Sweden 1992, pp. 1-6.

(١٧) Ibid., pp. 5-6.

(١٨) أنظر:

1- Eric Lindstrom, The Swedish Parliamentary System, The Swedish Institute, Stockholm 1994, pp. 10-13.

2- Olof Peterson, Hur Styrs Sverige?, Tryck: Kristianstad، Bocktryckari AB, Stockholm 1994, p.4.

(١٩) د. سمير أمين، "حول منهج تحليل أزمة الديمقراطية في الوطن العربي"، ندوة أزمة الديمقراطية، مرجع ســـابق، ص٣١٧.

(٢٠) Undres Uhlin, op.cit., p.9.

(٢١) Ibid., pp. 6-9.

(٢٢) د. اسماعيل صبري عبد الله، "الديمقراطية داخل الأحزاب وفيما بينها"، ندوة أزمة الديمقراطية، مرجع سابق، ص ص٤٦٦-٤٦٨.

(ملف)

حول الديمقراطية

واحتمالات البناء الديمقراطي في العراق

د. محمد الربيعي

يعيش العالم اليوم عصراً جديداً يتمثل بإعادة انبثاق الديمقراطية وانتشارها وتقبلها على أنها النظام السياسي الأكثر عدالة. فمن بين أنقاض الأنظمة الدكتاتورية والشمولية بزغت أنظمة ديمقراطية تعالج مشاكل بلدانها الداخلية السياسية والاقتصادية بطرق سلمية تتقبلها وتقرها الأكثرية، وترفض الرضوخ لأي شكل من أشكال الحسم المسلح والفرض القسري والإيديولوجيات الفوقية. أصبح هذا القبول مبدأ شاملاً لدرجة لم يعد معها اليوم من يشكك بصلاحية الديمقراطية كقاعدة لتبادل السلطة سلمياً، إلا أن دعوات الخصوصية ومحاولات تجريد الديمقراطية من مفهومها كنظام سياسي له مؤسساته ومرتكزاته الضرورية لاستمراره وتطوره قد كثرت، خصوصاً بين المثقفين العرب، ويطلق هذه الدعوات سياسيون ومفكرون من مختلف التيارات السياسية والفكرية على حد سواء.

مما لا شك فيه أن وجود أصوات كثيرة تتحدث عن عجز الأنظمة الديمقراطية، حتى في البلدان المتطورة، في التغلب على مشاكل التدهور الاقتصادي، أو في مواجهة التحديات السياسية التي يفرضها وجود قوى متطرفة لا ترى مصلحة حقيقية في النظام الديمقراطي. وينظر البعض إلى الديمقراطية على أنها مستوردة من الغرب ولا تصلح لشعوب الشرق أو للمسلمين، أو أن الديمقراطية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالنظام الرأسمالي والاقتصاد الحر في البلدان المتطورة صناعياً واقتصادياً. إلا أن مثل هذه الأفكار، والتي هي في انحسار وتراجع مستمر، إنما تمثل انعكاساً للتحولات الهائلة في العالم وفي المواقف السياسية والتوقعات بخصوص الديمقراطية وازدياد الهيمنة الاقتصادية والعسكرية للولايات المتحدة والعالم الغربي. لقد أصبحت دعوات رفض الديمقراطية، أو محاولات تقديم تفسيرات بعيدة عن الفهم الديمقراطي، أو تقديم تبريرات للأنظمة الشمولية نادرة في يومنا هذا. وانحسرت معها المزاعم بعدم وجود تطبيقات واقعية لشعارات

الحرية والانتخابات الحرة داخل الأنظمة الديمقراطية في أوربا. وعلى العكس من ذلك يزداد الإيمان يوماً بعد يوم بأن الديمقراطية البرلمانية هي الوسيلة الوحيدة الملائمة لمعالجة وحسم أغلب المشاكل السياسية والاجتماعية. وبأن الحريات الأساسية هي مؤهلات شخصية مصدرها حاجات الإنسان وقدراته فلا يمكن حجبها أو تحجيمها على أساس ما ينفع وما يضر "مصالح" الوطن أو الأمة كما يدعي البعض. لقد اكتشفنا كما اكتشفت العديد من شعوب العالم الحكمة في قول ونستون تشرشل، بأن الديمقراطية على الرغم من أنها ناقصة ومتسمة بالفوضى إلا أنها أجدر بالتفضيل على جميع أشكال الحكم الأخرى، رغم اختلافنا معه حول شكل النظام الاقتصادي الأفضل.

باختصار، يبدو أن الديمقراطية تجد في هذا الأيام قبولاً أكثر من عامة الناس ومثقفيهم، ليس فقط كغاية في حد ذاتها بل كوسيلة لتحقيق العدالة الاجتماعية (أو الاشتراكية) والرفاهية والتطور والاستقرار والسلام. لقد أدت الديمقراطية إلى انفتاح كثير من القوى السياسية العراقية على الأفكار السياسية والفلسفية الغربية وغيرها، والتي تعتمد مثاليات السلطة والسيادة الشعبية في الحكم على أساس "من الشعب، وعن طريق الشعب، وإلى الشعب". مع ذلك لا يمكن القول إن الديمقراطية كاملة وكل من يدرس الديمقراطية ويتجاهل نواقصها فإنه يقع في مأزق المحاباة. الحقيقة إن الديمقراطية تحمل عوامل ضعفها جنباً إلى جنب مع عوامل قوتها. فلكي لا تسقط الأنظمة الديمقراطية لا بد لها من النمو والتكامل بصورة بطيئة نسبيا ، إلا أن مثل هذا النمو البطيء قد يؤدي إلى ضيق صدر الجماهير ومطالبتها بالإسراع في تحقيق الوعود، بالإضافة إلى احتمالات الضياع في متاهات التجريبية في خضم البحث عن طرق وسطية تتلاءم مع الواقع القومي أو الديني الخاص بالأقليات. كما أن النظام الديمقراطي غالباً ما يكون ضعيفاً أمام قوة العسكر وتدخلهم المستمر في شؤون السلطة. وأمام خطر تحرك العسكر لا يجد النظام الديمقراطي وسيلة للبقاء غير الخضوع إلى متطلبات العسكر وشروطهم مما يؤدي تدريجياً إلى تحول النظام إلى دكتاتورية مقنّعة.

إن تحقيق الديمقراطية في البلدان ذات النهج الشمولي في الحكم يعتمد على مجموعة عوامل عديدة. ومن المهم في هذا الخصوص إلقاء بعض الضوء على نظرية العالم السياسي الفنلندي تاتو فانهانن حول الديمقراطية.

تعتمد هذه النظرية على المنطق الدارويني والنظرية التطورية في علوم الأحياء، وتطرح أسلوباً موضوعياً لتحديد احتمالات بناء الديمقراطية عن طريق استخدام التحليلات والمقارنات الإحصائية لمجموعة هائلة من المعلومات والبيانات والعوامل التي تتعلق بـ١٧٢ دولة ولفترة تمتد منذ عام ١٨٥٠ وإلى عام ١٩٩٣. بصورة عامة يؤكد فانهانن على أن العوامل التي تؤدي إلى التطبيق الديمقراطي، والتي اعتمد عليها في دراسته، ليست بالضرورة هي الأساس الوحيد لتحديد احتمال ظهور الديمقراطية في بلد معين، إلا أنها تساعد في تحديد المستويات الدنيا لتحقيق الديمقراطية. إنه يرفض الرأي الذي يؤكد فقط على الخصائص الديمقراطية ويرفض ضرورة وجود شريحة النخبة (established elite) بداخل النظام الشمولي أو بعد سقوطه والتي تؤمن بأن

مصالحها الخاصة تتحقق بصورة أفضل في ظل الديمقراطية. وبالرغم من أن فانهانن يشير إلى أهمية العلاقة بين التطور الاقتصادي وظهور الديمقراطية، إلا أنه يضع فروقاً بين التنمية الاقتصادية ذات القاعدة الواسعة والمعتمدة على تطور صناعي، وبين التنمية الاقتصادية المستندة على بيع النفط. ويؤكد على أن درجة توزيع موارد السلطة ((power resources)) يمكن أن يعزى لها حوالي ٦٦% من الفروقات في درجة تطبيق الديمقراطية، وأن تمركز موارد السلطة يؤدي إلى ظهور قاعدة سياسية مهيمنة تعيق ظهور الديمقراطية. لذا فإن انتشار موارد السلطة وسعتها يؤدي إلى العكس (أي إلى التطبيق الديمقراطي).

تعريف الديمقراطية

إن تعريف الديمقراطية الذي يتناسب مع هذا النهج لا يأخذ بنظر الاعتبار موضوعة حقوق الإنسان. والسبب هو عدم وجود معايير إحصائية محددة لقياس درجة احترام وتطبيق حقوق الإنسان على على عكس العوامل الاقتصادية والاجتماعية. لذلك فإن التعريف المناسب هو أن الديمقراطية هي النظام السياسي الذي يحق فيه للأحزاب أو التجمعات المختلفة التنافس بصورة قانونية فيما بينها من أجل الظفر بالسلطة السياسية، وهي النظام الذي ينتخب فيه قادة السلطة المؤسساتية من قبل أفراد الشعب ليكونوا مسؤولين أمام هذا الشعب. ويختلف فانهانن مع الآخرين في اعتقاده بتماثل القوى التي تحث باتجاه الديمقراطية في كل البلدان غربية منها أو شرقية، وبأن الرغبة في تحقيق الديمقراطية غير كافية بحد ذاتها بل يتوجب وجود عدد من المؤشرات الاقتصادية وتراث سياسي وعوامل سوسيولوجية ومؤسساتية ملائمة.

يضع فانهانن عوامل عديدة كأساس للتغيير الديمقراطي وبناء المجتمع الديمقراطي منها: التطور الاقتصادي، البناء الاجتماعي، العامل الخارجي، درجة انتشار وتقبل ورسوخ الأفكار الديمقراطية في المجتمع. إنه يختلف بدرجة كبيرة مع فكرة عدم إمكانية عامل واحد لإحداث التغيير الديمقراطي. ويعتمد في إثبات حجته على مبادئ الداروينية الجديدة للتطور والتي تؤكد على أن الصفات المهمة للحياة تطورت ونشأت من خلال عملية الصراع المستمر للبقاء، وبأن كل الأنواع الحية تشترك في هذه الصفات التي كلما زاد انتشارها لدى نوع معين كلما ساعدت النوع على البقاء.

بعد المقارنة بين درجة توزيع موارد السلطة وبين درجة توزيع الموارد المادية، أكد فانهانن على أن درجة تمركز أو انتشار السلطة السياسية تعتمد على درجة انتشار وتوزيع المواد المادية والاقتصادية. وبذلك يكون قد اشتق تفسيراً داروينياً للديمقراطية من حيث أن الديمقراطية هي حكومة الأكثرية وأن الأوتوقراطية هي حكومة الأقلية، وأن تركز موارد السلطة يؤدي إلى الأوتوقراطية وأن انتشارها يؤدي بالتأكيد إلى الديمقراطية. واستناداً إلى هذا المفهوم تبدأ العملية الديمقراطية عندما تتوفر ظروف انتشار موارد السلطة فلا يمكن لأية مجموعة واحدة الانفراد بالسلطة وفرض سيطرتها أو منع الآخرين من منافستها والظفر بالسلطة.

تتحقق الديمقراطية عندما تتحدد السياسة العاملة للبلد عن طريق الإرادة الحرة للناس والذين يكونون متساوين في الحقوق. وهي لذلك تعتمد على ثلاثة مبادئ هي: السيادة الشعبية والحرية والمساواة. واستناداً إلى درجة تطبيق هذه المبادئ تتحدد درجة ديمقراطية المجموعة أو المؤسسة أو الحزب. إن تعريف الديمقراطية بالصورة أعلاه يوضح نقطتين، الأولى: أن الديمقراطية لا تعود فقط إلى محيط الدولة أو الحكومة كما هو شائع. فالمبادئ الديمقراطية تنسحب على أية عملية لاتخاذ القرارات في أية جماعة أو مؤسسة ضمن المجتمع. ومن المنطقي القول إن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الديمقراطية على مستوى الدولة والديمقراطية في مؤسسات المجتمع الأخرى. مع ذلك، وبما أن الدولة تعتبر أكبر وأشمل مؤسسة لها حق تنظيم أمور المجتمع وفرض الضرائب وأمور الحياة الأخرى على الأفراد، فإن الأهمية القصوى لتطبيق الديمقراطية إنما تظهر على صعيد الدولة والحكم. والنقطة الثانية أن الديمقراطية تعني دائماً المفهوم نفسه بصرف النظر عن المكان أو النظام أو المستوى الاقتصادي. وهذا المنطق يختلف عن منطق روبرت بنكي الذي يؤكد على وجود أشكال مختلفة من الديمقراطية وعن براخ الذي يدعي عدم وجود مفهوم عام للديمقراطية.

مؤشرات الديمقراطية

يعتمد فانهانن على مؤشرين مهمين لقياس درجة التطبيق الديمقراطي هما المنافسة والمشاركة. وتقاس درجة المنافسة على أساس نسبة الأصوات التي فاز بها الحزب الحاكم من ١٠٠ صوت. أما المشاركة فتقاس على أساس نسبة المشاركين في الانتخابات إلى مجموع الناخبين. وفي حالة وجود مرحلتين لانتخاب البرلمان ورئاسة الدولة يؤخذ بنظر الاعتبار معدل نسبتَي المشاركة في المرحلتين. ومن هذين المقياسين يشتق فانهانن (معامل الدمقرطة = مد) والذي يساوي:

نسبة المنافسة × نسبة المشاركة ÷ ١٠٠ = مد. ولذلك فإنه في حالة عدم السماح للأحزاب بالمشاركة في الانتخابات، أو في حالة كون قادة الدولة غير منتخبين فإن درجة المنافسة والمشاركة وكذا معامل الدمقرطة تساوي عندئذ صفر كما هو الحال في العراق.

يمكن اعتبار هذين المؤشرين كافيين لقياس درجة الفروق بين الأنظمة الدكتاتورية والديمقراطية. إلا أنهما لا يمكن أن يكونا كافيين لتحديد معدل الفروق في الممارسات الديمقراطية في البلدان الديمقراطية، ومعدل الفروق في الممارسات الأوتوقراطية في البلدان غير الديمقراطية. وبالرغم من عدم وجود معايير لقياس الحقوق والحريات السياسية والمدنية في مشروع فانهانن إلا أننا نجد علاقة قوية بين معايير الديمقراطية في المنافسة والمشاركة، من جهة، وبين معايير الحقوق السياسية والحريات المدنية، من جهة أخرى، في مختلف الدول وهذا ما نشر من قبل (Freedom House Survey Team). واستنتاجنا هو أن معامل الدمقرطة يمكن أن يقيس درجة التطبيق الديمقراطي بصورة أولية، بالرغم من أنه لا يحدد بصورة تلقائية من هي الدول التي يمكن اعتبارها ديمقراطية. لذلك يضع فانهانن حداً أدنى للديمقراطية وشروطها: فهو يضع حداً أدنى للنسبة وقدرها ٣٠% مما يعني أن الحاكم الذي يحصل على ٧٠% أو أكثر من الأصوات

فإنه إزاء معارضة ضعيفة. ومرد ذلك قد يعود إلى وجـود عوائـق ضـد ممارسـة الحريـات الديمقراطية. كذلك يضع للمشاركة حداً أدنى يقدر بـ١٥%. إضافة لذلك فإنه يضع الرقم ٥ كحـد أدنى لمعدل الدمقرطة في أية دولة. لذلك فإنه من الضروري للدول أن تتخطى حدود هذه النسـب الثلاث لكي تصبح دولاً ديمقراطية.

توزيع الموارد (Resources Distribution)

يضع فانهانن مؤشرات عديدة أخرى لقياس احتمالات التغيير الديمقراطي وبناء نموذج شـامل للديمقراطية، ومنها قياس درجة توزيع وانتشار الموارد المادية والثقافية. وهذه المؤشرات هي:

١ – نسبة سكان المدن أو الحضر.

٢ – نسبة السكان غير الزراعيين.

٣ – عدد طلاب الجامعات.

٤ – نسبة المتعلمين.

٥ – نسبة الحقول الزراعية العائلية.

٦ – درجة اللامركزية للاقتصاد غير الزراعي.

الملاحظ أن المؤشرات أعلاه لا يمكنها قياس معدلات توزيع وانتشار موارد السلطة أو القـوة الاقتصادية والثقافية إلا بصورة جزئية. ولكن من المعقول قبول علاقتها القوية بالتطور الاجتماعي والاقتصادي للدول المختلفة. على سبيل المثال، تعتـبر اللامركزيـة ظـاهرة حسـنة بالنسـبة للديمقراطية وأن توفر الحرية التي تتيح عملية الإنتاج الحر، تصبح مستقلة نظريـاً عـن أشـكال الملكية وعن الرأسمالية أو الاشتراكية. قد يكون التنظيم الرأسمالي لامركزياً بدرجة عالية ولربمـا يكون التنظيم الاشتراكي مركزياً بدرجة كبيرة ولكن ليس من الضروري توفر الديمقراطية في أي منهما. ويقصد فانهانن باللامركزية امتلاك وسائل الإنتاج أو الرزق من قبل الأكثرية التي تتمثـل بمجاميع مستقلة عن بعضها البعض كالأفراد أو التعاونيات أو المؤسسات العامـة أو البلديـات أو السلطات المحلية أو الحكومة المركزية. أما المركزية فهي بتصورة امتلاك الموارد الاقتصادية من قبل الأقلية والتي هي مجاميع أكثر تماسكاً ولها مصالح مشتركة. وقد تتمثل هذه بمجموعـة مـن الأفراد أو الشركات الكبيرة أو في حزب يسيطر على الحكم ووسائل الإنتاج المملوكة أصلاً مـن قبل الدولة. ولذلك فإن فانهانن يعتبر تمركز الملكية الزراعية بيد الأقلية خطوة نحو تحقيق سيطرة هذه الأقلية على المزارعين وتقليص الحقوق الديمقراطية وإحياء شكل من أشكال الإقطاع.

والظاهر أن فانهانن يربط الدمقرطة بلامركزية قوى الاقتصاد وليس بـالتطور الاقتصـادي الرأسمالي مثلما يفعل الآخرون على أساس أن الرأسمالية توفر الشروط الملائمة لنشـوء ونمـو الديمقراطية. إن سبب ذلك يعود إلى أن موارد القوى الاقتصادية قد تكون شديدة التركيز أو شديدة الانتشار في الرأسمالية عما هي عليه في الاشتراكية، لهذا فإن الفروق في ديمقراطيـة النظـامين الاقتصاديين تعود إلى درجة اللامركزية والتوزيع. وهذا لا يتفق مع التعريف الماركسي لطبيعـة

الإنتاج الرأسمالي في امتلاك الأقلية لوسائل الإنتاج، ولكن ينطبق على الأنظمة الاشتراكية من حيث أن قادة الأحزاب الحاكمة هم في الواقع مالكو وسائل الإنتاج. من جانب آخر، فإن فانهانن يرفض اعتبار التطور الاقتصادي الرأسمالي كمؤشر لعملية الدمقرطة، ويضع النظامين الرأسمالي والاشتراكي في قطب واحد وليس في قطبين مستقلين بالنسبة لعلاقتهما بالديمقراطية. أما القطبان المتضادان في الديمقراطية فهما المركزية واللامركزية في توزيع موارد القوى الاقتصادية.

استخدم فانهانن مؤشرات توزيع الموارد المذكورة أعلاه لاستخراج معاملات قياس الديمقراطية وأهمها معامل موارد السلطة، وقد أضاف إليه مؤشر ضمني آخر أسماه بمعامل اختلال هيكلية السلطة الذي يأخذ بنظر الاعتبار انعدام التوازن بين مركزية السلطة السياسية (في ظرف انعدام الديمقراطية) ومركزية موارد القوة (في ظرف مركزية الاقتصاد)، بعد أن فشل معامل موارد السلطة وحده في توقع حصول التغيير الديمقراطي في دول شرق أوربا. فبالرغم من أن معاملات موارد السلطة في هذه الدول كانت واطئة أيام النظام الاشتراكي السابق بما يدل على انعدام الديمقراطية لم يكن ممكناً توقع التغيير الديمقراطي لعدم احتواء معامل موارد السلطة على مقياس أو مؤشر ضمني يقيس التناقض وعدم التوازن بين القرار السياسي والقرار الاقتصادي، الأمر الذي يؤدي إلى انقلاب المعادلة لصالح حدوث التغيير الديمقراطي.

ولعل من المهم التأكيد على أن الحالة الاقتصادية للفرد قد توفر مؤشراً لا بأس به للتحول الديمقراطي. إلا أن هذه العلاقة غير قوية، فمن المستحيل تشخيص الدول الديمقراطية بالاستناد إلى معدل دخل الفرد فقط. إن دراسة العلاقة الإحصائية بين معامل الدمقرطة (مد) وبين معدل دخول الفرد لـ١٧٢ دولة لم تظهر إلا علاقة إحصائية ضعيفة، علما أن نصف الدول الديمقراطية الحالية هي دول فقيرة، وهو ما يناقض ادعاء مجلة الإيكونومست البريطانية في عددها الصادر في ٢٧ آب ١٩٩٤ بأن العلاقة بين الديمقراطية والرخاء الاقتصادي هي علاقة مؤكدة. ويبدو أن معامل التنمية البشرية (Human development Index) الذي اعتمد على تقرير التنمية البشرية الصادر في عام ١٩٩٣ عن منظمة التنمية التابعة للأمم المتحدة هو أفضل معامل للمقارنة بين الديمقراطية والرخاء الاقتصادي. ومع ذلك فإن ضعف العلاقة بين الديمقراطية والحالة الاقتصادية للفرد تعود بصورة عامة إلى عدم دخول مسألة توزيع وانتشار الموارد الاقتصادية كرقم حسابي في هذه المعاملات كما هو الحال في معاملات فانهانن التي تقيس نسبة الحقول الزراعية العائلية ودرجة اللامركزية للاقتصاد غير الزراعي. بصورة عامة يمكن القول إن الناس المرفهين اقتصادياً يفضلون النظام الديمقراطي مقارنة مع الناس الأقل رفاهية وذلك لأن المرفهين لهم مصلحة حقيقية في النظام الديمقراطي بما يمتلكونه من موارد وإمكانيات أكثر للمشاركة في العمل السياسي.

لقد وجد فانهانن، من خلال دراسة العلاقة بين معامل الدمقرطة ومعامل موارد السلطة واللاتوازن البنيوي، أن هناك دولاً تقع تحت الحد الأدنى لمعامل الدمقرطة إلا أنها تقع فوق الحد الأعلى لمعامل موارد السلطة، حيث أسماها بدول غير ديمقراطية شاذة وذلك لأنها وبسبب ارتفاع درجة مستوى توزيع موارد القوة الاقتصادية والثقافية كان من المتوقع لها أن تكون ديمقراطية.

إلا أنها فشلت في تخلي الحدود الدنيا للمؤشرات الديمقراطية. ومن جانب آخر، وجد فانــهانن دولا تقع فوق الحد الأدنى لمعامل الديمقراطية وهي في عين الوقت تحت الحد الأدنى لمعامل مــوارد السلطة حيث أطلق عليها بالدول الديمقراطية الشاذة. هذه الدول برأيه أصبحت ديمقراطية من دون وصولها إلى حد مقبول من التطور الاقتصادي اللامركزي. من المهم التأكيد على أن الدول غــير الديمقراطية الشاذة (حسب التعريف السابق) أي تلك التي أحرزت نقاطا مرتفعة في معامل مــوارد السلطة ونقاطا متدنية في معامل الدمقرطة كانت ١٠ دول هي: الجزائــر والبحريــن والعــراق والأردن والكويت وليبيا وقطر والسعودية وتونس وتايوان. من الملاحظ هنا أن هذه الدول فيمــا عدا تايوان هي دول عربية إسلامية. لذلك من الصعب تجنب الفرضية القائلة بأن الفكر المتطــوف للقومية العربية يعرقل ظهور الديمقراطية. من المحتمل أن مؤشــرات فانــهانن لا تــأخذ بنظــر الاعتبار بعض الجوانب المهمة من موارد السلطة في الدول العربية الإسلامية ومنها اشتراكها في كونها دولا نفطية وتتركز في سلطتها المركزية قوة اقتصادية وقمعية كبيرة بدرجة أعلى مما تــم حسابه في مؤشرات فانهانن. ومن باب الإنصاف لا يمكن كيل الاتهام للفكر الإسلامي فــي هــذه الدول لسبب رئيس وهو أن الإسلام كدين أوسع وأشمل من أن تمثله هذه الدول.

احتمالات البناء الديمقراطي في العراق

بالرغم من المستقبل المشرق للديمقراطية والتفاؤل غير المحدود لانتصارها في العراق، يبقى الأمر مجرد طموحات وأهداف وتطلعات خيرة. فلا توجد في الوقت الحاضر أدلة كافيــة علــى حتمية انتصار الديمقراطية بحكم الحاجة إلى إقناع شرائح اجتماعية كبيرة من شعبنا وقوى مهمــة في المعارضة العراقية بمفهومها. لقد درس وناقش هذا الموضوع الكثير من المفكرين والسياسيين، وبضمنهم فانهانن. وقد توصل عديد منهم إلى استنتاج متشائم حول احتمالية نجاح الديمقراطية فــي مجتمع إسلامي كالعراق. هنا لا بد من التأكيد بأننا لا نقصد بالديمقراطية مجرد الانتخابات الحــرة بما يجردها عن مفهومها كنظام سياسي له مؤسساته الديمقراطية الضرورية لديمومته. فعلى سـبيل المثال أبعد (لاري دايموند) وزملاؤه الدول العربية من دراستهم المقارنة حول الديمقراطيــة فــي الدول النامية. وعزوا ذلك إلى أن (الدول الإسلامية في منطقة الشرق الأوسط تعوزهــا التجربــة الديمقراطية وأن احتمالات تحولها إلى أنظمة شبه ديمقراطية هو احتمال ضعيف جدا). ويشـاركهم في هذا الرأي (صموئيل هنتنغتن) الذي يدعي بعدم وجود دولة إسلامية فيما عدا تركيا اسـتطاعت إبقاء نظام ديمقراطي متكامل لفترة زمنية معقولة، رغم تدخل العسكر في شؤون الحكم بصــورة مباشرة أو غير مباشرة. في الحقيقة نحن لا نتفق مع هؤلاء الباحثين، حيث نعتقــد أنــهم أهملــوا ظاهرة الازدياد المطرد في مناقشة التجاربة الديمقراطية وفي درجات قبولها وتقبلها رغم قناعتنــا بتباين المفاهيم بدرجات ملحوظة بين الأطراف الإسلامية المختلفة.

يشير رغيد الصلح في دراسة نشرت في المجلة البريطانية لدراسات الشرق الأوســط عــام ١٩٩٣ إلى أن استفتاء آراء أجري بين المثقفين العرب حول الديمقراطية النيابية خلال الفترة مــن

١٩٨٥ إلى ١٩٩٠ أظهر انقسام المثقفين الإسلاميين إلى ثلاثة أقسام. القسم الأول يرفض الديمقراطية رفضاً قاطعا ، والقسم الثاني يعتبر الإسلام ديمقراطياً في جوهره، أما القسم الثالث فيقبلها على أنها أفضل نظام سياسي. وعلى أساس هذا الاختلاف في وجهات النظر يستنتج الصلح خطأ الذين يستندون إلى بعض النظريات والتجارب الإسلامية المعادية، لكي يتوصلوا إلى تعميمات حول معاداة الإسلام للديمقراطية. ويعارض الباحث (رينويد ليندرس) نظرة مصطفى كامل السيد المتشائمة حول مستقبل الديمقراطية في العالم العربي مشيراً إلى عدد من العوامل التي تساهم في تقويض مقومات الأنظمة الشمولية، ومؤكداً على أهمية انتشار الليبرالية. فهي حسب رأيه ستحطم العمود الفقري للأنظمة الحالية لتدشن عصر الديمقراطية الجديد. ومن جانب آخر يوافق (ليندرس) على أن انتشار الأصولية يثير المخاوف حول احتمالات البناء الديمقراطي في العالم العربي رغم وجود اتفاق بين الكثير من المختصين في الشؤون العربية حول عدم إمكانية وصول الأصوليين إلى السلطة في أي بلد عربي عدا مصر.

أما فانهانن فيشير إلى أن العراق أكثر تحضراً من مصر وإيران إلا أن موارد القوة الاقتصادية متمركزة في أيدي الدولة. وهذا العامل يعتبر سلبياً لمستقبل الديمقراطية آخذين بنظر الاعتبار أسلوب التحليل الذي أشرنا إليه سابقا ، هذا بالإضافة إلى المشاكل الكبيرة التي يعاني منها العراق كاستمرار الحركة الكردية المسلحة والانقسام الطائفي بين السنة والشيعة والذي أدى إلى ازدياد قوة العسكر داخل المجتمع وتعطل التطور الديمقراطي. ومع ذلك يتوقع فانهانن قرب شروق شمس الديمقراطية على العراق لاعتقاده أن الأنظمة العسكرية القمعية هي المحطة الأخيرة في الطريق إلى الديمقراطية.

المجتمع السياسي

لا بد لنا من الإشارة هنا إلى مقالة للعالم السياسي روستو نشرها في عام ١٩٧٠ بعنوان "الانتقال إلى الديمقراطية" والتي أكد فيها على أن الانتقال إلى الديمقراطية يتطلب وجود أطراف تتفق على ضرورة استخدام أساليب ديمقراطية أو إجراءات غير قمعية مع وجود الصراع السياسي والإيديولوجي فيما بينها. ويشير الباحث إلى أن هذه الأساليب تكون عنواناً لما يسميه بالمجتمع السياسي (Political Community) والمتمثل بمجموعة من الناس تقبل العيش معاً في ظل حكومة أو سلطة واحدة، وفي حالة عدم وجود مثل هذا القبول فإن عاملين معرقلين للديمقراطية يطفوان على المسرح السياسي، وهما ظهور الحدود المصطنعة والمتقاطعة بين الوحدات الاجتماعية أو السياسية في البلد، ووجود وحدات اجتماعية أو سياسية (أحزاب) تتشدق بوجود ولاء سياسي تام لها من قبل الشعب بأكمله.

يطرح الباحث توران في بحثه المنشور عام ١٩٩٧ العراق كمثال على افتقاده لوجود "المجتمع السياسي" فيقول إنه بعد حرب الخليج واندحار جيش صدام حسين كان من المتوقع أن يتم إسقاط النظام الدكتاتوري وأن تنتصر الديمقراطية في العراق. ولتحقيق هذا الهدف بحثت الولايات

المتحدة وحليفاتها عن معارضة يمكن التعاون معها من أجل تحقيق الديمقراطية في العراق (مع تشكيكنا بمقاصد ومآرب الولايات المتحدة وحليفاتها) إلا أنهم، وعلى حد قوله، اكتشفوا حقيقة مرة وهي عدم وجود اتفاق شامل على أسس "المجتمع السياسي". إن قوى المعارضة العراقية لم تكن إلا قوى ممثلة لشرائح اجتماعية صغيرة ومختلفة فيما بينها لدرجة تنعدم فيها الثقة المتبادلة. ولم تكن هذه مستعدة للتعاون مع بعضها البعض من أجل لعب دور مؤثر في الحركة الديمقراطية العراقية. والحقيقة أن بقاء صدام في السلطة يعود لدرجة كبيرة إلى تشتت المعارضة. فقد فشلت الأحزاب السياسية الممثلة للفئات الاجتماعية المهمة في إيجاد صيغة سياسية موحدة تسمح بالتنافس النزيه في دولة كالعراق. ولذلك كانت هيمنة قوة على أخرى باستخدام سلطة الدولة القمعية تحت شعار تحقيق وحدة العراق هي الصفة الرئيسية للنظام السياسي في هذا البلد.

إن افتقار العراق إلى "مجتمع سياسي" له ما يبرره تاريخيا. فعراق اليوم دولة صنعها البريطانيون ضمن مشاريع تقسيم وتقطيع الإمبراطورية العثمانية. وتم تتويج الملك فيصل الأول ملكا على العراق كمكافأة له على خدمة والده لهم خلال الحرب العالمية الأولى. وقد حكم العراق بعد سقوط الملكية حكام عسكريون استخدموا القوة للسيطرة على المجتمع العراقي وتوحيده، واعتمدوا أولئك الحكام (باستثناء الزعيم عبد الكريم قاسم) على المقربين من العائلة والعشيرة ومن يرتبط بهم عن طريق العائلة والمدينة والطائفة.. الخ. ولعله من الصحيح اعتبار العراق في العهد الملكي "ديمقراطيا" إلى درجة ما حسب معايير فانهانن. فالانتخابات كانت موجودة والحكم البرلماني كان موجودا بدرجة ما. وبالرغم من تعثر الديمقراطية حينذاك، سمح النظام بالمنافسة بين النخبة السياسية والعشائرية وهو ما سحقته الأنظمة العسكرية المتعاقبة حتى تم إحكام القبضة العسكرية على الحكم بصورة نهائية في عهد صدام حسين.

إن الوحدة (أو ما يسمى بإبقاء "المجتمع السياسي" موحدا) هي أهم عامل مثير للمتاعب في الأنظمة السياسية. فإذا ما شعرت الأطراف السياسية أن المنافسة الديمقراطية تشكل خطرا على الوحدة الوطنية فإن العوامل والمتغيرات المختلفة التي تحدثنا عنها والتي هي بنظر فانهانن مهمة لبناء الديمقراطية تصبح ضعيفة أمام الضغط الهائل للعمل القسري حفاظا على وحدة الوطن. إن أي بلد وإن كان ديمقراطيا أيام انعدام الخطر على وحدته يسير باتجاه تحجيم الحريات الديمقراطية وإنعاش الدكتاتورية رغم دفع المؤشرات الاقتصادية باتجاه تطور المجتمع ديمقراطيا.

خلاصة البحث، إن دراسة فانهانن هي دراسة مهمة من قبل عالم سياسي معاصر يريد إخضاع المجتمع للمعايير العلمية والبحث العلمي إلا أنه، في تقديرنا، أهمل السيكولوجية السياسية للمجتمع كأحد معايير البحث عن أسباب الدمقرطة أو عدمها. وهي معايير لا يمكن قياسها بدقة أو كشفها بثقة عالية. إضافة إلى ذلك فإن اعتماد درجات الثقة أو الدلالة في العلاقات الإحصائية بين المتغيرات، ودرجات معامل الارتباط في التحليلات الإحصائية قد تشير إلى وجود علاقة ولكنها تقف عاجزة عن تفسير مثل هذه العلاقة وعن تحديد المسببات والنتائج، على وجه الخصوص. إن درجة الشك أو اليقين في تقبل هذه النتائج تتوقف على مستوى درجات الثقة أو الدلالة في التحليل.

(ملف)

نظرة نقدية لموقف بعض المثقفين العرب

من مسألة الديمقراطية في الوطن العربي

د. حكمت حكيم

شغلت قضية غياب الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي خلال العقود الثلاثة الأخيرة، وبالتحديد منذ هزيمة حزيران/ يونيو ١٩٦٧، مكانة هامة وبارزة لدى أغلب المثقفين والمفكرين العرب، إذ يمكننا القول دون مغالاة، إن غياب الديمقراطية وحقوق الإنسان احتلا المكان الأول في الصراع الفكري بين مختلف مدارس الفكر على الساحة العربية. وتأجج هذا الصراع ليحتل موضع الصدارة في السنوات العشر الأخيرة تحت تأثير العديد من العوامل ذات الأهمية الكبيرة.

أولاً: لا بد من الإشارة إلى أن زيادة الاهتمام بمسألة الديمقراطية وحقوق الإنسان لم تشمل الوطن العربي فحسب، وإنما غالبية البلدان النامية في العالم.

ففي أعقاب التحرر الوطني والاستقلال خلال فترة الخمسينات والستينات من القرن الماضي تولت السلطة في معظم البلدان النامية، ومن ضمنها الدول العربية قيادات وطنية تاريخية عملاقة. وكانت تلك القيادات هي التي تزعمت النضال من أجل التحرر الوطني والاستقلال مثل (جمال عبد الناصر)، (أحمد سوكارنو)، (باتريس لومومبا)، (هواري بومدين)، (عبد الكريم قاسم)، (فيديل كاسترو) وغيرهم. معظم تلك القيادات الوطنية لم تلتزم بالأطر الديمقراطية العامة وحقوق الإنسان، فقد كان همها الأول يتركز حول تحرير اقتصاد بلدانهم من التبعية وتحقيق التنمية الاقتصادية وبناء مؤسسات الدولة الوطنية من أجل الخروج من التخلف والتبعية. كما كانت معظم تلك القيادات الوطنية تنظر إلى مسألة الديمقراطية وحقوق الإنسان نظرة شك وريبة مخافة أن تكرس الديمقراطية الانقسامات الاجتماعية: الطبقية، أو القبلية، أو الدينية، أو الحزبية[1]. ومن الجانب الآخر لم تصر الشعوب آنذاك في معظم تلك البلدان بما فيها الدول العربية على مسألة الديمقراطية وحقوق الإنسان... لعدد من الأسباب المنفردة أو المجتمعة:

١ – إما بسبب عدم إدراك أهمية الديمقراطية وحقوق الإنسان، أو عدم اعتياد تلك الشعوب على ممارستها.

٢ – أو لأن غالبية المواطنين ذوي مستويات تعليمية متدنية أو أمية.

٣ – أو لأن المواطنين شاركوا قياداتهم الوطنية في نظرتها بوجود أولويات وطنية أهم من الديمقراطية وحقوق الإنسان[٢].

ولكن بسبب تعثر أغلب تلك القيادات في تحقيق ما اعتبرته بمنزلة الأولويات مثل التنمية الاقتصادية والوحدة العربية وتحرير فلسطين، وتزامن ذلك بموجة من الانقلابات العسكرية التي عمت تلك البلدان والتي أدت بالتالي إلى قيام أنظمة حكم استبدادية بشعة اتسمت بمختلف ألوان القهر والعسف والاضطهاد وانتهاك حقوق وحريات المواطنين التي لم تكن موجودة حتى خلال الحقبة الاستعمارية، بدأت ترتفع، منذ منتصف السبعينات وحتى يومنا هذا، أصوات تدعو إلى الديمقراطية وحقوق الإنسان.

ثانياً: زاد الاهتمام بمسألة الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي، بسبب العجز الشديد وشبه المطلق للأنظمة السياسية العربية في مواجهة العدو الإسرائيلي، وقد ظهر ذلك بأشد صوره في هزيمة حزيران/ يونيو ١٩٦٧، ثم الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢. ومما زاد الطين بلة، الخلافات العربية – العربية التي تفاقمت بسبب الحرب العراقية الإيرانية ومن ثم اجتياح القوات العراقية لدولة الكويت عام ١٩٩٠[٣].

ثالثاً: ما زال عدد من الأنظمة السياسية العربية حتى الوقت الحاضر يبرر تعليقه لمسألة الديمقراطية وحقوق الإنسان على حجج وذرائع الاستعداد للمعركة الكبرى مع العدو الإسرائيلي من أجل تحرير فلسطين والأراضي العربية المحتلة. وأصبح شعار (لا صوت يعلو على صوت المعركة) الذي ما زال البعض يتظاهر به من المقدسات التي لا يمكن المساس بها، واتضحت للمواطن العربي كعبارة حق يراد بها باطل... وما ينطبق على زيف هذه الدعوة ينطبق في الوقت نفسه على حجج وذرائع تعليق الديمقراطية وحقوق الإنسان من أجل التنمية الاقتصادية والوحدة العربية ومن أجل التصدي للتغلغل الأجنبي... بعدما يقارب من نصف قرن توصل المواطن العربي إلى قناعة زيف تلك الادعاءات التي حجبت الديمقراطية وحرمته من حقوقه الأساسية.

رابعاً: في الوقت الذي ساهمت بعض برامج التنمية الاقتصادية الجادة خلال فترة الخمسينات والستينات من القرن الماضي في النمو الكبير للطبقة الوسطى والطبقة العاملة العربية، ساعدت الثروة النفطية في العديد من الدول العربية على استمرار ذلك النمو. بموازاة ذلك نمت منذ أواسط السبعينات فئة أو طبقة طفيلية اغتنت على حساب إفقار الفئات والطبقات الاجتماعية الأخرى وبشكل خاص ذوي الدخل المحدود، الأمر الذي اختل فيه توزيع الثروة القومية في أغلب الدول العربية. هذا الاختلال في توزيع الثروة القومية اقترن باختلال مشابه في توزيع السلطة، ولم يحصل ذلك إلا بسبب غياب الديمقراطية والرقابة الشعبية الحقيقية وامتهان حقوق الإنسان العربي.

ومن هذا المنطلق ازدادت صيحات المخلصين والعقلاء ضد الأخطار التي تواجه الأمة العربية من أجل إنقاذها بإشاعة الحياة الديمقراطية في المجتمع واحترام حقوق الإنسان(٤).

خامساً: لقد أكدت كافة التجارب التاريخية الحديثة بأن تحقيق التنمية الاقتصادية وضمان الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في أي مجتمع من المجتمعات لا يمكن لهما أن يحصلا ما لم يقترنا بإشاعة الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان وبشكل خاص الحقوق والحريات المدنية والسياسية. وخير دليل على ذلك سقوط أغلب الأنظمة الاشتراكية سابقاً والأزمة الاقتصادية التي عصفت بالنمور الآسيوية. إن القاعدة العامة تؤكد لنا بما لا يقبل الشك أن أكثر الدول تطوراً في العالم هي الأكثر ديمقراطية واحتراماً لحقوق وحريات مواطنيها بغض النظر عن شكل الديمقراطية في هذا البلد أو ذاك.

سادساً: لقد دافع وروج أنصار الديمقراطية الاشتراكية ومنظرو الاشتراكية العلمية خلال أكثر من سبعين عاماً بقرب نهاية وانهيار الرأسمالية، ولقد كانت واحدة من أكثر مقولاتهم رواجاً – وكاتب المقال كان واحداً منهم – هي (أن العصر الحالي هو عصر انهيار الرأسمالية وانتصار الثورة الاشتراكية)، لكن الانهيار المفاجئ والسريع للاتحاد السوفيتي وأغلب الأنظمة الاشتراكية في العالم شكل صدمة كبيرة لمنظري الاشتراكية العلمية. والمفاجأة الأكبر تجسدت بسقوط تلك الأنظمة تحت ضغط حركات شعبية واسعة رفعت شعارات الديمقراطية الليبرالية، الأمر الذي دفع بالعديد من المنظرين والمفكرين العرب والأجانب على حد سواء إلى إعلان الانتصار النهائي للديمقراطية الليبرالية على الاشتراكية.

سابعاً: طرحت أزمتا الخليج الأولى والثانية وما آلتا إليه من تدمير للإمكانات البشرية والعسكرية والاقتصادية ناهيك عن الأضرار الاجتماعية والنفسية لشعوب العراق وإيران والكويت، قضية الديمقراطية وحقوق الإنسان بشكل جدي. وبرز شبه إجماع من قبل المفكرين والمثقفين العرب مفاده أن السبب الأساسي لكلتا الأزمتين هو غياب الديمقراطية بنسب متفاوتة في الدول المعنية، ولولا هذا الغياب للديمقراطية وحقوق الإنسان لأمكن تفادي الأزمتين، أو على أقل إمكانية الخروج منها بصورة مغايرة(٥).

* * *

بالرغم من العوامل التي ذكرناها وغيرها من العوامل التي أدت إلى زيادة الاهتمام بمسألة الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي، إلا أن المؤسف أن عدداً غير قليل من المفكرين والمثقفين العرب ما زال يعزو أسباب تردي الوضع في الوطن العربي إلى العوامل الخارجية والأطماع الاستعمارية للدول الكبرى تجاه الأمة العربية.

إننا في الوقت الذي لا نستطيع إهمال دور العوامل الخارجية والأطماع الأجنبية، نرى بأن العوامل الداخلية (الذاتية) هي التي تلعب الدور الحاسم والأساسي في تطور المجتمعات ومن

ضمنها وطننا العربي. وفي هذا السياق يمكننا إيراد بعض الأفكار النقدية لموقف بعض المفكرين والمثقفين العرب من مسألة الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي:

(١) درج الكثير من المفكرين والمثقفين العرب منذ بداية القرن العشرين وحتى عشية التحرر من التبعية الاستعمارية بعد الحرب العالمية الثانية وما بعدها، على رفض فكرة الديمقراطية، وما زال عدد غير قليل منهم يصر على ذلك حتى وقتنا الحاضر. لقد كان أولئك المثقفون يشاطرون رأي القيادات الوطنية بعد الاستقلال على اعتبار الديمقراطية وحقوق الإنسان فكر مستورد لا يستقيم مع المجتمع العربي ذي العادات والتقاليد والأعراف التي تختلف كثيراً عن العادات والتقاليد والأعراف السائدة في الدول الغربية.

إن مثل هذه الأطروحات إذا كانت مقبولة بعض الشيء، وتلقى صدى لدى البعض في المجتمع العربي آنذاك، فإنها – باعتقادي – غير مقبولة اليوم على الإطلاق ونحن في بداية القرن الحادي والعشرين، إضافة إلى أن كافة التجارب العالمية تؤكد لنا بأن ممارسة الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان في أي مجتمع من المجتمعات لا يمكن تعليقها بشرط الزمان والمكان.

(٢) يذهب الكثير من المثقفين العرب بأن التنمية الاقتصادية تقف على رأس الأولويات للأنظمة السياسية العربية، ويفصلون بين التنمية الاقتصادية ومسألة الديمقراطية وحقوق الإنسان وكأنهما مهمتان متعارضتان، وبالتالي يصرون على أن التنمية الاقتصادية تعتبر المهمة الأولى من أجل الخروج من التخلف والتبعية. إن مسألة التنمية الاقتصادية – باعتقادي – في غاية الأهمية فالإنسان أينما كان يعتبر غاية ووسيلة، أي بمعنى آخر أن من الضروري للسياسة العامة للدولة كصانع للخير العام أن ترفع من مستوى المواطن في كافة المجالات. إن الضمان الأكيد لرفع مستوى المواطن يكمن في مشاركته الفعالة في تنفيذ خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من خلال صيانة واحترام حقوقه وحرياته وكرامته. وهذا يتطلب أولاً وقبل كل شيء خلق الإنسان الواثق من نفسه وتهيئة الظروف اللازمة له من أجل أن يكون قادراً على المساهمة الجادة والخلاقة في تنفيذ الخطط المرسومة، وبخلافه تبقى تلك الخطط مهددة وعاجزة في أغلب الأحوال عن تحقيق الأهداف المرسومة لها.

(٣) رغم مرور أكثر من نصف قرن على بداية الاستقلال والتحرر من التبعية، يذهب العديد من المثقفين العرب إلى أن الديمقراطية وحقوق الإنسان شيء من الترف الفكري. ويضع هؤلاء المثقفون في المقدمة المهام الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، التي يرونها منفصلة عن الحقوق المدنية والسياسية. مثل هذه الآراء كان وما زال متأثراً إلى حد كبير بما كان سائداً في الاتحاد السوفيتي وبقية البلدان الاشتراكية سابقاً التي حققت إنجازات عملاقة على مستوى الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية خلال فترة قياسية. لكن تلك الإنجازات المتحققة انهارت بأسرع مما توقعه الجميع بسبب غياب الديمقراطية والحقوق والحريات المدنية والسياسية. وفي هذا السياق يمكننا القول بأن الانهيار الاقتصادي الذي أصاب أغلب دول النمور الآسيوية التي حققت معدلات

نمو اقتصادية كبيرة كان دليلاً واضحاً لإغفالها الالتزام بالقيم الديمقراطية تجاه شعوبها التي كانت الأداة الأساسية لتلك الإنجازات.

(٤) يعتبر عدد غير قليل من المثقفين والإعلاميين العرب أن عمل منظمات العفو الدولية واللجان المختصة في الدفاع عن حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة وغيرها من المنظمات الدولية والإقليمية الأخرى، هو شكل من أشكال التدخل في الشؤون الداخلية للدولة، وهو تدخل يتناقض مع ميثاق الأمم المتحدة الذي يؤكد على احترام سيادة الدول. لكن الكثير من هؤلاء المثقفين والإعلاميين العرب لا ينطقون بكلمة واحدة عن تدخل صندوق النقد الدولي في الشؤون الداخلية للدول المستفيدة من "مساعداته" التي يمنحها بشروط مجحفة ومذلة في أغلب الأحيان. وفي مقدمة تلك الشروط وأكثرها خطورة التدخل في البناء الاقتصادي للمجتمع، الأمر الذي يترتب عليه في نهاية المطاف انقلاباً سياسياً في البناء السياسي للدولة.

الهوامش

(١) انظر بالتفصيل: د. سعد الدين ابراهيم، أزمة الديمقراطية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٧، ص١٢ وما بعدها.

(٢) انظر بالتفصيل: ملتقى الحوار العربي الثوري الديمقراطي، قضية الديمقراطية في الوطن العربي، طرابلس ١٩٩١، ص٦٣-٦٥.

(٣) انظر: د. سعد الدين ابراهيم، أزمة الديمقراطية في الوطن العربي، المصدر السابق ذكره، ص١٢-١٣.

(٤) انظر: د. سعد الدين ابراهيم، المصدر السابق ذكره، ص١٣.

(٥) انظر: د. حسام عيسى، ملتقي الحوار العربي الثوري الديمقراطي، طرابلس ١٩٩١، ص٢٢٧-٢٢٨.

(ملف)

اشتراكيتنا والديمقراطية

الحزب الشيوعي في جنوب إفريقيا

بتصويته الساحق لصالح المؤتمر الوطني الإفريقي(ANC)، تكون جماهير جنوب إفريقيا في الانتخابات الأخيرة قد أرسلت رسالة واضحة تقول: نريد تحولاً كاملاً في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية، وليس تعديلاً طفيفاً في الوضع القائم.

وعليه، فإن التحدي الكبير الذي نواجهه هو كيف نترجم رؤيتنا الاشتراكية ضمن إطار الثورة الوطنية الديمقراطية إلى برنامج عملي للتغيير. وبتعبير آخر، أصبح لزاماً علينا أن نعطي محتوى حقيقياً لشعارنا القائل: ابنوا سلطة الشعب، ابنوا الاشتراكية الآن!

ولكن ما هي الاشتراكية؟ الاشتراكية هي نظام اجتماعي انتقالي بين الرأسمالية (وبقية الأنظمة القائمة على أساس القمع والاستغلال الطبقيين) والمجتمع الشيوعي اللاطبقي. هذا النظام الانتقالي قد يستغرق فترة طويلة، وقد يتسم بالتناقضات والجمود والانتكاسات أيضاً، كما أن محصلته ليست مضمونة دائماً.

بالإضافة إلى كون السلطة في الاشتراكية تعبيراً عن مصلحة وإرادة الشغيلة، فإنها تتميز بالسمات الأساسية التالية:

- الديمقراطية – المساواة – الحرية – تشريك القطاعات الأساسية في الاقتصاد.

إن هذه السمات هامة كلها، وهي وثيقة الارتباط ببعضها البعض، كما تعتمد إحداها على الأخرى.

الديمقراطية: تسعى الاشتراكية إلى تعميق وتوسيع الديمقراطية لكي تشمل كافة نواحي الحياة في المجتمع. وهي لا تهدف إلى إلغاء مظاهر الديمقراطية السياسية، مثل: صوت واحد لشخص واحد، الانتخابات الدورية، القضاء المستقل، الدستور، وغيرها. لقد ناضلت الجماهير طويلاً في جنوب إفريقيا من أجل نيل هذه الحقوق الديمقراطية الأساسية، التي توصف خطأ بالديمقراطية البرجوازية. وقد تكلل نضالها بالانتصار في نيسان ١٩٩٤ عندما اضطرت البرجوازية إلى التسليم بهذه الحقوق. وسوف نستمر بالنضال في سبيل الحفاظ على تلك المكاسب، ولا نسعى إلى إلغائها من أجل "نموذج" اشتراكي آخر للديمقراطية. لكن الإنجازات الديمقراطية المتحققة ستبقى شكلية ما لم يتم تعميقها وتوسيعها لكي تشمل كافة ميادين الحياة في المجتمع. ويعني هذا توسيع نظام التمثيل والمشاركة، وتبني أنظمة وممارسات الديمقراطية المباشرة، الأمر الذي سيضعنا لا محالة في مواجهة مع الطبقة العاملة الرأسمالية.

المساواة: تمثل المساواة هدفاً رئيسياً من أهداف الاشتراكية. فنحن نسعى إلى إزالة الفوارق الكبيرة في الدخل والثروة والفرص المتاحة. وهذه الفوارق تمثل سمة أساسية من سمات المجتمع الرأسمالي. إن نظرتنا للمساواة لا تعني محاولة خلق مجتمع يتماثل فيه الأفراد في كل شيء، كما يدعي أعداء الاشتراكية، بل على العكس، فنحن لا نتجاهل حقيقة أن تقسيم العمل والوظائف الإدارية سوف تستمر في ظل المرحلة الاشتراكية، كما أننا نقر بفرادة الشخصية الإنسانية، وأن البشر يختلفون في مهاراتهم وقابلياتهم ومواقفهم وطموحاتهم وميولهم الجنسية. إن الرأسمالية هي المسؤولة عن تقييد تفرد الإنسان، وذلك بما تسببه من عدم مساواة وتهميش وتسليع للبشر.

الحرية: الحرية قيمة أساسية من قيم الاشتراكية. وعلى النقيض من الحرية الشكلية التي تروج لها أبواق الدعاية الرأسمالية، فإن الحرية، حسب المفهوم الاشتراكي، تعني زيادة وليس إنقاص الخيارات الفردية والجماعية المتاحة لغالبية الناس، كما تعني أيضاً: التحرر من الجوع والفقر، والتحرر من الجهل وفقدان الكرامة، والتحرر من الخوف من البطالة، والتحرر من الاضطهاد الطبقي والعرقي وتحرر المرأة.

التشريك: التشريك، وفق المنظور الاشتراكي، هو أحد الشروط الضرورية لتحقيق الديمقراطية الكاملة والمساواة والحرية. في الماضي، كنا ننظر إلى الاشتراكية على أنها تعني التأميم زائداً تخطيط الدولة. لكن الاشتراكية في الواقع أوسع وأعمق من تلك الإجراءات الاقتصادية التي تخص الشكل القانوني للملكية فقط.

يهدف التشريك في الأساس إلى منح الشغيلة سلطات أوسع في السيطرة على وسائل الإنتاج وملكيتها. وهو بتعبير آخر، زيادة قدرة العاملين على صنع القرار في أمكنة العمل وفي إدارة وتنظيم عملية الإنتاج، ويهدف أيضاً إلى رقابة العاملين على السلطة الاجتماعية التي تنطوي عليها الملكية الاقتصادية، ورقابتهم على تخصيص الفائض الاقتصادي من خلال سياسات الاستثمار وأسبقيات الميزانية العامة. إن الأشكال القانونية للملكية ليست العامل الوحيد في تحقيق التشريك، فتشريك الاقتصاد يحتاج إلى تبني نطاق واسع من أشكال الملكية الاجتماعية، وأهمها:

– قطاع عام مهيمن ومتنوع مع مشاريع مملوكة ومدارة من قبل الحكومة المركزية أو السلطات الإقليمية أو البلدية. وتخضع هذه المشاريع العامة إلى أشكال متعددة من الرقابة الديمقراطية، وإلى رقابة النقابات، ولجان البرلمان، وممثلي المستهلكين، ووسائل الإعلام.

– قطاع تعاوني كبير متنامي.

– الاستخدام الفعال للرأسمال الاجتماعي بإشراف العاملين، مثل: صناديق التقاعد، وصناديق ادخار العاملين.

كذلك، سيكون للقطاع الخاص، والذي سيتكون من المشاريع الصغيرة والمتوسطة، دور هام في ظل الاشتراكية، حيث سيتولى مهمة التنظيم وتوزيع البضائع الخدمات.

التخطيط والسوق في الاقتصاد الاشتراكي

إن الاقتصادات الرأسمالية لا يمكنها العمل دون تدخل الدولة تدخلاً يأخذ شكل التخطيط والتنسيق والدعم. أما في الاشتراكية، حيث يسود القطاع المشرك، فإن إمكانيات التخطيط ستكون أكثر عقلانية وفعالية. فالحكومة الاشتراكية ستضع أهدافاً للقطاعات الرئيسة في الاقتصاد، لا سيما البنى التحتية والمرافق العامة. كما ستخطط من أجل توفير التدريب والتعليم والخدمات الأخرى.

وعلى النقيض من المجتمع الرأسمالي، سيكون التخطيط في الاشتراكية خاضعاً للعملية الديمقراطية بما فيها المفاوضات وإلى التعديل والتقييم الدوري. وسيستمر السوق في الاشتراكية بتأدية وظيفة تنظيمية وتوزيعية مهمة، لكن لن يكون له الدور الحاسم. وسيتم تحديد مجالات هامة في المجتمع من تحكم قوى السوق، مثل: الصحة، التعليم، المواصلات العامة، البريد، المياه، الكهرباء، والقطاعات الثقافية الهامة. على أن هذا لا يعني أن تلك المجالات والخدمات ستصبح مجانية أو غير خاضعة للضريبة، لكن المقصود هو أنها لن تكون خاضعة لمنطق الربح.

الاشتراكية هي المستقبل

وهكذا فإن أهم ما يميز المجتمع القائم على الديمقراطية الاشتراكية هو الخصائص التالية:

- الدور المهيمن للقطاع الاشتراكي في الاقتصاد.

- تزايد إمكانيات التخطيط العقلاني.

- سيادة الثقافة والممارسات الديمقراطية في كل مجالات الحياة في المجتمع.

- قدر كبير من المساواة في الثروة والدخل والسلطة والفرص المتاحة لكافة المواطنين، وبالتالي تنامي حرية الجميع.

إن أهم تحد يواجه البشرية في القرون الماضية هو الخطر الذي يتهدد بيئة الأرض. ومن دون الاستخدام المخطط والعقلاني والعادل لموارد الأرض، فإن وجود الجنس البشري سيصبح عرضة للخطر. وعليه فإن مجتمعات الديمقراطية الاشتراكية وليس الرأسمالية، هي وحدها القادرة على وضع الأسس الصحيحة والفعالة لمواجهة تحديات من هذا النوع.

وضع أسس البناء الاشتراكي الآن!

الاشتراكية بالنسبة للحزب الشيوعي واتحاد النقابات في جنوب إفريقيا ليست مجرد رؤيا، أو مثال يحلم بتحقيقه في المستقبل البعيد. فنحن نسعى بنشاط لبناء مجال للاشتراكية، وخلق زخم نحو الاشتراكية، وإقامة عناصر الاشتراكية في جنوب إفريقيا. لهذا السبب اختار الحزب شعار: ابنوا الاشتراكية الآن! ولكن ما المقصود بهذا الشعار من الناحية العملية؟ لهذا الشعار الأبعاد التالية:

- إن الدفاع عن الثورة الوطنية الديمقراطية والمضي فيها وتعميقها، وبالتالي بناء سلطة الشعب إنما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمهمة النضال من أجل الاشتراكية الآن، فبناء سلطة الشعب ينطوي على بناء مجال وزخم وعناصر الاشتراكية.

– تقليص دور السوق بحيث لا تخضع لمنطقه قطاعات أساسية، مثل: الصحة، التعليم، السكن، البيئة، الثقافة، والمعلومات. إن الحزب الشيوعي في جنوب إفريقيا ملتزم بالنضال ضد سيطرة قوى السوق التي تحاول إخضاع كل شيء في المجتمع لمنطق الربح.

– تقليص دور السوق لا يعني إلغاؤه، بل يعني توجيه وتحويل نشاطه بحيث يقتصر على عمليات التنظيم والتوزيع. السوق ليس واقعاً "محايدا " وليس هناك "سوق حرة". فالأسواق الحالية تعكس تراكم السلطة الطبقية للرأسماليين. فالحاجة تدعو إلى بناء قوة اجتماعية جماعية تتحدى وتغير علاقات القوى الفاعلة في السوق. وهذا يتطلب:

أولاً: تطوير سوق عمل فعال. ويتحقق ذلك من خلال تقوية سلطة النقابات، وتنمية المهارات، وتزويد الراشدين بالتعليم الأساسي. إن تطبيق هذه الإجراءات سيساعد العاملين، إلى حد ما، على تحسين شروط مواجهتهم للرأسماليين في سوق العمل.

ثانياً: كفاءة استخدام الدعم الحكومي، وسياسات المناقصة للمقاولين، وإجراءات الرقابة واستخدام شركات الدولة داخل السوق لتحويل ومقرطة السوق.

ثالثاً: إنشاء منتديات حماية المستهلكين وهيئات المراقبة ومجالس الإيجار.

رابعاً: تشريك وظيفة الملكية.

خامساً: بناء قطاع عام قوي ضمن إطار دولة وطنية ديمقراطية تنموية.

سادساً: إنشاء ودعم قطاع تعاوني واسع.

سابعاً: تبني استراتيجية فعالة بشأن رقابة العاملين على رأس المال الاجتماعي: صناديق التقاعد، وصناديق ادخار العاملين.

ثامناً: تشريك الوظائف الإدارية، ويشمل ذلك الأمور التالية:

١ – محاربة البيروقراطية الإدارية في القطاع العام والأساليب الإدارية لليبرالية الجديدة، وتطوير مثل إدارية للقطاع العام تنسجم مع روحية البرامج السياسية والتنموية.

٢ – ضمان عدم بقاء الإدارة في القطاع الخاص وحيدة الجانب وخاضعة لأغراض الربح فقط.

٣ – الاستخدام الفعال لمنابر أماكن العمل ولجان السلامة مما يساعد على تشريك الإدارة من القاعدة إلى القمة.

وصفوة القول، فإن النضال من أجل بناء الاشتراكية يرتبط ارتباطاً عميقاً بنضالنا من أجل تنمية سلطة الطبقة العاملة وبقية قوى الشعب. إن التحرر الوطني والاشتراكية لا يمنحهما أحد للشعب، بل يتحققان من خلال سيرورات مستمرة لنضال الشعب والطبقة العاملة من أجل التحرر. فلنبن سلطة الشعب، ولنبن الاشتراكية الآن!

ترجمة ث ج عن مجلة *Political Affairs*

(ملف)

شـــــراء رئيـــــس

للولايات المتحدة الأمريكية..!

يعتبر دستور الولايات المتحدة الأمريكية من أكثر الدساتير ديمقراطيـــة. لكــن مضمــون الممارسة الديمقراطية يعتريه الكثير من الانحراف بتأثير الشركات الكبرى التي تسعى إلى كسب النفوذ لدى صناع القرار من الساسة. بمناسبة تصاعد الحملة الانتخابية فـي الوقـت الحاضر، ولإلقاء الضوء على هذا الخلل في الحياة السياسية للقطب الأعظم، نقدم ترجمـــة موجزة للقاء مع تشارلس لويس، وهو صحفي سابق امتهن إجراء التحقيقات لشبكةABC للأخبار ثم عمل منتجاً للبرامج في شبكة CBS للأخبار. ثم أسس وما زال يديـــر "مركـز الاستقامة السياسية" كهيئة مستقلة لمراقبة الفساد السياسي. عام ١٩٩٦ صــدر عــن هــذا المركز كتاب "شراء الرئيس" ثم كتاب "شراء الكونغرس" عام ١٩٩٨، ومؤخـــراً كتـــاب "شراء الرئيس عام ٢٠٠٠".

أجرت المقابلة مجلة Multinational Monitor الأمريكية ونشرتها في عـــدد آذار المـــاضي. وتوخياً للإيجاز استبعدنا ما جاء عن حملة المرشحين اللذين سقطا في التصفية الختاميــــة، وهما جون مكين، الجمهوري، وبيل برادلي. أما علاقتهما بدنيا المـــال فتعكســها قائمـــة كبريات الشركات العشر التي مولت كلاً منهما بأعلى التبرعات.

▪ **ما الذي تكسبه الشركات والنقابات لقاء المال الذي تتبرع به إلى المرشحين في انتخابات الرئاسة؟**

▪▪ ما تكسبه هو القرب من ذوي السلطة والتأثير على سياســـاتهم. فديمقراطيتنـــا خاضعـــة للشرط القائل: "ادفع كي تلعب". إن حوالي ٩٦% من الأمريكان لا يتــبرعون للسياســيين بفلــس واحد. أما الذين يتبرعون بألف دولار، كحد أقصى قانونياً، فلا تزيد نسبتهم عـــن عشــر الواحــد بالمئة. إنهم نخبة ضيقة من السكان لكن لها الهيمنة المالية على الانتخابات.

■ ما درجة النفوذ الذي يشتريه المتبرع؟

■■ هناك طيف واسع من القضايا التي تطرح في الكونغرس. ولدى أعضائه عشرات الأسباب التي تحملهم، في العادة، على التصويت مع أو ضد أي تشريع.

ثم إن السياسيين غير ملزمين بشرح ما يقررون، وكثيراً ما يتحاشون التحدث إلى الصحفيين والناس عن مبررات ما يتخذون إزاء القضايا العامة من مواقف. وحين يسألونهم عن التبرعات التي يتلقونها، فإنهم لا يتصفون بنزاهة كبيرة عند الحديث حول تأثير المال على سلوكهم السياسي.

إن أموالاً طائلة تتدفق على الحزبين الجمهوري والديمقراطي وعلى سياسييهما، بمن فيهم مرشحو الرئاسة. وعديد من الجهات المتبرعة تكسب المليارات من الإجراءات المؤاتية التي تتخذ لصالحهم بفضل الحزبين وسياسييهما.

■ أتقصد إعفاءات ضريبية، أو ما شابه ذلك من امتيازات محددة، أم أن الأمر يتعلق بالتأثير على السياسة العامة تجاه قضايا أوسع، مثل الميزانية العامة، أو الضمان الاجتماعي؟

■■ عادة ما تكون مصلحة أي شركة ذات طابع ضيق. فالشركات غير معنية، في العادة، بالسياسة الاقتصادية العامة، وما إلى ذلك. الشركة تستهدف ما يدر عليها من ربح أعلى، مثل تخفيض رسم كمركي، أو الحصول على دعم مالي من الدولة.

إن آلاف التشريعات والقرارات التي تطرح للتصويت تتعلق بأمور لا يفقه النائب الاعتيادي شيئاً عنها أو لا يهمه شأنها. ثم إن الناس لا يتلقون من وسائل الإعلام، أو من أي مصدر آخر، ما يوضح مثل هذه الأمور المجهولة. وهنا يكون للمال أقصى مردود. لكن ليس للمال تأثير كبير على سياسات ذات طابع أعم مثل حرب الكوسوفو وقضايا كبيرة أخرى.

■ هل من فرق في تأثير المال بين أعضاء الكونغرس ورئيس الجمهورية؟

■■ أهمية الكونغرس نابعة من سيطرته على الإنفاق الحكومي ورقابته على الإدارة.

فالشركة المعنية تقدم تبرعات سخية للنواب الأعضاء في اللجنة المختصة بمجال عمل الشركة وذلك في كل دورة انتخابية. فالشركات، أو من ينوب عنها من مؤسسات (اللوبي)، تستضيف جامعي التبرعات لأعضاء اللجان المعنية وتحرص على إشراك الشركات الأخرى العاملة في مجالها. فعضو البرلمان بحاجة إلى ما يزيد على المليون دولار لتمويل حملته الانتخابية وعضو مجلس الشيوخ بحاجة إلى أربعة أو خمسة ملايين دولار لتمويل حملته. ومثل هؤلاء لا ينسون الجهات التي قدمت إليهم أعلى التبرعات ويحرصون على نيل رضاها.

وهناك العلاقات الاجتماعية. فمعظم العاملين في الكونغرس يمضون سنتين فيه تمهيداً للحصول على وظيفة مجزية في الشركات، حيث يقفز الراتب إلى ثلاثة أو أربعة أمثاله في الكونغرس. وهكذا تسود علاقات فاسدة بين رجال الحكومة وموظفي الشركات:

وثمة أيضاً علاقة الشركات بأجهزة الرقابة، سواء تعلق الأمر بوزارة الزراعة، أو الإدارة المختصة بالغذاء والدواء، أو وكالة حماية البيئة وغيرها. فالشركات تحرص على توظيف الكثير من موظفي مؤسسات الرقابة وتحويلهم إلى ممثليها في أروقة تلك المؤسسات.

هكذا تتوطد علاقة بين ثلاثة أطراف: ١- الحكومة ومؤسساتها، ٢- مجلس النواب والشيوخ، ٣- الشركات. وعادة ما تؤثر الشركات على الطرفين الأول والثالث لمصلحتها. غير أن تأثيرها على مجلسي النواب والشيوخ تأثير مباشر يفوق تأثيرها المباشر على الإدارة. هذا لا يعني أن الشركات لا ترهق مؤسسات الإدارة والرقابة بشكاواها أمام القضاء.

إن في الكونغرس ٢٤٠ لجنة فرعية، وشهدت العقود الثلاثة الأخيرة توزيع الكثير من سلطات المركز على مؤسسات ووكالات مختصة. فالشركة الذكية تعرف كيف تؤثر على هذه اللجان والمؤسسات والوكالات. وبذلك تستطيع أن تحبط أية رقابة أو تغيير في الوضع القائم. ولديها العديد من المنافذ للحصول على منافع، كالإعفاء الضريبي، أو المنح أو غيرها كثير.

▪ كيف يؤثر جمع التبرعات على المرشحين أنفسهم؟

▪▪ يوجد صنفان من المرشحين: أصحاب الملايين وأولئك الذين يعتمدون على التبرعات لتمويل حملتهم الانتخابية. مبالغ التبرعات طائلة ويحصلون عليها من خلال التزلف والملق للشركات التي سيتولون هم الرقابة عليها عند الفوز في الانتخابات. لذلك يأنف الكثير من الشرفاء دخول معترك السياسة في الوقت الحاضر. فالمرشح الذي يتعفف عن هذه الممارسة محكوم عليه بالفشل لأن وسائل الإعلام لن توليه اهتماماً مناسباً. فكل شيء بثمن.

هذا بالنسبة للمرشحين إلى مجلس الكونغرس، أما بالنسبة للمرشحين للرئاسة، فإن كلفة حملتهم الانتخابية هائلة الحجم، فخلال السنة التي تسبق موعد الانتخاب على المرشح أن يجمع تبرعات لا تقل عن ثلاثين مليون دولار وذلك بحضور ما لا يقل عن ٢٥٠ حفلة لجمع التبرعات. وبذلك يجب تكريس من ٨٠ إلى ٩٠% من الوقت للسفر عبر البلاد. فالمرشح للانتخابات القادمة يدرك أن ٩٠% من المبلغ المطلوب ينبغي ضمانه في السنة التي تسبق موعد الانتخاب.

وهناك تصفية مسبقة للمرشحين من قبل نخبة الأثرياء الذين يتبرع كل منهم بألف دولار للمرشح، وتبرعاتهم تصب في صالح بضعة مرشحين تجري تصفيتهم بعدئذ في الولايات ليبقى مرشح واحد للحزب الديمقراطي والحزب الجمهوري. وقد حجب الأغنياء تبرعاتهم عن خمسة من المرشحين خلال التصفية الأولى، فانسحبوا صاغرين.

الصحفيون يخمنون قدرة المرشح على الصمود من ضخامة المبلغ الذي جمعه دون الاهتمام بمصدر التبرعات. لقد بز جورج بوش الابن منافسيه في الحزب الجمهوري في جمع المال فهزمهم.

▪ لو كان المال هو فقط الذي يضمن الترشيح لكان الملياردير (فوربس) أول الفائزين في التصفية. فما هو بالضبط دور المال؟

■■ ليس المال وحده شرط الفوز، لكنه ضروري لكل من يريد دخول المعمعة. فمنذ الإصلاحات التي أعقبت فضيحة (ووترغيت) عام ١٩٧٦، تميزت كل انتخابات الرئاسة، دون استثناء، بترشيح الحزب لمن يجمع أعلى مبلغ من التبرعات في السنة السابقة للانتخابات، وذلك بصرف النظر عن آرائه. وهذا لسوء حظ البلاد بطبيعة الحال.

■ ما سبل الحصول على التبرعات الضخمة؟

■■ تزايد التستر على مصادر التبرعات خلال السنوات الأربع أو الخمس الأخيرة. ففي عدة ولايات يمكن إيداع التبرع للمرشح في حسابات غير خاضعة لرقابة واشنطن على الحد الأعلى القانوني. وإضافة إلى التبرع للمرشح مباشرة، بوسع المتبرع أن يضيف تبرعاً آخر عن طريق الصندوق المشترك بين شركات عاملة في مجال معين، وهكذا يمكن لمجموع التبرعات أن يبلغ الملايين. وبالإمكان اختلاق هيئة للعمل من أجل هدف معين (كالتصدي لمشروع السيطرة على امتلاك السلاح أو ضد التضييق على شركات السكائر) وضخ مبلغ كبير تبرعاً لصندوقها ومن خلال هذا الصندوق يمكن تقديم تبرعات إضافية إلى مرشح ما، أو الإنفاق ضد مرشح ما. ومثل هذه التبرعات لا تشمل وضع طائرة شركة ما تحت تصرف هذا المرشح أو ذاك أو ممثليهم.

■ ما أهم الشركات التي تدعم الحزب الديمقراطي؟

■■ منذ الثمانينات يحاول الحزب محاكاة الجمهوريين في اجتذاب تبرعات رجال الأعمال (أنظر الجدول -١). فأخذ الآن يحصل على مبالغ كبيرة من (وول ستريت). وشرع يتغلغل كذلك في صناعة النفط. على سبيل المثال، كانت شركة Atlantic Richfield تناصر الجمهوريين بدعم سخي، أما الآن فأصبحت من أكبر ممولي الحزب الديمقراطي أيضاً. وكان للديمقراطيين علاقة قوية بـ هوليوود، من حيث نجوم السينما وكذلك من حيث الاستوديوهات وشركات الاتصالات التي أخذت تسيطر على هوليوود. ويحاول الديمقراطيون الحصول على دعم شركات الاتصالات العاملة خارج هوليوود. وعموماً من الصعب أن نجد قطاعاً من قطاعات الأعمال لا يقدم دعماً مالياً سخياً للديمقراطيين.

وثمة ولاء تقليدي لدى بعض الفئات لأحد الحزبين. فالنقابات تدعم الديمقراطيين أما شركات الاتصالات فتتبرع للجمهوريين ضعف المبلغ الذي تتبرع به للديمقراطيين، وهو بالملايين.

■ ما علاقة (غور)، مرشح الديمقراطيين، بشركة أوسيدنتال بتروليم؟

■■ تربطه بالشركة علاقة مالية وشخصية طويلة. وكان رئيسها السابق صديق أبيه الذي عينه بوظيفة في الشركة تدر عليه نصف مليون دولار سنوياً، وذلك بعد أن خسر مقعده في مجلس الشيوخ. ودبر لغور الابن صفقة في قطاع المناجم درت عليه ٣٠٠ ألف دولار. وتبرعت الشركة بحوالي نصف مليون دولار للحزب الديمقراطي. ولقاء ما كسب غور الابن من الشركة، أتاح لها، بنفوذه كنائب للرئيس حالياً، شراء حقل (إيلك هيلز) الغني بالنفط، فزاد حجم احتياطي الشركة من

النفط إلى ثلاثة أمثال ما كان عليه، مما سيدر عليها المليارات. وجدير بالذكر أن (غور) يزعم أنه نصير متحمس للبيئة.

■ والشركات الأخرى التي دعمت آل غور منذ بداية صعوده السياسي؟

■■ من الجدول الثاني نرى أن أعلى التبرعات جاءته من شركة (ارنست أند يونـــغ) وهـــي أضخم شركة للحسابات في العالم. وهي تمارس الضغط للحصـــول علـــى إعفـــاءات ضريبيـــة للشركات. مديرها من أبرز جامعي التبرعات لغور. وفي الجدول الشركات التسع التي تليها مـــن حيث حجم التبرعات.

■ ماذا حقق جورج بوش الابن من نتائج؟

■■ بوسعنا القول إنه انتهج سياسة الباب المفتوح أمام أضخم الشركات في ولاية تكساس التي يحكمها. وعليه استطاع أن يجمع ٤٠ مليون دولار من التبرعات خلال الدورتيـــن الانتخـــابيتين الأخيرتين، أي قبل أن يرشح نفسه للرئاسة عام ١٩٩٩ حين أخذ يجمع ٣١٠ آلاف دولار يوميـــاً لحملته الرئاسية. وبذلك يكون قد جمع تبرعات تزيد بنسبة ٢٥٠% على التبرعات التي جمعها أي مرشح للرئاسة من قبل. وهو الوحيد بين المرشحين، لا يهتم أبداً بتغيير أو إصـــلاح السياســـات. والشركات الأربع التي تتصدر المتبرعين له هي شركات نفطية. وكان هو مـــن رجـــال النفـــط وتربطه علاقة وثيقة بعدد من رجال هذه الصناعة، فعينهم في إدارة الولاية. وقد حصـــل علـــى تبرعات من شركة Enron مقدارها ٥٥٠ ألف دولار خلال حياته السياسية. وهي أضخـــم شـــركة لشراء وبيع الغاز الطبيعي. وفي الجدول الخامس الشركات التسع الأخرى التي تتصـــدر قائمـــة المتبرعين له. وجدير بالذكر أن ولاية تكساس تعاني أسوأ تلوث لهوائها من أية ولاية أخرى. فبدلاً من إرغام هذه الشركات على عدم تلويث الهواء فإن بوش يتعاون معها. وقد كلف شركتين للنفـــط بصياغة ضوابط طوعية حول البيئة لكن أحداً لا يلتزم بها ما دامت تزيد التكاليف وتقلل الأرباح.

من أطرف صفقات بوش أنه ربح ١٥ مليون دولار من خلال استثمار ٢٠٠ ألف دولار في فريـــق (تكساس رينجر للبيسبول) مستفيداً من دعم على حساب الخزينة مقداره ٢٠٠ مليـــون دولار. وأغلـــب الأمريكان لا يمتلكون القدرة والجرأة والمعلومات الخفية التي مكنت بوش من جني مثل هذا الربح.

■ ما هو الحل لمشكلة النفوذ المتزايد للشركات في الحياة السياسية؟

■■ تتراوح المقترحات بين تمويل الحكومة للحملة الانتخابية والتشدد في تطبيق قوانين الانتخابـــات، لكن قليلاً ما يدور الكلام عن ذلك. فمرشح كل من الحزبين يحصل علـــى تمويـــل لحملتـــه بعشـــرات الملايين من خزينة حزبه بعد أن يدعو الشركات الكبرى إلى التبرع للحزب وليس له شـــخصياً. وهـــذا تحايل واضح على القانون الذي يجعل الحد الأعلى للتبرع ألف دولار. لكن اللجنة التي استحدثت عقـــب فضيحة (ووترغيت) للتحقيق في تمويل الحملة الانتخابية لا تؤدي مهمتها. فهي تتألف من ستة أعضـــاء،

ثلاثة جمهوريين وثلاثة ديمقراطيين. ولكي تستدعي أي مرشح للتحقيق ينبغي أن تصوت بالأغلبية على قرار الاستدعاء. وإذا ما قامت بالتحقيق فإن إجراءاتها تستغرق أربعة أو خمسة أعوام. وإذا تعرض المرشح للإدانة فإنه يعاقب بغرامة يدفعها من المبالغ التي جمعها خلال الحملة الانتخابية.

لا يمكن علاج هذه المشاكل إلا بضغط المواطنين من خلال المشاركة في الانتخابات. فحوالي ١٠٠ مليون أمريكي لا يدلون بأصواتهم. وفي الدورتين الانتخابيتين الأخيرتين هبطت نسبة المصوتين إلى أدنى مستوى في تاريخنا. إن ٤٠% من الذين يحق لهم التصويت لا يعرفون حتى اسم نائب رئيس بلادهم. فهم، لسوء الحظ، يخلون الميدان السياسي الذي يؤثر تأثيراً هاماً على مصلحتنا جميعاً.

الجدول ١ – أعلى الشركات تبرعاً للحزب الديمقراطي

1. American Federation of State, County and Municipal Employees	$3,671,809
2. Communications Workers of America	$3,593,815
3. The Seagram Company, Montreal	$2,673,927
4. National Education Association	$2,644,927
5. American Federation of Teachers	$2,075,913
6. Service Employees International Union	$1,978,691
7. Loral Space & Communications Ltd., New York/Bernard Schwartz	$1,949,500
8. Walt Disney Company, Burbank, CA	$1,877,605
9. United Food and Commercial Workers	$1,789,064
10. Shorenstein Company/San Francisco/ Shorenstein family	$1,660,680
11. The Connell Company, Westfield, NJ	$1,505,600
12. AT&T/TCI, Basking Ridge, NJ	$1,476,138
13. MCI WorldCom, Jackson, MS	$1,459,029
14. Goldman Sachs Group, New York	$1,456,300
15. AFL-CIO, Washington	$1,397,161
16. Peter, Paul and Lawrence Buttenweiser, New York	$1,382,500
17. Atlantic Richfield Co. (ARCO)	$1,354,038
18. Milberg Weiss Bershad Hynes & Lerach, New York	$1,337,500
19. Laborers' International Union of North America, Washington	$1,256,025
20. Philip Morris Companies, Inc., NY	$1,237,582

Compiled by the Center for Responsive Politics based on soft-money contributions to the Democratic National Committee and its affiliated committees from January 1991 through June 1999. Based on data from the Federal Election Commission and Common Cause.

الجدول ٢ - أعلى الشركات تبرعاً لآل غور

1. Ernst and Young International, New York	$125,200
2. BellSouth Corporation, Atlanta	$104,000
3. The Goldman Sachs Group, New York	$ 99,250
4. D.E. Shaw and Company, New York/ Shaw and Kobliner families	$ 98,000
5. Citigroup and affiliated companies, New York	$ 91,950
6. Viacom and affiliated companies, New York	$ 89,750
7. Mattel/ The Learning Company, Segundo, Cal.	$ 76,000
8. Eskind Family, Nashville, Tennessee	$ 74,500
9. Walt Disney Company and affiliated companies, Burbank California	$ 68,000
10. Olan Mills Family, Chattanooga, Tennessee	$ 67,950

Compiled by the Center for Public Integrity, based on individual and political action committee (PAC) contributions to Gore's House campaigns from 1977-1984; individual and PAC contributions to Gore's Senate campaigns from 1983-1992; contributions to the Vice President's Residence Foundation from 1993-1998; individual and PAC contributions to Gore's 1988 presidential campaign; individual and PAC contributions to Leadership '98 from 1997-1998; and individual contributions to Gore's 2000 presidential campaign through June 30, 1999. Gore's presidential campaign is not accepting PAC contributions. Based on data from the Federal Election Commission, the Center for Responsive Politics and the Vice President's Residence Foundation.

الجدول ٣ - أعلى الشركات تبرعاً لبيل برادلي

1. Citigroup, New York	$454,065
2. Merrill Lynch & Co., New York	$169,500
3. Goldman Sachs, New York	$148,800
4. Morgan Stanley Dean Witter & Co., New York	$129,675
5. Time Warner, Inc., New York	$112,770
6. Prudential Insurance, Newark	$102,601
7. Printon, Kane & Company, Short Hills, New Jersey	$97,915
8. Walt Disney Co., Burbank, California	$95,415
9. Equitable Companies, New York	$94,100
10. Lehman Brothers Holdings, New York	$91,250

Compiled by the Center for Public Integrity based on individual and PAC contributions to Bradley's Senate campaigns from 1977-1996; individual contributions to Time Future, Inc., from 1997-1998; and individual contributions to Bradley's presidential campaign through June 30, 1999. Bradley no longer accepts PAC contributions. Based on data from the Federal Election Commission and the Center for Responsive Politics.

الجدول ٤ – أعلى الشركات تبرعاً للحزب الجمهوري

Company	Amount
1. Philip Morris Companies, New York	$6,211,508
2. Amway Corporation, Ada, Michigan/ DeVos family	$4,518,500
3. American Financial Group/Lindner family, Cincinnati	$3,494,000
4. Nabisco/R.J. Reynolds Tobacco	$3,159,627
5. AT&T Corporation/TCI, Basking Ridge, New Jersey	$2,913,543
6. Atlantic Richfield Company (ARCO), Los Angeles	$2,295,106
7. Archer Daniels Midland Co., Decatur, Illinois	$2,112,268
8. UST Inc./United States Tobacco, Greenwich, CT/Vincent Gierer	$1,927,200
9. Bell Atlantic/NYNEX, New York	$1,910,494
10. Seagram Co. Ltd., Montreal	$1,629,555
11. Pfizer, Inc., New York	$1,551,704
12. Brown & Williamson Tobacco, Louisville, KY	$1,508,800
13. FDX Corp., Memphis, TN	$1,507,763
14. Enron Company	$1,463,200
15. Chevron Corp., San Francisco	$1,460,906
16. MCI WorldCom, Jackson, MS	$1,423,298
17. The News Corp., Sydney, Australia	$1,396,750
18. Citigroup, Inc., New York	$1,391,401
19. Merrill Lynch & Co., New York	$1,302,900
20. Cintas Corp., Cincinnati/ Richard Farmer	$1,290,000

Compiled by the Center for Responsive Politics based on soft-money contributions to the Republican National Committee and its affiliated committees from January 1991 through June 1999. Based on data from the Federal Election Commission and Common Cause.

الجدول ٥ - أعلى الشركات تبرعا لجورج بوش الابن

1. Enron Corporation, Houston	$550,025
2. Sanchez family and related companies, Texas	$320,150
3. Vinson & Elkins, Austin, Texas	$316,700
4. Hicks, Muse, Tate and Furst, Inc., and affiliated companies, Dallas	$290,400
5. Bass family and business interests, Ft. Worth	$273,927
6. The Sterling Group and related companies	$259,000
7. Pilgrim's Pride Corporation, Dallas/Lonnie "Bo" Pilgrim	$231,750
8. Farmers Group, Inc., Los Angeles	$223,500
9. Sam and Charles Wyly, Jr., and business interests, Dallas	$222,773
10. Arter & Hadden, Cleveland/Tom Loeffler	$210,700

Compiled by Center for Public Integrity, based on individual contributions to Bush's House campaign from 1977-1978; individual and PAC contributions to Bush's gubernatorial campaign from 1993-1998; individual and corporate contributions toward the 1995 renovation of the governor's office; individual and corporate sponsors of the 1995 and 1995 Bush inaugurals; and individual and PAC contributions to Bush's presidential campaign through June 30, 1999. Based on data from the Federal Election Commission; Center for Responsive Politics; Texas Ethics Commission; Governor Bush Committee; State Preservation Board.

الجدول ٦ - أعلى الشركات تبرعا لجون مكين

1. U.S. West, Denver	$107,520
2. Hensley & Co., Phoenix	$80,300
3. AT&T, New York	$72,250
4. Viacom, Inc., New York	$61,750
5. Boeing, Seattle	$61,400
6. BellSouth Corporation, Atlanta	$60,000
7. Del Webb Corporation, Phoenix	$56,535
8. Bank of America, Charlotte, NC	$55,218
9. Motorola, Inc., Shaumburg, IL	$49,045
10. Phelps Dodge Corp., Phoenix	$47,100

Compiled by Center for Public Integrity, based on individual and PAC contributions to McCain's House campaigns from 1981-1986; contributions to the McCain PAC from 1985-1988; individual and PAC contributions to McCain's Senate campaigns from 1985 through June 30, 1999; and individual and PAC contributions to McCain's presidential campaign through June 30, 1999. Based on data from the Federal Election Commission and the Center for Responsive Politics.

الحاجة إلى بديل راديكالي

ايشتفان ميزاروش

هذه مقابلة أجراها الياس كوناليس، أحد كتاب صحيفة (بوفيمـــا) اليونانيـــة مـــع المفكـــر المجري ميزاروش ونشرت في تلك الصحيفة يوم ٢٥ تشرين الثاني الماضي. ونترجمـــها عن مجلة (مونثلي ريفيو) الأمريكية – عدد كانون الثاني الماضي – ث ج

■ **ما رأيك في القرن العشرين الذي سماه الفيلسوف إريك هوبسباوم "قرن الحلول القصوى" وذلك في ضوء الرؤية المعاصرة، والثورات العظمى، والحرب ضـــد النازيـــة، وانـــهيار الاشتراكية في أوربا الشرقية وسيادة السوق؟**

■■ يسرني جداً أن تطرح هذا السؤال، لأنه يثير مسائل لها آثار بعيدة المدى. لنبدأ بالثورات. فهي أشبه بزلازل هائلة تمخض عنها جبال لا يمكن إزالتها أو إعادتها إلى باطن الأرض. خذ هذا النموذج للتفكير المحافظ الذي عبّر عنه والت روستو، أحد مستشاري الرئيس الأمريكي الراحـــل جون كندي. فقد حاول بلهفة أن يشطب على ثورة أكتوبر بقوله "لولا انـــدلاع الحـــرب العالميـــة الأولى، أو لو تأخر اندلاعها عشر سنين، لأمكن، بالتأكيد تقريباً، أن تفلح روسيا في العبور إلـــى الحداثة فتصبح منيعة تجاه الشيوعية".

إن هذه المحاججة، بشروطها المنافية للواقع، لا تصدر عن طالب مجتهد في أدنى مســـتويات مبادئ الفلسفة. أما الدعاية المتلهفة فترفعها إلى مصاف الحكمة العظمى. لكن الواقع يدل علـــى أن للثورات العظمى تداعيات تستمر عبر القرون حتى تزول الأسباب التي فجرتها. فيمكن أن يعقـــب الزلزال الأول هزات تكاد لا تقل عنه قوة، ثم إن أهميتها لا تنحصر في موقـــع الزلـــزال الأول. فالثورة الفرنسية لعام ١٧٨٩ زلزلت أمريكا الشمالية، فضلاً عن القارة الأوروبية برمتها. وها قـــد مرت ٢١٠ سنين على تلك الثورة دون أن تفقد الكثير من راهنيتها، ذلـــك لأن المطـــاليب التـــي طرحتها لم تتحقق حتى الآن. فأين هي الحرية والأخوة والمساواة؟ فقد تعرض شعار تلك الثـــورة هذا، إما إلى المحو من وعي الرأي العام وإما قد تحول إلى هيكل شكلي. وجدير بالذكر أن زعماء

العالم الذين اجتمعوا في باريس للاحتفال بالذكرى المئتين للثورة الفرنسية لم يخجلوا من الإصغاء باحترام إلى تهجمات مارغريت تاتشر (رئيسة حكومة المحافظين عامذاك) ضد تلك الثورة، فكأن كلامها لا يأتيه أي باطل.

إن تعجل البعض في تشييع الثورة الفرنسية إلى القبر دليل واضح على الغباء في التحيز السياسي عند أولئك المشيعين. وثمة غباء وتحيز سياسي في محاولة تشييع ثورة أكتوبر إلى قبرها، لا لشيء إلا ما حدث في مهد الثورة قبل عشر سنين. لقد كانت ثورة بمطامح اشتراكية لا يمكن محوها من التاريخ. فمن تداعياتها إقامة جمهورية المجالس في المجر، والانتفاضات الألمانية خلال السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، والثورة الصينية بين ١٩٢٧ إلى ١٩٤٩، والثورة الكوبية عام ١٩٥٧، ونضالات التحرر من الاستعمار في أفريقيا وجنوب شرق آسيا، وكفاح الشعب الفيتنامي الذي أفلح في تحدي جبروت أمريكا خلال حربها العدوانية. ولنا أيضاً أن نتذكر أن الصين احتفلت في أيامنا بمرور خمسين عاماً على انتصار ثورتها التي أزاحت عنها نير السيطرة الأجنبية. وبصرف النظر عن حجم المشاكل والتناقضات في تلك الوقائع، تظل المطامح الاشتراكية التي ألهمت ثورة أكتوبر ماثلة في تاريخ القرن العشرين.

إذا عاينا تلك الأحداث العظمى بهذا المنظور، فإننا سنجد صورة القرن العشرين أكثر إيجابية بكثير مما يرسمها كثيرون، ولا سيما التائبون، كما يسميهم الإيطاليون. فهؤلاء بالذات كانوا في الماضي يرسمون صور تلك الأحداث التاريخية بألوان زاهية إلى حد السخف.

وصفوة الكلام أننا ينبغي أن نتذكر أن الانتقال من تشكيلة اجتماعية، وهو هنا انتقال من إعادة إنتاج رأس المال إلى بديله الراديكالي (الذي ظهر عملياً في أفقنا التاريخي قبل أكثر من ثمانية عقود) إنما هو سيرورة process اجتماعية هائلة التعقيدات والمشاكل، سيرورة لا تتحرك إلى الأمام فحسب، بل تتعرض إلى نكسات ضخمة. لكن النكسات، مهما كانت عظيمة ومأساوية، لا يمكنها أن تطفئ شعلة المطامح والقوى البشرية التي تدفع نحو تحول نوعي.

أما بشأن "سيادة السوق العالمية" فتدعوا الحاجة إلى إيراد عدة تحفظات جوهرية، أولها وأعمقها هو أن نصف سكان العالم لا يعيدون إنتاج شروط حياتهم حسب قواعد "السوق العالمية السائدة". خذ سكان الهند بغالبيتهم الهائلة، أو ما يزيد على المليار من الصينيين الذين يبلغ تعدادهم مليار وربع المليار. ففي الصين، يمكن الحديث عن جيوب رأسمالية صغيرة نسبياً، وحتى هذه الجيوب تخضع لسيطرة دولة غير رأسمالية. ونضيف إلى هذا أفريقيا وجنوب شرقي آسيا (مثل الملايين العديدة من الأندونيسيين الذين يعيشون على زراعة الكفاف، وبالتالي فإن كل حديث عن "السوق العالمية السائدة" يكون مثابة نكتة (بايخة). وينبغي كذلك أن نتذكر في هذا الشأن جزءاً لا يستهان به أبداً من سكان أمريكا اللاتينية.

حتى في روسيا، وبعد ١٥ سنة من محاولات غورباتشوف الخائبة، لم تنجح إعادة الرأسمالية سوى في المدن الكبيرة الموبوءة بالمافيا. فملايين العمال الروس لا يقبضون أجورهم طيلة أشهر، وقد مضى عام ونصف على كثيرين منهم دون أجور. فكيف يسير "اقتصاد السوق" دون أجور؟

حتى في الغرب الرأسمالي، ينبغي النظر إلى "سيادة السوق" نظرة انتقادية. لقد تداول الناس في الشرق كثيراً من النكسات السياسية بهيئة أسئلة موجهة إلى "راديو يرفان". أحد تلك الأسئلة كان بالصيغة التالية: "هل صحيح أن سيارات أمريكية باذخة ستعطى مجاناً في ميدان موسكو يوم السبت؟" وجاء الجواب التالي: "نعم، رفيق، صحيح ذلك تماماً، لكن هناك ثلاثة تعديلات على الخبر: أولاً أنها ستكون روسية وليست أمريكية، ثانياً، ستكون دراجات وليست سيارات، ثالثاً، سوف لا تعطى الدراجات مجاناً، بل تسرق". فلا بد من إدخال ما يقارب مثل هذه التعديلات على صيغة "الأسواق السائدة" وما ينسبون إليها من "منافسة تامة"، وذلك لأسباب أساسية ثلاثة: أولاً، هناك تطورات احتكارية متزايدة في كل بلد رأسمالي (وهي تطورات لا تعزز "سيادة السوق" بل بالعكس تمثل هيمنة معرقلة لهذه السيادة، فهي تميل إلى نسف وفي النهاية تعطيل المنافسة في السوق). ثانياً، تتسم "الأسواق السائدة" عندنا بحماية واسعة من قبل الدولة (هذه الحماية تمتد من "السياسات الزراعية المشتركة" إلى "ضمان الصادرات ومن الأموال الطائلة المعتمدة للبحوث، والتي تقدم نتائجها للشركات الرأسمالية مجاناً، إلى الأرقام الفلكية لنفقات الدولة على "المركب العسكري – الصناعي"). ثالثاً، إن "العولمة متعدية الجنسية" تؤدي، في ظل التناسب الحالي للقوى، إلى تشوهات كبيرة لعلاقات السوق الاقتصادية، وذلك لصالح القوة العظمى المهيمنة: أمريكا. فروبرت رايتش، وزير العمل السابق في إدارة كلنتون، لم يتردد في التعبير بكل وضوح عن نية أمريكا استخدام كل الوسائل التي تملكها في فرض "قومانيتها الاقتصادية الإيجابية". حتى بريطانيا، وثيقة التحالف مع أمريكا، تعاني على مضض عواقب هذه العلاقات شديدة الإجحاف. ولذلك اضطر مايكل هيزلتاين، وكان من أبرز وزراء حكومة تاتشر، إلى الاحتجاج، ولكن ضمن خطاب استقالته، ضد النتائج السلبية التي تتحملها بريطانيا جراء سياسة أمريكا "في ضوابط نقل التكنولوجيا، وقوانين الحماية، والسيطرة الخارجية التي تتولى وزارة الدفاع (البنتاغون) تنسيقها والكونغرس حمايتها" واحتج كذلك ضد سياسة أمريكا في "ضخ الأموال إلى أضخم وأغنى شركات العالم بطريقة إذا استمرت دونما رادع، فإنها ستشتري قطاعاً بعد آخر من تكنولوجيات العالم المتقدمة". وهكذا يبدو أن قادة حكومتنا وصناعتنا، لا سيما الأمريكان منهم، قد رضعوا حكمة "راديو يرفان" في التعامل مع "سيادة السوق".

■ **هل يبقى للفلسفة والفلاسفة مكان في السنوات القادمة؟ كيف ترى دورهم الراهن؟ هل من صلة بين الفلسفة والسياسة؟**

■■ نعم، ولعل دورهما سيكون أكبر مما كان في أي وقت مضى، ذلك لأن متطلبات ومحددات رأس المال ستؤدي إلى تجزؤ الإنتاج الفكري إلى تخصصات لا عد لها، وذلك على حساب جانبه الشامل. غير أن الفلسفة لا يمكن أن تتخلى عن التوجه نحو معالجة القضايا الشاملة. فمثل هذه القضايا لا يزول لمجرد إهماله تمشياً مع (المودة) السائدة. وهو إهمال ينطوي أيضاً على قيد إيديولوجي قوي، فالنظام السائد يعتبر نفسه من المسلمات المطلقة، فلا يتسامح سوى مع احتمال (ومشروعية) تعديلات هامشية رافضاً أي احتمال لقيام بدائل شاملة عنه. والفلسفة تنتحر إن هي سلمت بهذا الادعاء.

الصلة بين الفلسفة والسياسة صلة ضرورية. فالسياسة تؤثر على حياة كل الناس. ولا مهرب منها. أقول دوماً لطلابي إن السياسة أكبر أهمية من تركها للسياسيين، حتى لأبعدهم نظراً. فعبر التاريخ جرى تغريب سلطة اتخاذ القرارات الشاملة عن الفرد الاجتماعي، فقد استولى عليها الساسة المحترفون. وهذا جور لا يمكن أن يدوم إلى الأبد. وما زال الفلاسفة منذ عهد الإغريق القدماء يحاولون معالجة هذا الوضع الجائر. لكن العلاقة بين الفلسفة والسياسة ظلت أبعد ما تكون عن العلاقة المريحة، ولا عجب في ذلك. حسبنا أن نذكر هنا أسماء أفلاطون، كامبانيلا، غيوردانو برونو، ماكيافيلي، هوبز، سبينوزا، ماركس، غرامشي ولوكاتش دليلاً على ما نقول. فقد عانوا جميعاً لأنهم تدخلوا في السياسة بنشاط.

والتحدي من هذه الناحية كبير جداً في أيامنا لأن السياسة نفسها تعاني أزمة عميقة. كانت السياسة تعرف بأنها "فن الممكن". غير أننا كذلك نسمع، بتكرار متزايد من عند حكماء السلطة، على اختلاف ألوانهم، بأن "ليس هناك بديل". كانت مرغريت تاتشر تردد ذلك ترديداً مقرفاً، ثم اقتفى غورباتشوف خطاها، حتى اضطرا إلى الاكتشاف أن بالإمكان، بل يجب أن يكون بديل لكليهما. ومهما يكن من أمر فإن الحكمة القائلة بأن "ليس هناك بديل" وإصرارها على أن "فن الممكن" إنما يعني "استحالة الممكن" هي إدانة لسيرورة صنع القرار في أيامنا. إن الفلسفة معنية بقضية تحرر الإنسان، ولذلك عليها أن تتحدى الحكمة السائدة النابعة من تقلص الهوامش التي يبيحها رأس المال حتى لإدخال تحسينات مهما كانت طفيفة. والواقع أن رأس المال بات يتراجع حتى عن تحسينات سابقة، والهجوم على رعاية شاهد على هذا التراجع. لذلك ربما صار دور الفلسفة أقوى اليوم منه في أي وقت مضى.

■ نجدك تتحدث عن "اشتراكية أم بربرية" حديثاً سبقك إليه كاستورياديس، ولكن في حقبة اتسمت بالاندفاع. أما في أوربا يحكمها الديمقراطيون الاجتماعيون (أي الاشتراكيين – الديمقراطيين – ث ج) ودعوتهم إلى "طريق ثالث" في حقبة العولمة، فهل ترى للحركات الجماهيرية الكبرى فرصة للازدهار من جديد؟

■■ صحيح أن كاستورياديس وليوتار وآخرين كانوا ذات يوم يصدرون مجلة اسمها (Socialisme ou barbarie) أي اشتراكية أم بربرية – ث ج). لكنهم للأسف تخلوا نهائياً عن ذلك المشروع، وهادنوا النظام القائم، ثم أخذوا يبشرون بنظريات يهمها البرهنة على أن لا سبيل إلى الإفلات من هذا النظام.

إن استخدامي لشعار روزا لكسمبرغ "اشتراكية أم بربرية" يختلف كثيراً. فقد كان تحذيرها ذا طابع آني غير محدد. أما في أيامنا فإن البديل، الذي صاغه ماركس عام ١٨٤٥، قد بات حقاً ذا طابع دراماتي ملح، خلافاً لزمن لكسمبرغ.

فإذا نظرنا إلى الاتجاهات الحالية لتطور العالم، متجسدة بظواهر واضحة، قد نجد أننا مطالبون بالعمل لوقف فعلها التدميري خلال العقود القليلة القادمة، ولا يمكن بالتأكيد الانتظار

لقرون من الزمن. لقد كان الاقتصادي الليبرالي الكبير، شومبيتر، يعتبر الرأسمالية أمثل نظام لأن تدميريته منتجة. وبوجه عام، كان وصفه صائباً حين كان رأس المال في مرحلة الصعود. أما اليوم، فبتنا في مرحلة حل فيها محل "التدمير المنتج" إنتاج التدمير على نطاق مرعب.

تسألني إن كان للحركات الجماهيرية الكبرى فرصة للازدهار من جديد في زمن العولمة وتحت ظل "الطريق الثالث" للديمقراطيين الاجتماعيين في أوربا. أرى أن هذا "الطريق الثالث" ليس إلا أوهام الأماني للحفاظ على نظام لا يمكن تبريره. لقد عكف سوسيولوجيون، مثل ماكس شيلر، طيلة حوالي قرن على التنبؤ باندماج الطبقات في "طبقة وسطى" سعيدة، وقد يتساءل المرء: وسطى بين أي شيء؟ فالاستقطاب الاجتماعي بات في واقعنا الراهن أشد منه في أي زمن قبله، مما يدحض توقعات الديمقراطيين الاجتماعيين بزوال اللامساواة؛ أو على الأقل تقليصها كثيراً، عن طريق "الضريبة التصاعدية". وها نحن نرى عكس ذلك تماماً. وإليك مثالين اثنين فقط لم يمض عليهما وقت طويل.

الأول، حسب وثائق "مكتب الميزانية" في الكونغرس الأمريكي (وهو أبعد ما يكون عن "مبالغات اليساريين" بكل تأكيد) كان مجموع دخل ١% من السكان في القمة مساوياً لمجموع دخل مئة مليون شخص في أسفل الهرم (ونسبتهم حوالي ٤٠% من سكان أمريكا). أما قبل ذلك بعشرين سنة فكان دخل ١% من السكان مساوياً لدخل ٤٩% "فقط" من السكان. فيا له من اتجاه نحو "المساواة" و"اندماج بين الطبقات"!

أما المثال الثاني فمن إنكلترا حيث ازداد الفقر بين الأطفال بنسبة ٣٠٠% خلال العشرين سنة الماضية، واستمر على الزيادة خلال السنتين ونصف السنة من حكم "حزب العمال الجديد". فحكومة "حزب العمال الجديد" داعية متحمسة للطريق الثالث فيما تطبق إجراءات لا تخدم العمال، وتمارس سياسة لم تجرؤ حكومة تاتشر على تطبيقها، مثل تقليص رعاية الدولة، ربما في ذلك رعايتها لمعيشة المعوقين. فمن السخف الاعتقاد أن هذا يمكن أن يستمر إلى الأبد.

لذلك كله فجوابي عن سؤالك هو أن للحركات الراديكالية مستقبلاً، لا في إنكلترا فقط، بل في بقية أنحاء العالم. بكلمة أخرى، أرى أن الإنسانية لا مستقبل لها، إلا إذا كان لمثل هذه الحركات مستقبل. فإذا أردت تعديل الشعار "اشتراكية أم بربرية" الذي رفعته روزا لكسمبرغ، وفقاً للمخاطر التي تتهددنا، فإني أضيف إليه كلمات ثلاثاً ليصبح: "اشتراكية أم بربرية إذا حالفنا الحظ"، أي أن فناء البشر في نهاية المطاف سينجم عن استمرار الدمار الذي يحدثه رأس المال. وحينذاك لا يكون العالم صالحاً إلا لحياة الصراصير، إذ يقال إن بوسعها تحمل الإشعاع النووي العالي الذي يفتك بالإنسان وغيره.

■ ما رأيك بالعولمة الثقافية؟

■■ "العولمة الثقافية" لا بد أن ترافق العولمة الاقتصادية – الاجتماعية والسياسية، وهي تخضع للتناقضات ذاتها. فنظام الرأسمال تراتبي كلياً، أعضاؤه الأضعف هم الذين يتلقون سلبياته

دوماً. ويخضع "نظام الرقابة" إلى علاقات القوى الاقتصادية – الاجتماعية والسياسية السائدة. وهكذا لا تنفصل العولمة الثقافية عن التضاد في الإمبريالية المعاصرة. فالإمبريالية الأقوى هي الأمريكية، التي تفعل كل ما تستطيع كي تفرض على بقية العالم هيمنتها الثقافية، طبعاً باسم "الديمقراطية" و"حرية تداول" منتجات الثقافة. وعلاقات القوى الكامنة في الوسائل المادية "لحرية التداول الثقافي" تظل خافية عن الأنظار: فهي تتراوح بين شبكات توزيع الأفلام (وهي تلقم الناس جميعاً حتى منتجات هوليوود من الدرجة العاشرة) وإمبراطوريات الإعلام العملاقة، والأقمار الصناعية والاتصالات التلفونية والمؤسسات التي تتولى حماية "حقوق الملكية الفكرية" الأمريكية.

عام ١٩٥٧ وصف بول باران الدول الاستعمارية السابقة بأنها "شريكات صغيرات للإمبريالية الأمريكية". وما زال هذا التوصيف صحيحاً في مجال "العولمة الثقافية"، إذ تحاول "الشريكات الصغيرات" بدورهن فرض مصالحهن الثقافية على البلدان الأصغر، وذلك بمقدار ما يناسب دورهن الثانوي كشريكات صغيرات فعلاً لأمريكا.

كل ذلك يولد، بطبيعة الحال، نفوراً شديداً لدى ضحايا المصالح الثقافية. ولا بد أن تنشأ في المستقبل نزاعات هامة ويتصاعد الدفاع عن المصالح الثقافية الوطنية المشروعة ضد تجاوزات الدول الأخرى على هذه المصالح. ويرجح أن تكون هذه السيرورة أليمة جداً، وذلك لأن ميزان القوى هو لصالح الدول المسيطرة اقتصادياً وسياسياً.

■ **هل ترى في "الدولة الوطنية" طاقة يركن لها في مواجهة العولمة؟ وهل تقبل بمصطلح "التطهير العرقي" بالنسبة لصرب كوسوفو؟**

■■ اللجوء إلى "الدولة الوطنية" هرباً من مياه العولمة المائجة لا يمثل بالتأكيد حلاً مقنعاً بما فيه الكفاية. فحديثنا يدور حول سيرورة مكتظة بالتناقضات. ليست "الدول الوطنية" خارج نطاق العولمة بل هي جزء لا يتجزأ منها. فكما لا نستطيع الإفلات من السياسة فإن الدول الوطنية لا تستطيع الإفلات من العولمة. إنها، شاءت أم أبت، تساهم في العولمة بما يتناسب مع وزنها النسبي في هيمنة رأس المال على العالم.

من المهم أن نتذكر هنا أن الدولة الوطنية هي في الواقع البنية السياسية الأشمل لسيطرة رأس المال. فليس هناك دولة عالمية للنظام الرأسمالي بحد ذاته، بل هناك دول عديدة مهما بلغ كل منها من قوة أو ضعف. وهذا تناقض هائل يتفاقم في زماننا، بوجه خاص. ولا يمكن التغلب على هذا التناقض، رغم أن العولمة المتعدية الجنسيات تنشأ من منطق رأس المال الذي لا كابح له، ولذلك لا يمكن زواله إلا بزوال الرأسمالية. وعواقب هذا الوضع باهظة جداً. فقد شهدنا حربين عالميتين لأن دولة وطنية كبرى حاولت الهيمنة على الدول الأخرى. واليوم، إذ العولمة ماضية على قدم وساق، يواجه البشرية خطر أعظم جراء سعي دولة أعظم بكثير من ألمانيا المعتدية إلى أن تفرض على كل الدول الأخرى قومانيتها الإيجابية، حسب تعبير الوزير الأمريكي ستروب تالبوت. فهنا أيضاً نواجه تعارضاً بين الرأسمال الذي يتعولم والدولة الوطنية، وهو تعارض لا حل له سوى في بديل اشتراكي حقاً. وفي غضون ذلك يتفاقم التعارض.

أما بشأن "التطهير العرقي" فهو تعبير عن ممارسة رهيبة تعكس تعذر مزمن لحل النزاعات بين الأعراق والدول في ظل تحكم رأس المال. وهذا لا يقتصر على كوسوفو. ينبغي أن نتذكر "التطهير العرقي" لحوالي ٢٧٠ ألف صربي من كرايينا بإشراف أمريكا. وها هم الصرب قد جرى "تطهيرهم" إلى حد كبير في كوسوفو نفسها، فعددهم قد يبلغ ٢٠٠ ألف.

كل هذه المشاكل بحاجة صارخة إلي حل على أساس مساواة حقيقية بين الأفراد والجماعات. لكن المساواة الحقيقية لا تنسجم بنيوياً مع نمط السيطرة الاجتماعية التي يفرضها رأس المال.

■ ما رأيك في سياسة الأمم المتحدة بشأن حقوق الإنسان؟

■■ سجل الأمم المتحدة بشأن حقوق الإنسان يدعو للحزن، وهذا أمر مفهوم لكنه غير مبرر أبداً. ويعود ذلك إلى خضوع الأمم المتحدة لهيمنة أمريكا المسؤولة عن انتهاكات لا حصر لها لحقوق الإنسان في العالم كله. حسبنا هنا ذكر سجلها الطويل في الانتهاكات الفظة لحقوق الإنسان في الفيلبين بتنصيب الدكتاتور ماركوس رئيساً للبلاد، واجتياح غواتيمالا وجمهورية الدومنيكان وغرينادا وحرب الفيتنام وتنصيب سوهارتو على أندونيسيا في سياق ثورة الردة المدعومة من أمريكا، وتنصيب الدكتاتوريات في أمريكا اللاتينية (بما في ذلك بينوشيت في تشيلي) وفي أفريقيا والشرق الأوسط واليونان، وهلم جراً. مع ذلك يحلو للأمم المتحدة والدول الغربية تبرير عملياتها العسكرية في البلقان باسم حقوق الإنسان، وهي التي لم تحرك إصبعاً لكبح ناهيك عن وقف تلك الانتهاكات. وهذه الأيام يعترف بعض قادة أمريكا دون خجل بأنهم استغلوا معاهدة هلسنكي بشأن حقوق الإنسان كسلاح ملائم ضد الاتحاد السوفيتي.

وكما استخدموا "الورقة الصينية" في عهد نيكسون وكيسنجر ضد الاتحاد السوفيتي، فإنهم استخدموا "الورقة الروسية" ضد الصين في حرب فيتنام. فلسياسات القوى العظمى مكارون يرتدون مسوح الحرص، الانتقائي للغاية، على حقوق الإنسان. وهكذا فإن "الديمقراطيات الغربية" (كما يحلو لها أن تسمى) لم تفعل أي شيء للانتهاكات الوحشية لحقوق الإنسان، المقاربة للتطهير العرقي، التي تعرض لها أكراد تركيا أو حين إبادة حوالي مليون إنسان في رواندا، مع ذلك فإنها ظلت بعض الوقت تبرر حرب الكوسوفو، مثلاً، تبريراً طناناً باسم حقوق الإنسان. وهناك شكل آخر للانتهاك الفظ لحقوق الإنسان يتجسد في موت زهاء مئات الألوف من أطفال العراق نتيجة للعقوبات التي تبقيها أمريكا، بمصادقة الأمم المتحدة والإذعان التام لحليفات أمريكا. فلا يمكن اعتبار الأمم المتحدة مدافعاً جاداً عن حقوق الإنسان ما دامت العلاقات الفعلية للقوى في السياسة العالمية تجعل حقوق الإنسان مسخرة من المساخر.

■ ما دور أمريكا في الأوضاع الجديدة؟ وما رأيك بشأن مستقبل أوربا؟

■■ بعد انهيار النظام السوفيتي تحققت لأمريكا الهيمنة على العالم، باعتبارها القوة العسكرية العظمى الوحيدة. فلها قواعد عسكرية في ٦٩ بلداً، وهي تسيطر سيطرة كاملة على الحلف

الأطلسي، الذي أعاد مؤتمر قمته تعريف مهامه فأضفى المشروعية على وجهتها العدوانية. كما تسيطر أمريكا على أحلاف جنوب شرق آسيا، لا سيما معاهدة الأمن مع اليابان التي أعيد النظر مؤخراً في أغراضها لتصبح معاهدة هجومية إذا لزم الأمر، مما يشكل خرقاً فاضحاً لدستور اليابان الذي يرفض الحرب. لكن هذا الوضع لا يمكن، طبعاً، اعتباره راسخاً. فالسيطرة الأمريكية تنطوي على عدة تناقضات متفجرة. وأكثر جوانب هذه التناقضات الموضوعية هي المجابهة مع الصين. فالاقتصاديون الليبراليون يتوقعون حالياً أن الاقتصاد الصيني سيغدو بحلول عام ٢٠٢٠ ثلاثة أمثال الاقتصاد الأمريكي من حيث الحجم. وإزاء ذلك الأفق ازداد "اللوبي الصيني" نشاطاً عما كان في أية فترة، وهو يضم الأدميرال (يوجين كارول) رئيس "مركز معلومات الدفاع"، كمؤسسة مستقلة للدراسات. فهو يقول "يجري عندنا إضفاء صورة الغول على الصين بهدف إظهارها مثابة الخطر الأصفر". كما يدور كلام كثير حول ضرورة توجيه "ضربة وقائية" للصين.

في الوقت نفسه يجب ألا ننسى، رغم كل المظاهر، ما بين أمريكا وأوربا من صراع في المصالح. ولا بد أن يتفاقم هذا مستقبلاً، حتى لو استطاعت أمريكا أن تبقي هيمنتها على أوربا في المستقبل القريب. وثمة في أوربا نفسها تناقضات تتجلى بأوضح صورة في محاولة حزب المحافظين البريطاني نسف الاتحاد الأوربي بصفته كياناً سياسياً مع الإبقاء على سوق أوربية مشتركة فقط، وهذه سياسة تستقطب تأييد الأكثرية في إنكلترا، الأمر الذي يتجلى في انتصار حزب المحافظين في الانتخابات الأخيرة لمندوبي بريطانيا في البرلمان الأوربي الموحد. مع ذلك لن تفلح محاولات نسف الاتحاد الأوربي، رغم أن الضغط سيتصاعد من أجل ذلك، ولن يقتصر هذا التصاعد على بريطانيا. وهنا أيضاً يواجهنا تناقض نموذجي في النظام، فالبلدان لا تستطيع المضي إلى أمام إن هي بقيت وحدها، كما أن من غير الممكن اندماج الدول الأعضاء في الاتحاد اندماجاً، تعاونياً أو فدرالياً، يخلو من الاضطراب. إن المخرج من هذا التناقض يتطلب إقامة العلاقات بين البلدان على أسس لا تسمح بها القيود التي يفرضها نظام رأس المال.

■ ختاماً، لقد انتهت "السرديات الكبرى" حسب تعبير ليوتار. فهل تلاشت الرؤى الكبرى نحو عالم أفضل؟

■■ إن خطاب ليوتار بشأن "السرديات الكبرى" وبشأن "السرديات الصغرى" يقتضي أكثر مفكرين محافظين ظلوا ردحاً طويلاً من الزمن يصرون على أن الطريقة السليمة والوحيدة للتغيير هي "قليلاً فقليلا ". وبذلك عثر ليوتار على سبيله لمهادنة النظام القائم، بعد أن أدار ظهره إلى ماضيه الداعي إلى "اشتراكية أم بربرية". وإن ألقينا نظرة انتقادية إلى هذه الطروحات، سنجدها تدحض نفسها بنفسها. فبدون ستراتيجية شاملة تضخ فيها "السرديات الصغرى" لا يمكن أبداً ضمان أن ينجم عن تراكم "القليل فالقليل" أي تحسن مهما قل، بل قد تنجم عنه كارثة خطيرة. فقد حاول ليوتار أن يستخلص سبيلاً إلى التغيير من خلال كومبيوتر بلدية بلدة Yverdon الفرنسية على افتراض أن يسجل بواسطته آراء واهتمامات سكان البلدة. ولا داعي للقول إن هذا الكومبيوتر البارع لا يمكن أن يغير أدنى تغيير حياة الناس في تلك البلدة، ناهيك عن فرنسا برمتها. فحتى إذا

استحدثنا طريقة مثلى لتسجيل الآراء في منطقة واحدة، فإن ذلك لا يعني شيئا من حيث صنع القرارات حتى في نطاق تلك المنطقة، ناهيك عن ارتباط ذلك باتخاذ القرارات على نطاق فرنسا ككل، فضلا عما تخضع له فرنسا ذاتها من ارتباطات خارجية، في صنع القرار وطنيا. وهي ارتباطات تتزايد اليوم في "عصر العولمة".

وعليه تدعو الحاجة المتزايدة إلى استراتيجيات شاملة تتوسل نماذج للعمل المحدد قابلة للحياة على مختلف المستويات، ابتداء من جزئيا سيرورة إعادة إنتاج المجتمع إلى قمة التبادل على الصعيدين الوطني والعالمي. وهناك أمر آخر لا بد من التأكيد عليه هنا: فإذ ينبغي أن نظل يقظين إزاء المخاطر العظمى التي تلوح في الأفق، ومقاومتها بكل ما في وسعنا من وسائل، فإن المقاومة وحدها لا تكفي، بل تدعو حاجة مماثلة إلى بلورة البديل الإيجابي بأكثر ما يمكن من تفصيل. فالتحديد الإيجابي لهدف الفعل الاجتماعي، له تأثير مصيري على إمكانية النجاح في بلوغه. حسبنا أن نتعظ بالدروس الواضحة لانهيار ما سمي "الاشتراكية القائمة فعلا " التي ظلت طوال عهدها حبيسة المحددات السلبية. فلهذا السبب أيضا ما زالت "رؤى العالم الأفضل" باقية في الجدول التاريخي لعملنا هذا اليوم.

■ **ماذا يعني "اليسار" حاليا وفي المستقبل؟**

■■ لقد اتخذ "اليسار" معناه بفعل مصادفة تاريخية: فالإنكليز مثلا يلتزمون الجانب الأيسر في السياقة، والتزامه في اتجاهي السير ضروري لانتظام المرور وسرعته، بدل الفوضى التامة التي سرعان ما تسود إذا ساق كل فرد حسبما يريد. إن الذين يزعمون أن أي فرق هام لم يبق بين "اليسار" و"اليمين" إنما يريدون أن يدخلوا في روعنا أن ليس من فرق بين السياقة على الجهتين اليسرى واليمنى في إنكلترا.

فاليسار، أو جزء منه إذا توخينا الدقة، ما زال باقيا رغم المزاعم، التي تولدها مصالح كبرى بأن "اليمين الراديكالي" لتيار اللبرالية الجديدة يمثل الحل الناجع. لقد عانى اليسار انتكاسات كبيرة في الأونة الأخيرة، لكنه ظل شوكة في لحم النظام القائم. أثناء المؤتمر السنوي "لحزب العمال الجديد" في بريطانيا، وهو بريء من تهمة اليسار، رغم بقاء العديد منا أعضاء مهمشين تماما في الحزب، أعلن زعيمه توني بلير أنه سيحارب "الميول المحافظة عند اليمين واليسار" وهو يقصد اليسار وحده، وقد أخفقت قيادة الحزب في القضاء عليه قضاء مبرما. واليسار السياسي أوسع، طبعا، مما نجد في الأحزاب الاجتماعية الديمقراطية. فاليوم أيضا يعنى اليسار بمشاريع لبديل ما هو قائم. لكن تبعثره وانشقاقاته تمثل عقبة رئيسية أمام تأثيره على السيرورة السياسية.

أما بالنسبة للمستقبل، فإن للأزمة البنيوية المتعمقة في نظام رأس المال أن تجابه اليسار بتحد تاريخي عظيم: أي صياغة وتنفيذ ستراتيجية شاملة يمكن أن تخرجنا من مأزق الاتجاهات التدميرية لتطور نظامنا الاجتماعي. وبوسعنا التأكيد بثقة تامة أن اليمين بمختلف ألوانه، الموجودة والمحتملة، لن يطرح علينا مثل هذه الستراتيجية.

خطاب الرأسمالية الليبرالية وأزمة الفكر الاشتراكي

لطفي حاتم

أثار انهيار ازدواجية خيار التطور الاجتماعي، وسيادة وحدانية التطور الرأسمالي الكثير من الإشكالات الفكرية – السياسية – التنظيمية للأحزاب الشيوعية واليسارية الراغبة في بناء عالم تسوده الحرية والعدالة الاجتماعية وموازنة المصالح الدولية.

إن الإشكالات الفكرية – السياسية التي تواجه اليسار الماركسي تتبدى في التعقيدات التي تتسع دائرتها يوماً بعد آخر بسبب الهجوم الإيديولوجي المرافق للمرحلة الجديدة من تطور الرأسمالية المعولمة من جهة، وغياب المنظومة الفكرية المضادة التي يتحرك في إطارها نضال اليسار الماركسي من جهة أخرى.

ورغم محاولات الكثير من المفكرين الماركسيين الهادفة إلى تفسير وترصين التطورات الدولية الجديدة على قاعدة فكرية معللة، إلا أن تداخل وتشابك العلاقات الدولية/ الوطنية وما نتجة عنها من تحالفات اجتماعية دولية جديدة وغياب ملامح بناء المستقبل الاشتراكي تشترط مواصلة البحث والتجديد وصولاً إلى تحديد وبناء الآليات القادرة على مواجهة الطور الجديد من التوسع الرأسمالي.

من جانبي أحاول متابعة وتحليل بعض الموضوعات الفكرية – السياسية (لليسار الجديد) أولاً. والسعي إلى تفكيك وتحليل المضامين الحقيقية لخطاب الرأسمالية الليبرالية ثانياً.

تفكك الأممية الثالثة وانحسار الفكر الاشتراكي

أدى انهيار دول الاشتراكية الفعلية إلى تفكك المنظومة الفكرية للأممية الثالثة وما أنتجه ذلك من اختلالات عميقة في سياسة الأحزاب الماركسية والشيوعية. ولغرض رصد تلك التأثيرات نتوقف عند الموضوعات الفكرية التي شكلت المرتكزات الأساسية لبناء الأممية الثالثة والتي

أصبحت تمثل مرحلة تاريخية كبيرة من مراحل تطور الفكر الإنساني الهادف إلى تحقيق الحرية والعدالة الاجتماعية والتي يمكن تأشيرها بـ:

– أدى تفكك موضوعة الروافد الثلاثة للحركة الثورية العالمية (بمعنى التلاحم الفكري – السياسي) بين الدول الاشتراكية والطبقة العاملة الأوربية، وحركة التحرر الوطني العالمية إلى تراجع سياسة التضامن الأممي والعودة إلى انكفاءات وطنية، وترابطات قومية.

– أفضى تفكك المنظومة الفكرية التي أنتجتها الأممية الثالثة والتي تطورت مضامينها في خضم الصراعات مع الإمبريالية مثل – الاستقلال والتحرر الوطني، التنمية الوطنية المستقلة، حرية الشعوب في تقرير مصيرها، حرية خيار التطور الاجتماعي... الخ – إلى تصدعات عميقة في البناء الفكري والسياسي للأحزاب الشيوعية والتي يمكن رؤيتها بانهيار منظومة كاملة من الأفكار والبرامج بدأ بانهيار مفهوم الثورة الوطنية – الديمقراطية وما رافقه من تفكك برامج الحد الأدنى والحد الأعلى للثورة وما تبعه من ضياع مفاهيم المرحلة الانتقالية، وديكتاتورية الطبقة العاملة، وقيادة الحزب للدولة والمجتمع باعتباره (ملهماً ومنظماً). وتزداد اللوحة تعقيداً إذا أضفنا إليها التشوش النظري الذي يعرقل بناء السياسة الوطنية للحزب الثوري.

– إن التأثيرات الفكرية – السياسية التي أفرزها الانهيار الكبير ألقت بظلالها الكئيبة على الحركة الشيوعية العالمية، حيث أنتجت تلك الأزمة تيارين كبيرين في الحركة الشيوعية يمكن تحديدها بـ:

أولاً: تيار يتمثل بانتقال الأحزاب الشيوعية في بلدان الاشتراكية المهزومة إلى مواقع الاشتراكية الديمقراطية، حيث اقترن التحول الجديد بتبني موضوعات فكرية مثل – الديمقراطية، التداول السلمي للسلطة، حقوق الإنسان – متخلياً بذلك عن موضوعات ماركسية – لينينية بشأن الثورة الاشتراكية، وأهمية استلام السلطة واحتكارها والكثير من الموضوعات المتعلقة بالبناء الاشتراكي. وفي هذا الاتجاه لا بد من الإشارة إلى أن البرامج الوطنية لهذا التيار تدعو إلى الدفاع عن المصالح الوطنية لبلادها والحفاظ على المنجزات الاجتماعية التي حققتها الاشتراكية وتحاول بعض الأحزاب الشيوعية إنتاج إيديولوجيا وطنية تكون أساساً لتطور بلادها[1].

إن التحول المشار إليه اقترن بظاهرة أخرى تجسدت في انتقال أحزاب الاشتراكية الديمقراطية في الاتحاد الأوربي إلى مواقع الرأسمالية اللبرالية متخلية بذلك عن الكثير من إنجازاتها الوطنية – الاجتماعية.

ثانياً: تيار يمكن تسميته بتيار المحافظين (الذي لا زال) يتجاهل التغيرات الجديدة المتسمة بتدويل علاقات الإنتاج الرأسمالية واحتكار القوة العسكرية ويصر على اعتماد التراث السياسي والبناء النظري للأممية الثالثة.

إن الانقسام الكبير في الحركة الشيوعية في الظروف التاريخية الملموسة والذي فرضته عمليات انتقال الرأسمالية من مرحلتها الاحتكارية إلى الطور الجديد من التوسع الرأسمالي المتسم

بوحدانية وعولمة علاقات الإنتاج الرأسمالية يتماثل في العديد من موضوعاته الفكرية (الديمقراطية، سلمية التناقضات، التعددية) مع الموضوعات الفكرية والسياسية التي طرحتها الاشتراكية الديمقراطية الألمانية في الأممية الثانية إبان انتقال الرأسمالية من مرحلة المنافسة الحرة إلى مرحلتها الاحتكارية.

إن الإشارة إلى النتائج الفكرية - السياسية التي أفرزها الانهيار الكبير تكتمل عند فحص تأثيراتها على الأحزاب اليسارية والشيوعية في البلدان العربية. فمن المفيد التذكير إلى أن الحركة الاشتراكية في البلدان العربية نشأت وتطورت بفعل مصادر فكرية - سياسية خارجية وتفاعلات وطنية يتصدرها:

١ - الشحنة الثورية والإنسانية المعادية للهيمنة الإمبريالية التي فجرتها ثورة أكتوبر الاشتراكية.

٢ - المضامين الاجتماعية والتوازنات القومية التي ارتكز عليها البناء الجديد للدولة السوفيتية.

٣ - تعرف العديد من المثقفين العرب على الفكر الماركسي الذي اغتنى لاحقاً بالموضوعات اللينينية والتجربة البلشفية.

٤ - ترابط التأثيرات الخارجية المشار إليها مع تفاعلات وطنية - سياسية - اقتصادية وطموحات شعبية ترمي إلى تحقيق حياة إنسانية لائقة للمواطن العربي. وقد تعززت هذه الطموحات الإنسانية العامة على قاعدة النضال الوطني المضاد للهيمنة الرأسمالية وما حملته من إلحاق وإفقار وتهميش للقوى الطبقية الحاملة للتطور الاجتماعي وقتذاك.

إن التأكيد على التأثيرات الفكرية - السياسية الخارجية على مراحل النشأة والتكوين لليسار الاشتراكي لا يتطابق كلياً والموضوعة القائلة بأن ظهور الأحزاب الشيوعية جاء نتيجة لعوامل موضوعية يتصدرها ظهور الحامل الاجتماعي للفكر الاشتراكي ممثلاً بالطبقة العاملة في البلدان العربية.

واستناداً إلى حداثة وضعف (الكتلة التاريخية) الحاملة للفكر الاشتراكي نحاول التعرف على سمات المنظومة الفكرية - السياسية التي تحركت في إطارها الأحزاب الثورية العربية مؤشرين في الوقت ذاته إلى موضوعاتها الخارجية.

- ركّزت الأحزاب الماركسية في برامجها الوطنية على قيام سلطة الطبقة العاملة وتحقيق الأهداف الاستراتيجية الكبرى متحصنة ببرنامج الحدين الأدنى والأعلى الذي حددت إطاراته السياسية والتنظيمية التجربة البلشفية.

- قادت الموضوعات الفكرية والمفاهيم السياسية الخاصة بالثورة الوطنية - الديمقراطية إلى عزل اليسار الشيوعي وحصره في صناديق نظرية أدت إلى انحسار تأثيراته الفعلية في الحياة الاجتماعية والسياسية خاصة في الطور الثاني من حركة التحرر الوطني العربية.

– لم يتمكن العديد من الأحزاب الشيوعية العربية من صياغة أدوات فكرية ومفاهيم نظرية تستجيب لطبيعة التشكيلات الوطنية وتحديد سير، تطور القوى الاجتماعية الفاعلة فيها ورصد تفاعلاتها في الظروف التاريخية الملموسة، وما ترتب على ذلك من عزل للنضال السياسي عن النشاط الفكري.

– تمحور النشاط الفكري للعديد من الكتّاب الماركسيين حول مسائل البناء الاشتراكي وتأكيد الموضوعات الفكرية السائدة له. وقد ارتكزت الاجتهادات النظرية التي قام بها عدد من الباحثين على استخدام المنهج الماركسي في دراسة التاريخ العربي دون أن يؤدي ذلك إلى مستوى دراسة آفاق تطور التشكيلة الوطنية المعاصرة وموقعها في شبكة العلاقات الدولية.

وباختصار، يمكن القول إن كفاح الأحزاب الشيوعية واليسارية كان (كفاحاً) وطنياً – ديمقراطياً ساهم في صياغة الإنجازات السياسية – الاقتصادية في المرحلة الأولى من حركة التحرر الوطني العربية، إلا أن تأثيرات القوى الفعلية الاجتماعية – الفكرية المحركة لذلك النضال انحسرت لأسباب عديدة جرى استعراض بعضها بالإضافة إلى شراسة الإرهاب السلطوي (الممارس) ضد اليسار الماركسي.

اليسار الجديد وسماته الفكرية

بعد هذا الاستعراض السريع لتأثيرات الانهيار الكبير على الحركة الاشتراكية واليسارية يواجهنا السؤال التالي: ما هي السمات الفعلية لخطاب التيار الجديد في الحركة الشيوعية؟[٢].

إن الإجابة على التساؤل المذكور تتحدد على ضوء معرفة المنهج النظري الذي يؤطر التحليلات الفكرية – السياسية لهذا التيار والذي تتحدد سماته المنهجية بالتالي:

– انحسار التحليل الاجتماعي المرتكز على صراع المصالح في التشكيلة الوطنية، وغياب التحديد الواضح لطبيعة القوى الاجتماعية الجديدة الماسكة بالسلطة السياسية. وتتضاعف التأثيرات السلبية لهذا الضعف في التحليل في بلداننا العربية التي تشهد نمو وتطور طبقات كمبرادورية جديدة ذات نزعات كسموبوليتية.

– غياب التحليل الماركسي النقدي لطبيعة الطور الجديد من التوسع الرأسمالي، فضلاً عن الأخذ بالعديد من المفاهيم النظرية التي تروج لها الرأسمالية الليبرالية دون صياغة بدائل فكرية مناهضة ترتكز على صيانة المصالح الأساسية لشعوب الدول الوطنية.

– تحول السياسة إلى نهج براغماتي وإخضاعها لمتطلبات اللحظة الراهنة ناهيك عن تغليب الشعار السياسي على التحليل الاستراتيجي[٣].

ويهدف تزكية الملاحظات النقدية المارة الذكر نحاول تحليل موضوعة التداول السلمي للسلطة وهي إحدى الموضوعات المتداولة في الخطاب السياسي للتيار الجديد في الحركة الشيوعية، وفحصها بمنهجية ماركسية للتعرف على ملامح الهوية الفكرية لليسار الجديد.

إن مفهوم التداول السلمي للسلطة السياسية يرتبط بمحددات فكرية – سياسية تتجلى بـ:

– الإقرار بوحدانية التطور الرأسمالي الراهن وما يفرضه ذلك من إدماج البلاد في شبكة العلاقات الرأسمالية الدولية، وهنا نشير إلى أن اليسار الجديد لم يحدد حتى اللحظة الراهنة مفهومه لطبيعة دولة العدالة الاجتماعية المنوي تحقيقها في حال استلامه السلطة السياسية.

– تتحدد المواقع السياسية للطبقات والفئات الاجتماعية من السلطة السياسية على ضوء الشرعية الانتخابية.

– سلمية الصراعات الاجتماعية، واستبعاد العنف في حل الخلافات السياسية والتناقضات الاجتماعية.

إن التحليل المشار إليه لمفهوم التداول السلمي للسلطة السياسية يؤدي بالضرورة إلى الأخذ بمفاهيم جديدة تتعارض وموضوعات أساسية في الفكر الماركسي ومنها:

أولاً: الإقرار بالتعددية الطبقية والعمل في إطار الشرعية البرجوازية. وهذا الواقع يشترط التخلي عن موضوعات نظرية مثل المرحلة الانتقالية وبنائها الفكري – السياسي حيث أن مآل التناقضات الطبقية لا يؤدي إلى نفي طبقة اجتماعية واستبدالها بأخرى. بكلام آخر إن الصراعات الاجتماعية تشترط الوحدة والتعارض وتستبعد التناقضات التناحرية.

ثانياً: استبعاد الثورة الاشتراكية وتكتيكها العنفي واستبدالها بالتغيرات الاجتماعية التدريجية المشروطة بأشكال مشروعة لحل الصراعات الاجتماعية.

بعد تحليلنا لإحدى الموضوعات المركزية في الفكر السياسي للعديد من الأحزاب الشيوعية يواجهنا السؤال التالي: هل بقي الحزب الثوري بمواصفاته اللينينية محتفظاً بطابعه كهيئة أركان للطبقة العاملة؟

إن الإجابة تتطلب الوقوف عند بعض الموضوعات الضرورية بنظري ومنها:

١ – إن موضوعة الوصول للسلطة والاحتفاظ بها انطلاقاً من تداولها تشترط توسيع القاعدة الاجتماعية للحزب الثوري وذلك استناداً إلى تحليل طبيعة التوسع الرأسمالي ونتائجه المتمثلة بالإفقار والتهميش للعديد من الطبقات والشرائح الاجتماعية. بمعنى آخر إن الانقسامات الاجتماعية في الدول الوطنية تتطور على قاعدة الاستقطاب الرأسمالي، وما ينتج عنه من أكثرية شعبية معدمة وأقلية كمبرادورية مترفة.

إن توسيع القاعدة الاجتماعية للأحزاب الشيوعية تفضي إلى تمثيل مصالح هذه الكتل الشعبية ببرامج وطنية عامة وما يشترطه ذلك من ابتعاد عن البرامج الطبقية الضيقة التي حجمت الفعالية السياسية للأحزاب الثورية في حقبة المعسكرين.

٢ – تجديد الموقف من الدولة الوطنية والدفاع عنها باعتبارها الأداة الأساسية في الدفاع عن المصالح الوطنية والتصدي لعمليات التهميش المتمثل بتنامي ازدواجية الهيمنة الوطنية/ الدولية

على أنشطتها الاقتصادية – السياسية وتطوير مواقعها – الدولة – في العلاقات الدولية التي تتبلور اتجاهات تطورها انطلاقاً من توازنات مصالح الكتل الاقتصادية – السياسية المتنافسة.

٣ – إن الدفاع عن الدولة الوطنية وبناء سلطة ديمقراطية يشترط تجديد الفعاليات التنظيمية – السياسية الضامنة لمشاركة الكتل الاجتماعية في الكفاح السياسي – الاقتصادي المعادي لنهج احتكار السلطة ونهج التبعية والتغريب.

فبهذه المواصفات يبقى الحزب الثوري أداة تعبئة جماهيرية مدافعاً عن مصالح الطبقات والشرائح الاجتماعية الواسعة المتضررة من النهج الجديد للرأسمالية الليبرالية.

شعارات إنسانية / سياسة بربرية

إن الخروج من الأزمة البنيوية – الفكرية لأحزاب اليسار الماركسي التي أنتجها انهيار الأممية الثالثة تتطلب حسب تقديري البدء ببناء خطاب فكري نقدي شامل يتصدى للمفاهيم والأفكار التي تحاول الرأسمالية الليبرالية فرضها تمشياً مع المرحلة الجديدة من التوسع الرأسمالي، ويشكل الالتزام بالمنهج الماركسي الناقد العتبة الأساسية لبناء رؤية كفاحية قادرة على التصدي لوحشية رأس المال المعولم.

إن نقد خطاب الرأسمالية الليبرالية يتطلب تفكيك منظومته الفكرية – السياسية بدوائرها الثلاث والتي يمكن تحديدها بـ:

أولاً: الدائرة الاقتصادية

على الرغم من الإنجازات الكبيرة التي تحققت في تفكيك هذه الدائرة إلا أن الباحثين الماركسيين لم يتوصلوا إلى رؤية شاملة للقضايا المثارة لذلك لا بد من تعميق الرؤية حول هذه الدائرة ومفاهيمها – التجارة الحرة، حرية السوق، الوظيفة الاقتصادية للدولة، الخصخصة، وتأثيرات ذلك على الدول الوطنية وبناء نسيجها الاجتماعي، هذا فضلاً عن نقد المفاهيم المتعلقة بحرية حركة رأس المال وما ينتجه من تدخلات في تحديد اتجاهات تطور الاقتصادات الوطنية. وما يفرزه من أنشطة تجارية تساعد على نمو وتطور الشرائح الكمبرادورية الجديدة المعادية للمصالح الوطنية.

– إن التأثيرات المشار إليها تكتمل بنقد اشتراطات المؤسسات المالية الدولية وما تنتجه من إعادة بناء تبعية الدول الوطنية لمتطلبات المرحلة الجديدة من التوسع الرأسمالي، بدءاً من تخلي تلك الدول عن مكتسباتها الوطنية وانتهاء في التدخل في سير صراعاتها الداخلية.

إن نقد الدائرة الاقتصادية يترابط مع التأكيد على سياسة (الاعتماد المتبادل) والتي تستمد مشروعيتها من أن التنمية الوطنية المستقلة ونهج (فك الارتباط) لم تعد سياسات واقعية لذلك فإن

وحدانية التطور الرأسمالي وترابط أجزائه المتقدمة منها والمتخلفة تشترط خلق علاقات جديدة من التعاون والتوازن بديلة عن سياسة النهب والاحتكار.

– نجاح سياسة التعاون والتوازن تشترط التصدي لطبيعة التوسع الرأسمالي الذي يسعى إلى إعادة (الاعتماد المتبادل) ويدفع باتجاه تهميش الدول الوطنية وتشكيلاتها الاجتماعية انطلاقاً من التطور اللامتوازن الذي يفضي إلى استقطاب دولي بين أغلبية فقيرة تابعة ومراكز رأسمالية متقدمة.

– إن تطوير صيغة (الاعتماد المتبادل) تفترض النهوض بدور الدولة الوطنية باعتبارها ممثلاً لرعاية المصالح الوطنية والتوازنات الاجتماعية استناداً إلى وظيفتها الاقتصادية.

ثانياً: الدائرة السياسية

لقد طوّر رأس المال المعولم العديد من المنتجات الفكرية – السياسية أبرزها الديمقراطية وحقوق الإنسان وفي هذا الاتجاه وبهدف رسم سياسة وطنية متلازمة مع التطورات الدولية لا بد من تدقيق تلك المنتجات اعتماداً على التجربة الثرية التي راكمتها الحركة الثورية بما يخدم تطوير الكفاح المعادي لبربرية الطور الجديد من التوسع الرأسمالي.

من المفيد التأكيد على أن إيديولوجية الرأسمالية الليبرالية تتعمد الفصل بين الحقوق السياسية للإنسان ومثيلاتها الاجتماعية، ومن هذا المنطلق أود التركيز علي بعض الموضوعات منها:

– إن عالمية حقوق الإنسان تتطلب التركيز على الترابط بين السياسي – الاجتماعي فليس هناك ديمقراطية سياسية بدون حقوق وضمانات اجتماعية.

– إن الإنسان وحقوقه السياسية – الاجتماعية ليست قضايا نظرية تجريدية بل هي قضايا واقعية ملموسة. وبهذا التحديد فإن عالمية حقوق الإنسان تقود إلى تشخيص القوى الدولية المسؤولة عن عرقلة بناء الشروط المادية – السياسية الضامنة لتلك الحقوق.

– تتحدد مسؤولية المراكز الرأسمالية في إعاقة تطوير حقوق الإنسان الاجتماعية في البلدان المتخلفة في ثلاث حلقات مترابطة:

١ – ديون الدول النامية المتراكمة وخدمتها وشروط جدولتها والتي تشكّل أحد العوامل الأساسية في تحجيم الحقوق الاجتماعية للإنسان.

٢ – إنتاج وتصدير الأسلحة إلى بلدان العالم الثالث والذي يؤدي إلى استنزاف الثروات الوطنية ويحد من بناء المؤسسات الاقتصادية – الاجتماعية الضامنة لحقوق الإنسان في الإطار الوطني فضلاً عن إثارة التوترات والحروب الإقليمية.

٣ – سياسة الحصار الاقتصادي وما يجلبه من اعتداءات وحشية على الحقوق الأساسية للإنسان ورفض استبدال تلك السياسة بدبلوماسية العزل السياسي والدبلوماسي للأنظمة البوليسية المتعاقبة.

– إن تجديد الخطاب السياسي المعادي للرأسمالية الليبرالية يتطلب فضح الديمقراطية الشكلية التي يدعو إليها رأس المال والتي تتجسد اليوم في التدخل في النزاعات الداخلية للدول الوطنية بهدف التأثير في تلك الصراعات بما يخدم القوى (الوطنية) الحليفة للاحتكارات الدولية ومساندتها في كسب المعركة الداخلية لصالح توجهاتها الاقتصادية – السياسية.

ثالثاً: دائرة العلاقات الدولية

أفرزت الحقبة الجديدة من التوسع الرأسمالي العديد من المفاهيم والأفكار التي تشكل أدوات سياسية تساهم في صياغة العلاقات الدولية بما يتناسب ومصالح رأس المال في مرحلته التدويلية. وإذا توقفنا أمام تلك المفاهيم فسنرى أنها تتشكل من مستويين: مستوى يتمثل في إعادة صياغة المفاهيم التي أنتجتها مرحلة العسكريين (السيادة الوطنية – عدم التدخل في الشؤون الداخلية – منع استخدام القوة في النزاعات الدولية... الخ) ومستوى آخر لغرض تدقيق هذا الاستنتاج نحاول التعرض إلى عدد من هذه المفاهيم وفحص مضامينها الفعلية.

١ – المجتمع الدولي:

بدءاً نشير إلى أن خطاب الرأسمالية الليبرالية يتسم بالتجريد والغموض. ويخدم هذا التجريد الطبيعة اللاإنسانية للرأسمال في مختلف مراحل تطوره، ومن هنا نرى أن مفهوم المجتمع الدولي يحمل في طياته سمتين: سمة التفوق العنصري إذ يجري حصر المجتمع الدولي بالمراكز الرأسمالية ومصالحها ومجالاتها الحيوية. أما الثانية فتتمثل بسمة الإكراه الذي يجد تعبيره بضرورة التزام دول العالم بصيانة ورعاية تلك المصالح تحت شعار (الامتثال لإرادة المجتمع الدولي).

إن مفهوم المجتمع الدولي مفهوم متناقض ومتشظٍ ويحمل في طياته الصراع بين المصالح الدولية المختلفة وبهذا المعنى يمكن معارضة مفهوم المجتمع الدولي بمفهوم الأسرة الدولية الذي سبق وأن جرى تداوله في حقبة المعسكرين. حيث يعبر هذا المفهوم عن وحدة المصالح الإنسانية من جهة وسيادة روح التكافل والتعاون بين أعضائها استناداً إلى موازنة المصالح الوطنية/ الدولية من جهة أخرى.

٢ – الشرعية الدولية:

من المعروف أن مصطلح الشرعية الدولية قد أصبح شائعاً بعد حرب الخليج الثانية، وإذا استبعدنا التنظير الحقوقي للمصطلح المذكور وأحلنا تفسيره إلى حقل السياسة فإنه لا يتعدى التعبير المكثف عن رفع المصالح الاقتصادية – والسياسية للدول الإمبريالية إلى مصاف القانون الدولي والدفاع عن تلك المصالح بصورة مشتركة. ومن هذا التفسير سرعان ما ينتصب السؤال التالي: هل يتماشى مفهوم الشرعية الدولية مع تعزيز مواقع الدول الوطنية باعتبارها أدوات فاعلة في العلاقات الدولية؟

إن الإجابة يمكن تحديدها عند تعرضنا لبعض الظواهر الجديدة في العلاقات الدولية والمتمثلة بـ:

أ – تجميد القرارات الدولية التي أفرزتها حقبة المعسكرين خاصة تلك القرارات المتعلقة بمصالح الدول الكبرى، ومنها قرارات الصراع العربي الإسرائيلي.

ب – اختلال التوازنات الدولية لصالح المراكز الرأسمالية وما أنتجه ذلك الاختلاف من انفراد الدول الكبرى في صياغة القرارات الدولية وإجبار الدول الوطنية على تطبيقها.

ج – الابتعاد عن الوسائل السلمية والطرق الدبلوماسية في حل الخلافات الدولية الأمر الذي أدى إلى تنامي أدوات الإكراه (حصار اقتصادي، تدخل عسكري، عقوبات متعددة) في العلاقات الدولية.

د – ازدواجية معايير السياسة الدولية عند تشريع وتطبيق قرارات الشرعية الدولية.

٣ – (التدخل الإنساني):

شهدت المرحلة الجديدة من تطور العلاقات الدولية ازديادا في حدة الصراعات العرقية/ الدينية وما رافقها من تدخلات خارجية مرتكزة على مبررات إنسانية (حقوق الإنسان، الديمقراطية، حق تقرير المصير).

إن حق (التدخل الإنساني)[٤] لا يمكن عزله عن مضمون التوسع الرأسمالي وحركته في الظروف التاريخية الملموسة، حيث أن ذلك يتطلب تدويل الأزمات الوطنية انطلاقا من إدماج المصالح الحيوية للمراكز الرأسمالية في صلب الأزمات الوطنية، وحلها (الأزمة) لصالح الشروط الضرورية لتطور الأنشطة الأساسية للرأسمال المعلوم. وبهذا السياق فإن معنى التدخل الإنساني يتضمن جانبين: أولهما جانب حقوقي يتمثل في خوض معركة تنازع المصالح من خلال مشاركة قوى خارجية متجسدة في رأس المال الاحتكاري وقوته العسكرية في الصراع الوطني الداخلي. وثانيهما جانب اجتماعي – سياسي يهدف إلى استنهاض قوى (وطنية) حليفة ومساعدتها في كسب المعركة الوطنية لصالح برامجها الاجتماعية وتوجهاتها السياسية. وبهذا فإن تدويل النزاعات الوطنية (وحق التدخل الإنساني) يهدفان إلى صياغة تبعية بلدان العالم الثالث بما يتناسب والطور الجديد من حركة رأس المال.

تلخيصا للآراء والأفكار الواردة لا بد من إيراد بعض الاستنتاجات التي أراها ضرورية:

أولا: أدى انهيار دول الاشتراكية الفعلية وسيادة علاقات الإنتاج الرأسمالية إلى انهيار منظومة كاملة من الأفكار والبنى التنظيمية والشعارات السياسية التي شكلت رافعات نضالية لحقبة المعسكرين.

ثانيا: تتطلب المرحلة الجديدة من التوسع الرأسمالي تجديد البناء الفكري – السياسي – الاجتماعي للأحزاب الماركسية تنطلق من التناقض بين وحدة المصالح الإنسانية، والشروط الهمجية للعولمة الرأسمالية.

ثالثا: صياغة خطاب فكري – سياسي ناقد يرتكز على فضح المضامين الحقيقية لإيديولوجيا الرأسمال المعلوم، والبدء ببناء مفاهيم سياسية وأدوات فكرية تستمد مشروعيتها من التشكيلة الوطنية المتفاعلة مع التغيرات الدولية.

رابعا: توسيع القاعدة الاجتماعية للأحزاب الشيوعية بما يمكنها من تخطي إطاراتها الطبقية المحدودة وما يشترطه ذلك من صياغة برامج ومهام وطنية ملموسة.

الهوامش

(١) يدعو غينادي زيوغانوف زعيم الحزب الشيوعي في روسيا إلى بناء (إيديولوجيا وطنية) تدافع عن مصالح روسيا. أنظر غينادي زيوغانوف روسيا والعالم المعاصر، ص١٨، دار الطليعة الجديدة، ترجمة عدنان جاموس.

(٢) لا زال مفهوم اليسار الجديد مفهوما ملتبسا بسبب عدم اكتمال النهج الفكري – السياسي للعديد من فصائله الناشطة.

(٣) أدى انهيار موضوعة التضامن الأممي إلى انكفاءات وطنية وترابطات قومية، وما نتج عن ذلك من اعتماد بعض الأحزاب الشيوعية على مبدأ (البراغماتية الوطنية المعافاة) في التعامل مع الدول بغض النظر عن شكل نظامها السياسي. أنظر غينادي زيوغانوف: روسيا والعالم المعاصر، مصدر سابق.

(٤) دفعا لأي التباس فإن حق (التدخل الإنساني) الذي أتناوله بالنقد هو ذلك (الحق) الذي دعت إليه وثيقة (التعاون الاستراتيجي) للتحالف الأطلسي والذي يترابط والوظيفة القمعية للدولة الرأسمالية المرتكزة على موضوعة تدويل الصراعات الوطنية وتعديل مفهوم السيادة الوطنية.

في العدد القادم:

الانتفاضة العراقية بعد تسع سنوات
بين النسيان والذاكرة

ـــ فالح عبد الجبار ـــ

لمحات من مظاهر الحياة اليومية

في عاصمة الحضارة العربية الإسلامية (بغداد)

علاء اللامي

توطئة

نهدف عبر هذه الدراسة الوصفية التحليلية والقائمة على أسس علم الاجتماع التاريخي إلى إبراز بعض مظاهر الإنجاز الحضاري والمدني الضخم والراقي الذي قدمه العرب المسلمون للعالم وللتاريخ في جوانب ظلت مستبعدة وبعيدة عن أقلام الباحثين ألا وهي تلك المتصلة بمظاهر الحياة اليومية للمجتمع البغدادي خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين حين بلغت الحضارة العربية الإسلامية ذروة صعودها الحضاري وقمة مجدها المدني.

لقد اعتمدنا في كتابة هذه الدراسة على كتابين مهمين في ميدان علم التاريخ الاجتماعي، وهو علم ما زال فتياً عندنا نحن العرب، ولكنه يتقدم بخطى حثيثة ويقدم العديد من الإنجازات الباهرة كما هي الحال مع مؤلفات العالم العراقي الراحل علي الوردي، نقول: اعتمدنا على كتابين مهمين في هذا الميدان هما (تاريخ العراق زمن الخلافة العباسية في بغداد) للباحث محمد سعد الشيباني وكتاب (العامة في بغداد) للباحث الدكتور فهمي سعد، إضافة إلى العديد من كتب التاريخ والتراث العربي القديم والدراسات التراثية الحديثة ونخص منها تلك التي ألفها أستاذنا الراحل هادي العلوي البغدادي.

بريد ورياضة ومخابرات

امتزج البريد في العصر العباسي من حيث الوظائف والمهمات بالرياضة، السباحة والجري خصوصاً، من جهة، وبما نسميه في عصرنا النشاط المخابراتي والجاسوسي من جهة أخرى. وقد كان الخليفة أبو جعفر المنصور يتمنى ويعمل على أن يكون في جهاز دولته (صاحب بريد) جيد ينقل إليه الرسائل وأسعار السلع وأخبار الولاة (العمال) والقضاة بسرعة ودقة وكفاءة.

وبغية تحقيق هذه الأمنية أو الطموح المنصوري شُقت الطرق الطويلة والسكك المتباعدة وشُيِّدت عليها محطات خاصة ونقاط استراحة وتموين يتوقف عندها وفيها موظفو البريد لأخذ قسط من الراحة والتزود بالمؤمن وتغيير الدواب. وكانوا يستخدمون آنذاك البغال خاصة في الطرق الجبلية الوعرة، والخيول والجمال في الصحارى. وقد ألفت الكتب ورسمت الخرائط ووضعت تحت تصرف موظفي البريد. لقد بلغ البريد في عهد الخليفة المأمون شأواً عظيماً في السرعة والكفاءة فكانت الرسائل تصل من ولاية البصرة إلى العاصمة الإمبراطورية (بغداد) في يوم واحد أما في أيام الخليفة المعتضد فقد كانت الرسائل والفواكه الطازجة تصل من مدينة شيراز إلى بغداد في سبعة أيام.

وبهدف تطوير البريد، شرعت الإدارة في كسر احتكار الطريق البري لنقل البريد وشرع في استعمال الطرق النهرية وتشجيع وتحريض الشبان على تعلم السباحة والمشاركة في مسابقات الجري والسباحة وقد أُقيم في زمن الخليفة المعتضد مرقب في كل فرسخ يحض السباحين والسعاة على الإسراع والنشاط. كما استخدمت الأجواء أيضاً لنقل البريد عن طريق تربية وتدريب الحمام الزاجل فشيدت له أبراج خاصة يشرف عليها موظف خاص يدعى (البرّاج) وصارت الرسالة تصل من مدينة الموصل إلى بغداد في اليوم نفسه. لقد أضحى هذا الطير (الحمام الزاجل) ثميناً وعزيزاً جداً لدى البغداديين حتى بلغ ثمن الفرخ الذكر منه – كما يخبرنا الجاحظ في الحيوان – خمسين ديناراً ذهبياً.

ارتبط وتداخل البريد بالمخابرات، كما أسلفنا، وأحياناً كانت المهمتان تسندان إلى مسؤول (صاحب) واحد؛ وقد أقام الوزير القدير ابن الفرات، فيما بعد، جهازاً مخابراتياً خاصاً. وقد استعمل المعتضد وعضد الدولة وغيرهما الصبية والنساء والشحاذين لجمع الأخبار الأمنية، ومن طريف ما يذكر أن الخليفة المعتضد كان يتجسس على وزيره بواسطة رجل كسيح. وقد شكك بعض رجال الدين المستقلين عن الدولة آنذاك بشرعية ومشروعية التجسس وجمع الأخبار حول الناس وقد شاركهم هذا الاعتقاد أحد الخلفاء، كما يقول الأستاذ فهمي سعد في كتابه المشار إليه آنفاً، ويسميه القادر وربما كان يقصد القاهر أو المقتدر، إذ لا وجود لخليفة بهذا الاسم، ونرجح حدوث خطأ مطبعي. ومن الأسماء المشهورة من أصحاب ديوان البريد ثمة أبو مروان عبد الملك الزيّات، وكان صاحب البريد وينعت أيضاً بالخرائطي كما أن الديوان كان يسمى أحياناً بديوان الخرائط وقد استمر الزيّات في وظيفته هذه ثلاثين سنة.

أعيادهم، مأكلهم، مشربهم

كانت شوارع بغداد تضاء طوال شهر رمضان بالقناديل والتي أمر بالإكثار منها الخليفة المأمون (لما فيها من أنس للسابلة وضياء للمجتهدين) كما يذكر الثعالبي. وكان الناس يهنئون بعضهم بعضاً بمناسبة حلول شهر رمضان ويقيمون الولائم ويفرقون الصدقات على الفقراء. وكانوا يحتفلون برؤية هلال شوال فتقرع الطبول وتضرب الصنوج احتفالاً بمقدم العيد. يخوج

البغداديون زرافات ووحداناً في أول أيام العيد لأداء الصلاة في (باب الشماسية) وإلى هناك يقصد الخليفة ووزيره وكبار قادته ورجال دولته وينقل فهمي سعيد (م.س. ص٣٨٠) عن هلال الصابي المشهد التالي (في عهد المقتدر يخرج الوزير إلى المصلى ومنه يتوجه إلى دار الخليفة، ويخرج نازوك صاحب الشرطة في خمسمائة فراش يحملون الشموع المواكبية الضخمة، سوى غيرهم من أصحاب النفط، وهم أكثر عدداً، ويجري استعراض الجند ويخرج الناس لرؤية الموكب والعساكر، ثم ينصرف الخليفة إلى القصر لتقبل التهاني، وبعدها توضع المآدب وتوزع الهدايا).

أما موسم الحج فقد كان يعتبر من أعظم مناسبات بغداد على حد قول ابن الكازورني. وربما تصور أو ظن بعض المعاصرين أن بغداد كانت آنذاك مدينة مغلقة محافظة لا تعرف للفرح مذاقاً ولا للبهجة سبيلاً، بل لعلهم شبهوها في أحلام يقظتهم بهذه المدينة أو تلك من المدن التي يحكمها المتطرفون في زماننا والذين حرموا النساء حتى من حصتهن من الهواء ونور الشمس. ففي هذا الموسم ومع البدء بعودة الحجيج (يهرع الناس إلى الفرجة ما بين فتى وفتاة، وشاب قد فتن بحسن فتاة، يرتعون في رياض الجانب الغربي – من بغداد – ما بين ماش أو ممتط صهوة جواد عربي وتدوم هذه المظاهر عدة أيام. م.أ. ص٣٨١). ويحرص الناس في هذا العيد على نحر الأضاحي وقد يبالغ بعض الخلفاء في عدد الأضاحي كما فعل المقتدر بالله في أحد الأعياد حيث نحر أربعين ألف رأس من الإبل وخمسين ألفاً من الغنم، هذا في يوم عرفة، أما في يوم التروية فقد وزع من الإبل لحوم ألفين ومن البقر والغنم لحوم ثلاثين ألف رأس.

. هذا بخصوص أعظم أعياد المسلمين، أما بخصوص أعياد أهل الديانات الأخرى، فقد كان أهل بغداد ومن جميع الأديان يحتفلون بروح من التسامح والتفتح والمواطنة الحقيقية التي نفتقدها اليوم، بالأعياد التالية:

– عيد دير الثعلب وهو للنصارى: وكان يوماً مشهوداً في بغداد يحتفل به المسلمون والنصارى وموعده آخر يوم سبت من شهر أيلول (سبتمبر).

– عيد دير (أشموني) وهو عيد نصراني: وموعده الثالث من تشرين الأول. وتقام فيه خصوصاً المسابقات والاستعراضات بالسميريات والطيارات والزبازب وهي كما يبدو أنواع من الزوارق الصغيرة والشخاتير.

– عيد الفصح وهو أكبر أعياد النصارى وكانت احتفالاته تقام في دير (سمالو) ويقصده أهل الطرب واللهو من جميع الأجناس والطوائف الدينية.

– عيد رأس السنة، وكانوا يسمونه (عيد القلنداس) ويرجح الأستاذ سعد مشاركة الخليفة نفسه فيه على ضوء بعض التفاصيل الواردة في حسابات القصر المالية خلال وزارة علي بن عيسى.

– عيد النيروز أو النوروز وهو رأس السنة عند الفرس والكرد وكان الخلفاء يحتفلون به مع حاشيتهم فيتبادلون الهدايا الخاصة وهي تماثيل صغيرة مصنوعة من العنبر، ويصاحب الاحتفال

تناول الفواكه والنبيذ وكان المحتفلون يضعون على وجوههم الأقنعة المضحكة مما يجعل هذا العيد أقرب إلى الكرنفالات المعاصرة لدى بعض الشعوب كالبرازيل.

– عيد المهرجان وهو عيد فارسي يعلن عن بداية فصل الشتاء وفيه يحتفل الناس ويتبادلون الهدايا.

– عيد السذق ومعنى الكلمة (المائة) وهو عيد فارسي أيضاً ينحرون فيه الذبائح ويشعلون النيران الضخمة على ضفاف دجلة ويسيرون الزوارق المحملة بالشموع المضاءة في النهر.

– وثمة عيد طريف كان البغداديون يحتفلون فيه واسمه عيد (الكوسج). وفيه يتناول الشخص المتطوع للقيام بدور الكوسج بعض الأدوية المسخنة ويطلى هو وملابسه بالمواد الملونة الحارة ثم يخرج راكباً على دابة في هيئته المضحكة وهو يصيح: الحر، الحر، الحر! مثيراً ضحكاً وصخباً شديدين لدى الجمهور المتفرج من المحتفلين.

وكان طعام البغداديين يخضع في تصنيفه ونوعيته إلى الموقع الاجتماعي والمعاشي، فلم يكن طعام الفقراء – وكما في جميع المجتمعات والأزمان – يشبه طعام الأغنياء والميسورين. ففي حين فضل هؤلاء اللحوم الطرية كلحوم الحملان والطيور والأسماك، كان الفقراء يأكلون لحوم البقر والجمال الغليظة وأحشاءها وطبيخ الفول (الباقلاء) والسلق. وكان الناس عموماً يتناولون الحبوب الجافة المطبوخة والمخبوزة والفاكهة والخضر. وكانت الأسعار في صعود وهبوط واختلاف وثبات بحسب الحالة الاقتصادية العامة والموقع الجغرافي. ففي حين كان سعر الجمل، في أيام الجاحظ، يبلغ في بغداد عشرة دراهم كان ثمن وجبة لحم مشوي (كباب) لنفرين في واحد من محلات الشواء في المدينة نفسها يبلغ عشرين درهماً في نهايات القرن الرابع الهجري. وحين كان سعر الجدي في البصرة – على أيام الجاحظ أيضاً – عشرة دراهم كان سعره في كورة الأهواز التابعة للبصرة درهمين فقط! ومن الأطعمة البغدادية المشهورة في ذلك الزمان والتي ما زال بعضها حياً على المائدة المعاصرة:

– الهريسة: وتعمل من اللحم (الغنمي في الغالب) السمين والكسفرة (الكزبرة؟) والدارصيني (القرفة) والبصل واللوز والجزر، فإن لم يوجد هذا الأخير، استعيض عنه بشرائح الباذنجان. وكانت هذه الأكلة تباع في شوارع بغداد ويسميها الباعة (جمع اللوز والغنم)، وربما كانت أكلة (تبسي الباذنجان) العراقية الحية هي حفيدة الهريسة حين تكون بلا جزر! وثمة أكلة عراقية أخرى تحمل الاسم نفسه (الهريسة) ولكنها تعمل من اللحم الغنمي والحبوب المطبوخة جيداً.

– الديكبريكة: وتعمل من اللحم والكراث والبصل والخل والسكر وكانت من أطباق الخلفاء المفضلة.

– الطباهجة: تتألف من شرائح اللحم وشحم الإلية والبهارات والجزر.

– ومن حلوياتهم المشهورة: القطائف وما زالت حية والفالوذج واللوزينج ومازالت الأخيرة متداولة ولكن بحذف الجيم إذ يسميها العراقيون الآن (اللوزينة).

أما الفقراء فكانت حلواهم المعروفة هي عصيدة التمر. وكان تناول التحلية أو ما يسميه الفرنسيون في أيامنا (لو ديسير) أمراً مألوفاً في وجبات طعام الأغنياء والخلفاء. لنستمع إلى هذه الطرفة التي ينقلها الأستاذ فهمي سعد (م.س. ص٤٠٣) عن التنوخي (تناول الخليفة المقتدر الطعام ذات مرة [وكان مسافراً في سفينة على ما يبدو] مع ملاح، وبعد أن انتهى الخليفة من تناول طبقه، جلس ينتظر التحلية (تناول الحلوى) ثم طلبها من الملاح بنفسه فقال له الأخير معتذراً: نحن لا نعرف الحلوى يا مولاي. فقال الخليفة مستغرباً: ما ظننت أن في الدنيا من يأكل طعاماً بلا حلوى!).

أما الأستاذ الشيباني (م.س. ص٢٧٣) فينقل لنا عن المسعودي المشهد التالي لوليمة (صبوح) حضرها صديق لأحد كتاب الدولة، وربما كان الكاتب الحكومي في رتبة مدير عام في زماننا: (رأيته وهو جالس على بركة في صدر صفة، وهو يشرف منها على البستان وعلى حير الغزلان وحظيرة القماري وأشباهها (بما يؤلف حديقة حيوان منزلية) فقلت له: يا أبا جعفر أنت والله جالس في الجنة. قال: فليس ينبغي لك أن تخرج من الجنة حتى تصطبح فيها (...) أتونا بمائدة جزع لم أر أحسن منها، وفي وسطها جام (كأس أو آنية من الزجاج وما زال العامة في العراق يسمون الزجاج جام) جزع ملونة، وقد لوي على جنباتها الذهب الأحمر، وهي مملوءة من ماء الورد، وقد جعل سافاً فوق ساف كهيئة الصومعة من صدور الدجاج، وعلى المائدة سكرجات (أواني) جزع فيها أصباغ وأنواع الملح، ثم أوتينا بسنبوسق يفور (لعله نوع من الحلوى المسماة اليوم سنبوسة!) وبعدة جاماتِ لوزينج (...) وقدم بين أيدينا ايجانة صيني بيضاء قد كرمت بالبنفسج والخيري وأخرى مثلها، عبئ فيها التفاح الشامي قدر ألف تفاحة.. ثم قال لي: هذا حق الصبوح!!).

وأما عن ملبوساتهم فقد تنافس الأغنياء على ارتداء الملابس والمنسوجات الجميلة والغالية الثمن وكان في كل دار غني ثمة ما سموه خزانة الكسوة. وقد صنعت الملابس من أنسجة الحرير والكتان الذي اشتهرت به القاهرة قبل أن يبدأ المزارعون بزرعه في جنوب العراق وخصوصاً في البصرة والأهواز.

وكان ثمة الأقمشة القطنية والعمائم الرقيقة والمناديل والقلانس وكانت دار القطن في بغداد من أكثر الدور غلة وإليها نسبة (الدار قطني). وازدهرت صناعة الحياكة والصباغة كانت (المنسوجات متنوعة إلى درجة كبيرة فهناك الأقمشة الشفافة الناعمة للسجف والملابس الداخلية والنسائية (...) أما العبي (جمع عباءة) فكانت تتخذ من الصوف أو الوبر وكانت للجنسين كما هي الآن. وتميزت الموصل بقماش قطني رفيع ما زال اسمه شائعاً في العالم هو الموصلين. الشيباني م.س. ص٣٢٧).

واهتموا بالأحذية فتنوعت حسب الأذواق والمواقع الاجتماعية والمهنية فكان الظرفاء يحتذون "الوشاء" والعيارون يحتذون ما يسمى "بالمطبق" وكان عامة الناس يحتذون الخفاف والنعال المبطنة بالأقمشة الجيدة والوبر والجلود الجيدة وكان من المستهجن أن يسير الإنسان حافياً أو محتذياً حذاء وسخاً وكان يمنع من يحتذي "اللالكة" الحمراء أو الخفاف الحمراء من دخول قصر الخلافة، فقد

كان هذا اللون خاصاً بالخليفة العباسي! ومن طريف ما يروى أن الخليفة المنصور كان لا يسمح للشعراء من المثول بين يديه لإنشاد قصائدهم إلا إذا كان واحدهم محتذياً خفين دمالقين.

ويروى، أيضاً، أن الخليفة هارون الرشيد كان عاشقاً للأحذية حتى أنهم أخرجوا من خزائن ملابسه بعد وفاته أربعة آلاف زوج من الخفاف!

الحمامات والأسواق والمستشفيات

خص العرب عموماً، وفي العصر الإسلامي خصوصاً، النظافة والطهارة والمكانية والملابسية اهتماماً استثنائياً ينبع، في جزء رئيس منه، من طبيعة الشعائر والطقوس الدينية والتي يشترط لتحققها وصحتها الطهارة. وقد بنيت الحمامات العامة في جميع الحواضر الكبرى والصغرى في الإمبراطورية العربية الإسلامية (دولة بني العباس خصوصاً) حتى بلغت أرقاماً قد لا يستطيع المعاصرون تصديقها إذ يحصي بعض المؤرخين عدد حمامات بغداد بلغ ستين ألفاً في القرن الثالث ولكنه انخفض في أيام معز الدولة (٢٥٦هـ) إلى سبعة وعشرين ألفاً ليصل في عهد عضد الدولة (٣٨٣هـ) خمسة آلاف حمام فقط.

وألحق الأغنياء وعلية القوم بقصورهم حمامات خاصة منزلية تفنن البناؤون في بنائها، ووصف ابن بطوطة تلك الحمامات فذكر أنها مطلية بالقار الشبيه لجودته بالرخام الأسود، وفيها خلوات مطلية بالجص الأبيض، وفي كل خلوة حوض من الرخام، تسيل فيه أنبوبتان: واحدة تسيل بالماء البارد والأخرى بالحار. وينقل صاحب (العامة في بغداد م.س. ص٣٤٥) نقلاً عن ابن الجوزي أن بغدادياً هو (علي بن أفلح بنى داراً كبيرة وجعل فيها حماماً عجيباً ضم بيت مستراح فيه بيشون (لعله صنبور!)، إن فركه الإنسان يميناً خرج الماء حاراً وإن فركه شمالاً خرج بارداً) وهذا الحمام أو المستراح، كما لا يخفى، قريب الشبه بالحمامات الحديثة في زماننا والتي يستوردها علية القوم من أوربا وأمريكا.

ومن أكثر الناس شغفاً واهتماماً بالحمامات والتطهر والنظافة شيوخ الصوفية الذين غدت بغداد مدينتهم وقاتلتهم، فقد عشق الصوفيون بشقيهم: السلفي العرفاني من غرار البسطامي والشبلي أو الكفاحي الاجتماعي من غرار الحسين بن منصور الحلاج والقطب الجيلاني، عشقوا النظافة والطهارة وارتياد الحمامات. وكان هؤلاء لا يهتمون في قليل أو كثير بالطعام أو الشراب فالجوع عندهم كان نوعاً من الرياضة الروحية فهم لا يأبهون إن جاعوا وإن عطشوا بل كانت النظافة والرياضات الروحية شغفهم وولعهم الدائب الدائم. ومعروف أن الآية انقلبت مع زوال التصوف الحقيقي وظهور التصوف المزيف ممثلاً بالدروشة العثمانية التي، كما كتب العلوي البغدادي، ألغت الحمام واحتفلت بالمطبخ!

وفي حين كان جسد الصوفي خفيفاً رشيقاً، تكاد تحمله الريح، صار دراويش الصوفية العثمانية، وما زالت بقاياهم موجودة في بعض المجتمعات العربية إلى يومنا هذا، صاروا

متكرشين جشعين همهم الأول والأخير إرضاء شهوتي البطن والفرج. ومن الأكيد وجود علاقة سببية بين جذر الدروشة العثمانية المطبخية وبين بدايات تأسيس وتشكيل الفرق الإنكشارية على أيدي شيوخ الطريقة البكتاشية. فالعالم العراقي علي الوردي يقول: (ومما يلفت النظر في الطقوس البكتاشية التي تمسك بها الجيش الإنكشاري، أنهم يعطون أهمية كبيرة للطبخ وتقديم الطعام، فهم مثلاً يقدسون قدور المطبخ ولا يفارقونها حتى في أوقات الحرب ويدافعون عنها دفاعاً مستميتاً إذ هم يعتبرون ضياعها أثناء الحرب أكبر إهانة تلحق بهم. ص٣٥ لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ج١) ولعل من سخرية القدر أن تفقد الحمامات البغدادية العباسية اسمها الحقيقي في عصرنا وتسمى حمامات تركية!

وكانت الحمامات والبيوت في بغداد مزودة بدورات مياه ومراحيض لتصريف الفضلات البشرية إلى شبكة مجارٍ "تحت أرضية". أما المياه النظيفة والصافية فكانت تصل إلى البيوت في قنوات وأنابيب محكمة القاع بالصاروج ومعقودة بالآخر من سقفها فكانت تجري في أكثر شوارع الأرباض (المحلات) صيفاً وشتاءً. ومن طريف ما قيل بصدد الحمامات أن أصحابها كانوا يستخدمون الشعراء لبث الدعاية والإعلان لها ومدح جودة مياهها وطيب هوائها واعتدال أسعارها.

وكان الصابون المعطر وسواه معروفاً وكثير الاستعمال وكان أغلبه يصنع في بغداد وما جاورها ويستقدم بعضه من الولايات المجاورة.

كانت بغداد آنذاك أشبه بسوق كبير، وقد انفصلت عنه مجموعة قصور الخلافة، وأحاطت به الأحياء الشعبية الفقيرة والبائسة. وكانت أسواق بغداد قائمة في أغلبها على أساس التصنيف المهني والحرفي: فهناك أسواق الحطابين والقطانين (نسبة إلى القطن) والخزازين والبزازين وأصحاب الصابون وسوق يسمى (سوق العروس) ويبدو أنه متخصص بتجهيز العرائس والمتزوجين الجدد، كل هذا في الجانب الغربي من المدينة.

أما في الجانب الشرقي فيوجد سوق السلاح والمخرم وسوق (الداية) لما يحتاجه الطفل حديث الولادة وسوق خاص بالقصابين وباعة خبز الأرز. وفي جانب الطاق سوق شبه سري لبيع الأنبذة والخمور، وسوق العطارين والصيادلة.

كما عرفت بغداد الأسواق الأسبوعية كسوق الأحد وموسمية كسوق الشتاء. وكانت الأسواق منظمة مرتبة في أيام الاستقرار السياسي والأمني، ومسقوفة كحال جميع الأسواق في المشرق العربي، وعليها قيمون ومراقبون صحيون وأمنيون وماليون. وفي هذه الأسواق انتشر (استعمال الصكوك والسفاتج – جمع سفتجة وهي أشبه بالكمبيالة في عصرنا – في العمليات المالية: كانت الصكوك عبارة عن أذون بالدفع (...) بينما السفاتج عبارة عن حوالات مالية الهدف منها عدم نقل الأموال خوفاً عليها من قطاع الطرق واللصوص، فيترك الشخص ماله عند تاجر أو صراف بالبصرة مثلاً، ويأخذ سفتجة على وكيل ذلك التاجر أو الصراف ببغداد أو الفسطاط. ص٣٤٢ الشيباني م.س).

وقد كانت كل هذه الأسواق حتى خلافة المنصور في داخل المدينة المدورة. ويقال إن وفداً

من الروم جاء زائراً لبغداد واقترح على الخليفة، حين التقى به، إخراج الأسواق من المدينة، لأسباب تتعلق بحماية السلطة والخلافة من ثورات وانتفاضات السكان وأهل الأسواق، فأعجب الخليفة باقتراح ضيوفه الرومان ونفذه.

وكان الرحالة ابن جبير الذي وصل إلى بغداد في بداية شهر صفر سنة ٥٨٠هـ قد وصف الخراب الذي حل بالجانب الغربي من المدينة بعد أن بدأت مرحلة الهبوط الحضاري والمدني، ولكنه أحصى لنا سبع عشرة محلة معمورة في الجانب الشرقي، كما وصف الكرخ المسورة أو "بغداد المنصور" وزار المستشفى (المارستان) في محلة "باب البصرة" فقال (وفيها المارستان الشهير ببغداد، وهو على دجلة، وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس، ويطالعون أحوال المرضى به، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه (من دواء وأطعمة خاصة) وبين أيديهم قومة (موظفون) يتناولون طبخ الأدوية والأغذية. وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية، والماء يدخل إليه من دجلة. ص١٨٠ رحلة ابن جبير). وكان الخليفة المتوكل قد كلف الطبيب إسرائيل بن زكريا ببناء مارستان تكلف ثلاثمائة ألف درهم وشيد على أرض مساحتها خمسون ألف ذراع.

وبنى الوزير علي بن عيسى مارستان الحربية وأنفق عليه من ماله الخاص وأسند رئاسته إلى الطبيب سعيد بن يعقوب، أما المشرف على جميع المستشفيات، وكان عددها في بداية الأمر خمسة، فهو الطبيب سنان بن ثابت. وبني مستشفى آخر في عهد المقتدر وفي عهد الخليفة الراضي شيدت دار للعجزة والضعفاء. وكان بعض الأطباء يعالجون مرضاهم في دورهم، وبعضهم يزور المرضى في بيوتهم. وفي سنة ٣١٩هـ تقرر إجراء امتحان علمي لكل الأطباء بعد أن غلط طبيب في معالجة رجل فمات. وقد استثنى من هذا الامتحان كبار ومشاهير الأطباء. كما ظهر التخصص في الطب فكان هناك أطباء العيون ويدعونهم الكحالين أو القداحين. وهناك الصيادلة. وبلغ عدد الأطباء المجازين والمجتازين للامتحان العلمي في جانبي بغداد ثمانمائة وستين طبيباً. (العامة في بغداد م.س. ص٣٥١).

نوادرهم في مجالسهم

إذا كانت الأمثال الشعبية لأي شعب هي عصارة التجربة الإنسانية وروح حضارة ذلك الشعب كما قال أحد الحكماء، فإن الطُرف والنوادر والمُلح لا تقل شأناً عن الأمثال الشعبية، بل ربما تفوقها في شفافيتها وعمقها وصدقها التعبيري. وقد ظلت نوادر وطُرف أهل ذلك العصر في عاصمة الحضارة العربية الإسلامية بغداد وغيرها من الحواضر متناثرة في بطون الكتب والمصنفات الضخمة، لا يخلو منها باب من أبواب التأليف أو جنس من أجناس الإبداع ولم يظهر كتاب خصصه مؤلفه لجمع وتصنيف الطرف والنوادر التي هيمنت على المجالس والألسن طيلة خمسة قرون حتى أنجز أبو الفرج جمال الدين بن الجوزي البغدادي والمولود ببغداد سنة ٥٠٨هـ كتابه الفريد والرائع الموسوم (أخبار الحمقى والمغفلين).

وإذا ما علمنا بأن ابن الجوزي فقيه ومحدث وعالم دين متشدد، سبق لـه أن هاجم الشهيد الصوفي الحسين بن منصور الحلاج في كتابه (تلبيس إبليس)، فسوف نفاجأ تماما بتحرر وتفتح هذا الرجل قياسا إلى زملائه المعاصرين، الذي جمع في كتابه مئات وربما آلاف النوادر والطرف التي لم تترك ميدانا من ميادين الحياة إلا وخاضت فيه بشجاعة تثير حفيظة البعض من أبناء عصرنا. لقد أورد ابن الجوزي طرفا تعتبر في عصرنا حساسة أو لا يليق نشرها، فبعضها يتعلق بمشمولات الجنس والممارسة الجنسية وبعضها الآخر يشاكس بمرح المقدس الديني المتعلق بالكتب المقدسة أو الأنبياء والخلفاء والأولياء.

والحقيقة فإن عدم تحرج ابن الجوزي ومجايليه من علماء ومؤلفين من التطرق والكتابة في مواضيع كهذه تؤكد لنا وبالملموس بأن الناس، وبخاصة المبدعين، هم وقبل كل شيء أبناء عصرهم، فحين كان العرب المسلمون يعيشون عصر الصعود والرقي الحضاري والمدني، كانوا يصعدون بدينهم وآدابهم وعلومهم معهم، فكان الدين عظيما بوصفه علاقة ضميرية بين الإنسان وربه لا يخشى عليه من دفتر صغير يؤلفه ملحد أو من يدعي نبوة يظهر في الكوفة أو دمشق. وقد روى ابن الجوزي عشرات النوادر المضحكة عن هؤلاء. أما إذا كان العصر عصر تحلل وتفسخ وهبوط حضاري – كالعصر الذي نعيشه – فيصبح الدين صغيرا يزعم كل صبي مقهى أو عديم موهبة باحث عن الشهرة الدفاع عنه بحد السكين. وفي حقيقة الأمر فلم يكن ولن يكون الدين، أي دين، كما يحاول الصغار تصويره.

ولكننا، وعلى الرغم مما سبق، محكومون بسقف العصر والسائد الذوقي والديني والعلمي والأدبي ولهذا سوف لن نورد من تلك الطرف والنوادر (ذات المواضيع الحساسة) شيئا، ويستطيع القارئ الكريم العودة إلى كتاب الشيخ ابن الجوزي والذي حققته ونشرته دار الآفاق الجديدة ببيروت وهو متوفر في المكتبات على أية حال.

عنوان الكتاب الكامل لا يخلو من طرافة وربما يعطينا صورة عمن سيكونون من أهل النوادر أو ضحاياها فهو – العنوان – يقول (أخبار الحمقى والمغفلين من الفقهاء والمفسرين والرواة والمحدثين والشعراء والمتأدبين والكتاب والمعلمين والتجار والمتسببين (العمال والكسبة) وطوائف تتصل للغفلة بسبب متين) والكتاب مفصل وضام لأربعة وعشرين بابا.

هامش: أشرنا إلى المصادر كل في موضعه بذكر اسم الكتاب أو المؤلف أو كليهما ورقم الصفحة مع الإشارة إلى كون الكتاب مصدرا سابقا، وأشرنا إلى ذلك بالحرفين (م.س)، أو مصدرا أخيرا (م.أ)، أما المعلومات والأخبار التاريخية الأخرى في تضاعيف المقال والواردة خارج حدود المقتبس فأغلبها من الذاكرة أو من كتابات وسيطة من تلك التي تراكم وترصف المعلومات التاريخية على أساس المنهج الوصفي التاريخي.

مخطوطات البحر الميت

وبلدة يوحنا المعمدان

الترميذا علاء كاظم النشمي

أورد بعض المؤرخين القدماء اسم طائفة كانت مزدهرة أيامهم، لها دور مهم في الحركة الفكرية والدينية آنذاك، ولها نظام عيش معين كانت تتخذ الأماكن المقفرة ملاذاً لها للعيش بسلام ولتأدية طقوسها بعيداً عن ظلم وجور اليهود والرومان الحاكمين في أورشليم (القدس).

أطلق القدماء اسم (الأسينيين – Esseniens) على هذه الطائفة، وتعني في الإغريقية (القداسة). هذا حسب ما أورده المؤرخون أمثال المؤرخ الجغرافي الروماني بليني الأكبر – القرن الأول بعد الميلاد – في كتابه (**التاريخ الطبيعي**) والمؤرخ اليهودي جوزيفوس (٥٠ ق.م – ٥٠ ب.م) في كتابه (**كل إنسان طيب حر**). وهؤلاء المؤرخون عاشوا في زمن وجود الطائفة، والتي كان عدد أفراد هذه الطائفة يوم فتح تيطس أورشليم (٧٠م) يبلغ ٤٠٠٠ نسمة واختفى ذكرهم من بعد.. فوردت في كتبهم معلومات متنوعة عن الطائفة المذكورة، من طريقة عيشهم.. طقوسهم وبعض من أفكارهم وعبادتهم.. طهارتهم.. لبسهم. ويعتبر المؤرخ اليهودي جوزيفوس أكثر من تحدث عن هذه الطائفة وذكر عاداتها، ولكن تبقى هذه المعلومات من باب المرويات التاريخية وكان ينقصها دعم الاكتشافات الأثرية المادية. فجاء عام ١٩٤٧ عندما اكتشفت عنزة راعي أضخم كنز يعود لهذه الطائفة والتي أسماها الباحثون (**طائفة قمران**)، عبارة عن لفائف (**مخطوطات**) دينية ملفوفة بقطع من قماش أبيض مهترئ ومحفوظة في جرار فخارية وموضوعة في عدد من الكهوف التي كانوا يقطنونها فيما يبدو، في منطقة تسمى (**خربة قمران**) عند البحر الميت في فلسطين (الجانب الغربي للبحر الميت)، كذلك لاكتشاف المخطوطات القبطية في نجع حمادي بمصر عام ١٩٤٥ والوثيقة المكتشفة والتي لها علاقة بالموضوع تعرف بميثاق دمشق أو (**الوثيقة الدمشقية**) كما أسماها الباحثون. فتوالى على دراسة هذه المخطوطات الرثة التي يعود عمرها إلى ألفي سنة تقريباً، عدد ليس بقليل من الباحثين لما فيها من معلومات خطيرة وتثير الجدل حول هذه

الطائفة وعلاقتها بالمعتقدات والأفكار الدينية للطوائف التي عاشت في المنطقة. حيث وصف الأستاذ **أدموند ويلسون** هذه المكتشفات بما يلي "ومما لا ريب فيه أنها - أي المخطوطات - أهم ما اكتشف من نوعها منذ أن وصلت، معارف اليونان والرومان إلى أوربا، حتى كانت سبباً في النهضة الأوربية الحديثة وقامت عليها علوم العالم الحديث - هذا الموضوع الخطير الذي انكب على دراسته جهابذة العلم يحاولون حل مشكلاته وتبسيط معتقداته - فإذا توصلوا إلى ذلك حدثت ثورة في فهمنا تاريخ الديانات" وعند مقارنة المعلومات المحصلة من المخطوطات ولو على قلتها وخاصة كتاب (**النظام**)، فإنها لا تتطابق مع ما تحدث عنه المؤرخون أعلاه عن هذه الطائفة، فلم يرد اسم الأسينيين صراحة إلا في كتب المؤرخين، مما زاد الأمر شكاً وجدلاً، وانقسم الباحثون بآرائهم.. فمنهم من يقول إن (طائفة قمران) ليست طائفة (الأسينيين) التي تحدث عنها المؤرخون والكتاب القدماء.. ومنهم من يرى أنها طائفة واحدة دعيت بعدة أسماء (**الأسينيين، المغائريين، القمرانيين**) وأهم ما في الأمر أن المخطوطات المكتشفة منذ عام ١٩٤٧، لحد الآن لم يظهر منها غير القليل والسبب في ذلك يعود إلى التحفظ على القسم الأكبر منها ومحاولة إخفائها أو تشويهها من قبل اليهود، وإن ما تم نشره من ترجمات لهذه المخطوطات يعتبر جزءاً صغيراً، لا يزيد عن ٢٥% من مجموع ما قد عثر عليه وذلك لعدة عوامل، منها تعارض ما ورد في هذه المخطوطات مع أفكار الأديان الموجودة حالياً كاليهودية والمسيحية، وكذلك لاختلافات شخصية بين العلماء أنفسهم في تفسير ما ورد في المخطوطات. وغيرها من الأسباب.

لقد عدد الكاتب المسيحي (**هيغسيبوس**) الذي عاش في القرن الثاني الميلادي عدداً من الطوائف بجانب طائفة الأسينيين أهمها (**الهميروبابتست، المصبتيين**). والهميروبابتست تسمية إغريقية، تعني من يتعمد أثناء النهار (**أي المعمدانيون**) وهم يشابهون المندائيين، لأن الأخيرين لا يجيزون التعميد إلا في النهار (عدا أيام البرونايا الخمسة المقدسة). أما المصبتيين كما يرى الأستاذ **عزيز سباهي** في كتابه (**أصول الصابئة المندائيين**) فالكلمة مشتقة من (مصبتا) والتي تعني التعميد وهو صائب في رأي. وأريد هنا أن أوضح بأن (المصبتا) تطلق على طقس التعميد المندائي بالذات دون غيره، وهم فقط (أي المندائيون) يطلقون هذه الكلمة على هذا الطقس.

كما أوضح الكاتب المسيحي بأن هذه الطوائف كانت موجودة قبل وأيام ظهور المسيحية، وهي تعارض اليهودية والمسيحية في معظم الأفكار.

والمهم في الموضوع برمته أن الكثير من الباحثين ربطوا هذه الطائفة مع المندائيين، للتشابه الكبير بينهما من ناحية الطقوس والمفاهيم الروحية والأفكار والطهارة والملبس وطريقة العيش، وحتى قرب المنطقة التي عاشت فيها الجماعتان سابقاً، هذا بالإضافة إلى بعض الاختلاف بين الطائفتين في كثير من النواحي (من الممكن جداً أن تكون الطائفتان متأثرتين ببعضهما البعض).

إن من الصعب تثبيت رأي نهائي في هذا الموضوع، فهو يحتاج إلى بحث ودراسة موسعة وعميقة، هذا بالإضافة إلى معرفة وترجمة المخطوطات الأخرى.

سأورد في نهاية الموضوع وصفاً عاماً لهذه الطائفة، عسى أن يكون ذا فائدة للقارئ الكريم ليكون صورة واضحة عن هذه الجماعة الدينية القديمة، وبيان مدى التشابه الكبير بينها وبين المندائيين.

لقد أعلنت دائرة الآثار الأردنية منذ فترة العثور على مستوطنة، بعد الحفريات التي قامت بها في وادي الخرار والتي استمرت عاماً ونصف، يعتقد المنقبون والباحثون أنها القرية التي كان يسكنها **يوحنا المعمدان** (ع) والتي تسمى (**بيت عنيا**)، وفي اللغة المندائية تكون (**بيت أنيا**) ومعناها "بيت الفقير أو العاني أو المتواضع" الواردة في الكتب المندائية، ومن الجدير بالذكر أن هناك إشارات كثيرة، إلى أن **يوحنا المعمدان** (ع) هو شخصية بارزة من جماعة الإسينيين وأن تربيته ونشأته مع **المسيح** (ع) في ظل هذه الجماعة ومعرفتهم بطقوسها ونظام عيشها الخاص. إن الاكتشافات الحديثة في الأردن حول بلدة يوحنا المعمدان ربما تكون مهمة للربط بينها وبين مخطوطات خربة قمران القريبة نسبياً من المنطقة المكتشفة وطائفة الإسينيين الذين عرفوا أفرادها باسم (المغتسلين) وذلك لإكثارهم من الاغتسال بالماء. إن المنطقة (بيت عنيا) مذكورة في **إنجيل يوحنا** (٢٨/١)، يذكر التلميذ يوحنا أن تعميد يوحنا المعمدان للمسيح جرى في منطقة (بيت عنيا) والتي تقع على الضفة الشرقية من نهر الأردن. وهي غير المنطقة المسماة أيضاً "بيت عنيا" والتي تقع على مقربة من أورشليم (القدس). ولو أن إنجيل متى يقول إن تعميد المسيح جرى في نهر الأردن بالذات!.. ولقد قمت بزيارة المنطقة الأثرية بعد مقابلتي وزير السياحة والآثار الأردني السيد عقل بلتاجي الذي قام بشرح واف حول المنطقة المكتشفة، والتي تؤكد الدلائل الحضارية على أن هذه المنطقة شهدت استيطاناً متعاقباً منذ العصر الروماني المبكر واستمر خلال العصر البيزنطي ثم تعرض للدمار المتلاحق بفعل العوامل الطبيعية والبشرية. وقد دلت الحفريات في هذه المنطقة والتي تعود إلى أيام يوحنا والمسيح، على وجود ثلاث أحواض (**لغرض ديني**) مزودة بنظام أنابيب وقنوات تحمل المياه من وإلى الموقع. وقد وجد في جميع الأحواض درجات نزول من أول الحوض حتى آخره، ربما كان ذلك لاستعمال الناس لتسهيل النزول في الحوض **للتعميد** فيها بتغطيسهم كاملاً في الماء. كما أن هناك أنابيب لتصريف المياه (نفس نظام حوض التعميد في مندى المندائيين في بغداد) ويسمى أحد الأحواض الكبيرة بحوض يوحنا المعمدان، ويبدو أنه للتعميد الجماعي. كذلك يوجد نبع يسمى (**نبع يوحنا المعمدان**) يقع قرب المنطقة المذكورة وبين عدد من أشجار النخيل ونبات القصب. وتذكر الروايات القديمة أن يوحنا المعمدان وأتباعه (تلاميذه ربما من بعده) كانوا يعيشون في الكهوف التي حولوها إلى أماكن ودور للعبادة، فمن بين المكتشفات التي وجدت في هذه المنطقة عدد من الكهوف المسكونة سابقاً. والجدير بالذكر أن هذه المنطقة والمسماة بالمغطس تقع على الحدود الأردنية الإسرائيلية وعلى مساحة ٢كم^{٢}، كانت ولا تزال وحتى عهد قريب جداً منطقة عسكرية بالكامل مليئة بحقول الألغام ويحظر على أي مواطن الدخول إليها أو مجرد الاقتراب منها، ولا يزال البحث والحفريات جارية في المنطقة والمناطق المجاورة.

فهذه عنزة الراعي البسيط تزيح النقاب عن أهم مكتشفات القرن العشرين، فيا ترى كم من كنز مدفون في الأرض هنا وهناك ينتظر معاول المنقبين أم عنزة مثل هذه لتظهره للوجود والحياة مرة أخرى؟ ولا ندري ما لهذه الآثار والمكتشفات المستقبلية من أهمية، ربما تغير تصوراتنا التي نعتبرها بديهية الآن، إلى درجة كبيرة جداً أو ربما تزيدها تأكيداً. ومن يدري ربما تكون بعض هذه الآثار تعود للمندائيين، ولكن على العموم تبقى الأولوية للاكتشافات ودراستها.

وصف عام لطائفة الأسينيين

اشتهر الأسينيون بشدة تقواهم وكانوا يسكنون بعيداً عن المدن الكبيرة، في أماكن منعزلة. ويشكلون مجتمعاً شديد الانغلاق على نفسه بقيادة كهنتهم وكبيري السن فيهم، يعملون في الزراعة، أو يمارسون المهن الحرة، ولا ينشدون الثراء. أما نظام معيشتهم فاشتراكي رائع إذ كانوا يقتسمون المسكن والمأكل ويلبسون ثياباً بيضاء ويكافئون الشر بالخير. يطلقون على أنفسهم إخوان العهد، أبناء النور، أبناء الحق... يعادون اليهودية الرسمية... يحافظون على طهارة أجسامهم وملابسهم وأرواحهم... لا يغتسلون بالماء القذر (الميت) بتاتاً... النجاسة تنتقل لديهم بالملامسة، فإذا لامس شخص فرداً غير طاهر أو أقل منه رتبة دينية، أسرع إلى الماء وغطس فيه (تطهر)... يحترمون ويقدسون العهد والقسم ويعتبر دليل ارتباطهم وعبادتهم للخالق.. يمنعون الفرد المشوه وذو العاهات الجسدية (زيادة أو نقصان) من الدخول للسلك الكهنوتي.. يقدسون الطعام باعتباره هبة ونعمة من الله، ولديهم وجبة طعام يقدسونها (يشتركون جميعهم بها) وهي أحد طقوسهم ويتلون صلوات خاصة لها قبل تناولها.. يحترمون الكاهن ويضعونه في مرتبة عالية، فالكاهن الأسيني يمكنه التنبؤ بالمستقبل من قراءة الكتب المقدسة.. يؤمنون ويحترمون معلم الحق الذي قام بإصلاح وإعادة تنظيم حركة سابقة قام بها مؤسس الجماعة الأصلي (اعتبر بعض الباحثين أن معلم الحق ممكن أن يكون يوحنا المعمدان لأن له علاقة بهذه الطائفة).. يتشددون في طهارة القائم بكتابة الكتب الدينية.. وعلى الخاطئ منهم قبل إدراك التطهير أن يغطس في الماء.. ويصلون عند شروق الشمس وقبل غروبها.. لديهم تقويم خاص.. يؤمنون بفكرة الخلاص عن طريق المعرفة والتي يحصل عليها المرء بواسطة القراءة والتأمل (الفيض الروحي) والاشتراك بالطقوس الدينية.. يطلقون على المكان المثالي (الجنة) بعالم النور الذي هو في الأعالي، عالم الله والملائكة.. الموت بالنسبة إليهم مقدس، لأنه سينقلهم إلى عالم النور إلى الحياة الكاملة المثالية بالعبادة والمفاهيم الأخلاقية، عكس الحياة على الأرض المليئة بالعوز والنقص والجور والظلم والفسق والتعسف.. فهم موعودون بالاتحاد والاجتماع مع الأرواح الخيرة والملائكة وأرواح الناس الصالحين والنور والذات العليا بعد الوفاة.. شديدو الحرص على شريعتهم لتكون بعيدة عن النجاسة سواء المادية منها أو الروحية.. يؤمنون أن النفس حبيسة الجسد، والأخير فان والروح هي الخالدة.. ويتشددون في الوضوء والصلاة في الماء الطاهر.. وهم يمتنعون عن تناول أي طعام محرم مهما جاعوا.. ابتعدوا عن كل ما يدعو إلى الحرب وجنحوا للسلم.. ملكيتهم واحدة ويعملون بجد ونشاط..

يستحمون (يتطهرون) قبل تناولهم وجبات الطعام المقدسة.. يدفنون موتاهم باتجاه الشمال.. يراعون المقاييس الأخلاقية إلى أبعد حد، فعندهم الكذب مثلاً جريمة.. يرون أن الإيمان والعمل بالناموس يؤلفان معاً طريق الخلاص ومعرفة الذات العليا والاتحاد بها، ولا يكفي الإيمان وحده بهذه الحالة.. وعلى الفرد الأسيني أن يصون كتب الطائفة المقدسة وأن لا يفشي أسرارها.. وهم لا يهتمون بملذات الحياة المادية أبداً، ويعملون على كبح كل أنواع الشهوات المادية.. يحثهم دينهم على محبة كل أبناء النور.. لا يزاولون تقديم القرابين الحيوانية (الأضاحي).. أما اللغة التي كان يتكلم بها الأسينيون فهي الآرامية (أو إحدى لهجاتها).. تعرضوا لأذى كبير من قبل اليهود والرومان.. وهناك الكثير من النقاط حول معيشتهم وأفكارهم متضاربة، فمثلاً يرى البعض من الباحثين أنهم لا يتزوجون أبداً وإنما يتبنون أطفال غيرهم في سن صغيرة ويربونهم.. والبعض الآخر يرى أن عدم الزواج لديهم جريمة، ولكل فريق أدلته.. ولكن تبقى الأدلة الموثقة حول هذه الطائفة قليلة.

الهوامش

(١) القمرانيون، سموا كذلك نسبة إلى المنطقة التي اكتشفت فيها المخطوطات (خربة قمران).

(٢) المغاريون، سموا كذلك نسبة إلى وجود المخطوطات في الكهوف وعيش أصحابها في المغارات.

(٣) خربة قمران تقع على أرض ترتفع حوالي مائة قدم عن الطريق المعبدة، وعلى بعد ميل وربع من البحر الميت، ويمكن الوصول إلى قمران عن طريق السيارات من القدس، حيث تبعد حوالي عشرين ميلاً فقط.

(٤) من الاكتشافات الأخرى مجموعة من البنايات والمقابر تعود لطائفة الأسينيين، إضافة إلى عدد من المخطوطات النحاسية.

(٥) لقد استولت إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ على متحف "روكفلر للدراسات الشرقية" الذي يحتوي على مئات المخطوطات واللقى المختلفة من مناطق البحر الميت إضافة إلى متحف القدس، واعتبرته إحدى الغنائم الثمينة التي حصلت عليها بعد الحرب.

المصادر المعتمدة

(١) الكتب الدينية المندائية (مخطوطات باللغة المندائية).

(٢) العهد الجديد.

(٣) أصول الصابئة المندائيين ومعتقداتهم الدينية، للأستاذ عزيز سباهي، الطبعة الأولى، دار المدى، دمشق ١٩٩٦.

(٤) مخطوطات البحر الميت، محمود العابودي، الجامعة الأردنية.

(٥) الصابئة المندائيون، الليدي دراور، ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي، الطبعة الثانية، بغداد ١٩٨٧.

(٦) معجم الحضارات السامية، هنري س. عبودي، الطبعة الثانية، لبنان ١٩٩١.

(٧) جريدة الدستور الأردنية الصادرة في ٨ أيلول ١٩٩٩.

(٨) جريدة الرأي الأردنية الصادرة في ١٩٩٩/٩/٥.

(٩) زيارة ميدانية لمنطقة المغطس الأثرية وحديث مباشر مع مدير المشروع عالم الآثار الدكتور محمد وهيب والخبير المهندس رستم مكجيان.


أدب وفن

الملتقى الثقافي:

الوقت الأصعب.. والمهمة الأصعب

زهير الجزائري

بعد سنوات من ركود العمل الثقافي الجماعي [العراقي] في المنفى شهدت لندن في الفترة من ٣/٢٦ إلى ٢٠٠٠/٤/٣ تظاهرة ثقافية [عراقية]، تضمنت معارض، عروضاً سينمائية، أمسية ثقافة كردية، أمسيتين موسيقيتين، عرضاً مسرحياً ومحاضرات عن رواد الثقافة العراقية. وقد شهدت الأيام حواراً جدياً حول إقامة برلمان ثقافي وإعلان مبادئ مفتوح والتهيئة للملتقى القادم.

اختار موقعو بيان الملتقى الثقافي الوقت الأصعب لطرح بيانهم ومشروعهم الثقافي – السياسي:

فقد شهدت بلادنا بعد عشر سنوات من الحصار نزفاً حقيقياً لمثقفيها الذين عانوا من وطأة الحصارين: الحصار الخارجي الذي استنزف الطبقة الوسطى، صاحبة المشاريع التنويرية، جسدياً وروحياً خلال الركض اللاثب وراء لقمة العيش والدفاع من أجل استمرارية الحياة، وحوّل منتجي الثقافة إلى باعة لكتبهم على الأرصفة. يقابل ذلك حصار المؤسسات (الثقافية) السلطوية التي يديرها ابن الطاغية كغطاء عقائدي للأجهزة الأمنية المكرسة لحماية النظام.. ونتيجة الحصارين هي هجرة جماعية مدروسة لإفراغ بلادنا من كفاءاتها الثقافية. وقد شملت الهجرة أيضاً مثقفين كانوا حتى الأمس محسوبين على النظام ويديرون آلته الإعلامية.

وفي هذه الفترة شهد المنفى، كما هو الوطن، تهميشاً نموذجياً للمثقف العراقي المعارض من أية مشاريع أو حوارات سياسية. وبالتالي انفصالاً حاداً لم يشهده تاريخ العراق بين السياسي والمثقف، تحرك تأثيره على الطرفين: تراجع السياسي المثقف صاحب المشروع الفكري ذي الأفق الوطني البعيد، وصعود السياسي البراغماتي المتحرك والمتقلب حسب التوازنات دونما أفق وطني ثابت. قابل ذلك انسحاب دراماتيكي للمثقف من العمل السياسي، بل ومن أي عمل ثقافي جماعي وتفكك التجمعات الثقافية وانكفاء المثقف على مشروعه الثقافي الذاتي، أو دونما أي مشروع.

وقد جاء المشروع في فترة ركود ويأس من جدوى التجمعات الثقافية بعد إخفاقها في الحفاظ على ديمومة كيان ثقافي وطني خارج تأثيرات الأحزاب السياسية. ولكن ومع هذه المرارة، فإن هناك حاجة لأن يكون للمثقفين صوت وموقف من تدهور المشروع السياسي الذي يحكم حياتهم ومستقبلهم كمواطنين ومثقفين.

اختراقان

وقد أصبحت هذه الحاجة أكثر إلحاحاً بعد أن شهد المنفى اختراقين ثقافيين: **اختراق النظام** وبعض المتعاونين معه والذين استغلوا جو القطيعة بين المثقف والسياسي في المنفى وتفكك التجمعات الثقافية المعارضة للقيام بنشاطات ثقافية تحت لافتة (الحصار) وإقامة مراكز جذب على شكل صحف ومؤسسات تريد إبقاء المثقفين المهاجرين على صلة بمؤسسات النظام وذلك كخطوة أولى لما سماه سعدي يوسف "احتلال المنفى بعد احتلال الوطن" أو على الأقل تحييد المثقف المهاجر بين المعارضة والنظام.

و**الاختراق الثاني** من القوى التي ارتبطت بالمشروع الأمريكي لـ(تحرير العراق) والتي بقيت إلى فترة قريبة معزولة عن الوسط الثقافي، بما في ذلك العاملين في مؤسساتها الإعلامية.

قيمة البيان جاءت من أهمية الأسماء التي وقعته (مظفر النواب، محمود صبري، سعدي يوسف، ناهده الرماح، كاظم السماوي، فاضل العزاوي... الخ).

ورغم المنحدر اليساري لمعظم الموقعين على البيان، إلا أن دورهم في حركة الريادة الثقافية يتجاوز اليسار إلى الأفق الوطني الأرحب. لكن النزعة المثالية العقائدية أوقعت الموقعين في وهم التعامل مع الوسط الثقافي باعتباره كتلة منسجمة. وعبارة "تشتت المثقفين" التي وردت في البيان توحي بأن هذا التشتت ظاهرة عارضة ومرضية، وربما خطر للموقعين، اعتماداً على قوة حضورهم القدرة على إعادة لحمة الوسط حول النداء.

المثقف كضمير

وتوحي عبارات (مبادئ ثقافتنا الوطنية) بوجود قواسم مشتركة تجمع مثقفي المنفى مع موقعي البيان. لكن الواقع الوعر يكشف أن هذا الوسط، بما في ذلك الوسط الثقافي اليساري، شهد تغيرات وتفاوتات في النظرة السياسية والثقافية. وتكشف سلسلة الحوارات التي نشرتها (القدس العربي) عن تعارضات حادة في مواقف المثقفين العراقيين من القضايا الأساسية: الموقف من المعارضة، من الحصار الدولي، من المشروع الأمريكي، من جدوى التجمعات الثقافية ومن النداء نفسه. كما تكشف حجم الشكوك والمحاذير التي قوبل بها البيان والمشروع بكامله.

والوهم الآخر للداعين لهذا المشروع يأتي من رؤيا مثالية للمثقف يجسدها (الميثاق) الذي أعده الزميل (فاضل العزاوي) "تعتبر الثقافة الرصيد الروحي الأثمن الذي يشكل الضمير الحي للعراق سواء في الماضي أو الحاضر".وانطلاقاً من صورة الثقافة والمثقف كضمير انبثقت فكرة (البرلمان الثقافي) الذي أراد الداعون من خلاله إعطاء المثقفين دوراً منفصلاً عن السياسيين، باتجاهاتهم المختلفة ليشكلوا (لوبي) ضغط معنوي لمواجهة تردي العمل السياسي. والفكرة تقوم على تقسيم افتراضي يعطي للسياسي دوراً فئوياً "ويرتبط بحدث مصلحي مفرد" في حين تتوجه الثقافة والمثقف "للمجتمع كله مستهدفة خلق قيم إبداعية وجمالية وفكرية تتجاوز ما هو يومي وعابر ومرحلي: الميثاق".

والحقيقة إن ما يجمع السياسي والثقافي هو الفكرة المثالية التي يحاول كل منهما أن يسبغها على نفسه باعتباره صاحب قضية أبعد من متطلبات العمل اليومي، لكن الواقع الوعر يجر المثقف كما يجر السياسي إلى تواطؤات بعيدة عن الصورة المثالية التي يقيمها لنفسه. ويكشف واقع الوسط الثقافي أن العديد من المثقفين فاقوا السياسيين في تلمس حاجات المؤسسات التي ترتبط بها مصالحهم الآنية وفاقوا السياسيين في (مرونة) التحرك بين القوى والأحزاب والتنقل بينها حسب توازنات القوى.

وقد كان النقاش خلال جلسات الحوار أكثر واقعية من أوراق العمل المقدمة. فالحاجة إلى الحوار المطول والواسع أملت تأجيل فكرة البرلمان ليكون أكثر رحابة من الحاضرين! والحاجة إلى الرحابة والتعددية غلبت البنود الحدية في اشتراط عضوية البرلمان وموقعي الميثاق الذي تحول إلى إعلان مبادئ مفتوح..

مزيداً من الحوار، مزيداً من الاتصالات، مزيداً من المرونة والتسامح، ولكن مزيداً من اللقاءات.. بهذا النداء انتهى الملتقى الثقافي وانتهت أيامه الثقافية السبعة التي جمعت المثقفين والفعاليات الثقافية في عاصمة الضباب.

في العدد القادم..

قصائد جديدة.. لسعدي يوسف

مأساة الداخل... والخارج

عبده وازن

كنا في زمن ما نقرأ الشعراء والأدباء العراقيين المنفيين ونتألم لما يقاسون من أحوال خارج العراق الذي غادروه عنوة وفي ظروف مأسوية جداً. كان هؤلاء المنفيون يؤلفون حالة خاصة في الحركة الأدبية العربية، وكانوا يكتبون أدباً هو في الحين عينه أدب المنفى وأدب الإقامة. وبعض هؤلاء كانوا ولا يزالون في طليعة الحركات الشعوبية والروائية التي شهدها العالم العربي المقيم والمنفي. وعرفوا فعلاً كيف يستمرون في إبداعهم من غير أن يتحول منفاهم "المؤقت" إلى ذريعة لاستجداء الشعر واستجداء الموضوعات والقضايا الروائية أو القصصية. وكان لا بد للكثيرين منهم أن يلتحقوا في حركات التحرر العربية ليناضلوا مثلما ناضل سواهم وليخيبوا أيضاً مثل خاب سواهم ولا سيما في المرحلة الأخيرة، مرحلة الهزائم الداخلية والمآسي.

وظل أدب المنفى العراقي يمثل جزءاً مهماً جداً من الأدب العراقي العام، واستطاع بعض رواده أن يتخطوا رفاقهم المقيمين الذين كان لهم حضورهم المميز. وما لبث المنفى أن جذب عدداً من الأسماء الكبيرة ومنها من لم يكن بعيداً عن السلطة في مرحلة ما. فالإقامة في الداخل تحت ظل الحكم الواحد والهيمنة السياسية الواحدة أضحت أقسى من المنفى وأشد وطأة وظلماً. وراح هكذا يتسع المنفى العراقي ليشمل بعض الذين لم يبق لهم في وطنهم ما يسندون إليه رؤوسهم ولا ما يواسيهم ويثير فيهم الرغبة في الحياة أولاً وفي الكتابة أو الإبداع ثانياً.

غير أن الخراب الذي دفع هؤلاء إلى الخروج من أرض الماضي والذكريات سرعان ما ازداد مجتاحاً حياة المقيمين الذين أصر بعضهم على الإقامة ولم يتح لبعضهم الآخر أن يهاجر. وما لبثت الإقامة في الداخل أن استحالت منفى داخلياً بل جحيماً داخلياً بعدما اشتدت المأساة وحرمت المواطنين من أبسط حقوقهم العادية. وبين الحصارين السياسي الداخلي والسياسي الخارجي أصبحت الحياة في العراق قاتمة كالموت، كئيبة وقاحلة. وبتنا نقرأ كل يوم ما لا يصدق من أخبار أليمة ومأسوية عن أناس لا يستحقون أبداً مثل هذا القدر.

وفيما كنا نقرأ بعض أدب المنفى العراقي بألم بتنا الآن نقرأ بعض أدب "الإقامة" بألم فائق. فالكتابة داخل العراق باتت تشبه الكتابة في المنفى إن لم تكن تفوقها سوداوية ويأساً. بل إن المنفى الداخلي أشد قتامة وأشد هولاً وبؤساً من المنفى الخارجي. فالكتابة في المنفى الخارجي هي في معنى ما استعادة لماض كان، لزمن محفور في الذاكرة، لأحلام غابرة. إنها تعيد بناء عالم على أنقاض عالم قديم لم تبق منه إلا الصور والأطياف. أما الكتابة في المنفى الداخلي فليست إلا مواجهة يومية للمأساة، مواجهة سافرة للموت والخوف والإرهاب الذي لا يرحم. وقد يجد منفيو الخارج بعض الفسحات للتأمل والحنين وبعض الوقت للاستيحاء والكتابة. أما منفيو الداخل فهم محكومون باليأس واللاجدوى، يكتبون كي يؤجلوا موتهم، كي يهدموا بالوهم الجدران التي تحاصرهم من الجهات كلها.

هكذا قرأنا ونقرأ دوماً ما يتاح له أن يصلنا حيناً فآخر من أدب "الداخل"، أدب المنفى الداخلي، وهو في معظمه أدب خال من الجمالية والمتانة اللتين كثيراً ما وسمتا الأدب العراقي الحديث. بل هو أدب مكتوب لحينه، أدب عفوي ونزق طالع من جحيم الموت والخواء. "اكتب. الكتابة نزهة. الكتابة خلاص"، يقول أحد الكتاب مخاطباً نفسه ومعزياً نفسه بما بقي له من رجاء قليل هو رجاء الكتابة في معناها الأليف والعادي جداً. تصبح الكتابة وسط الحصار الشامل نزهة فعلاً، نزهة داخل حطام اللغة وحطام المخيلة وحطام الحياة. ولا غرابة أن يطغى معجم معين على معظم ما نقرأ من هذا الأدب: الحقيبة، الباب، النافذة، الظلمة، الجوع، الخراب... وهو معجم يدل على فداحة الحياة التي تعاش كما لو أنها سلسلة من الهفوات والآلام والمآسي.

يخاطب أحد الشعراء وطنه ببساطة كلية قائلاً: "أما زلت وطناً؟" وكأنه يحاول أن ينتقم لنفسه ولوطنه مما حصل ويحصل أمام عينيه. ويعرب شاعر آخر عن خوفه من أن يستيقظ يوماً فلا يجد العالم. ويحلم آخر أن "يغلق نافذة القلب" وأن "يغادر تحت رذاذ الظلام".

قد لا يكون ما يصلنا من أدب المنفى الداخلي من أفضل ما يكتب الآن في العراق، لكنه يعبر خير تعبير عن المأساة التي يكابدها المواطنون هناك. فالأسماء التي نقرأ لها هي في معظمها من الأجيال الجديدة التي تفتحت داخل الحصار... أما الأسماء المعروفة فنادراً ما نقرأ لها، وبعضها طبعاً من خيرة الأسماء في العالم العربي.

وإن بتنا كقراء في حيرة تامة أمام المنفى الخارجي والمنفى الداخلي فإن المأساة تظل واحدة ويظل المنفى واحداً كذلك: داخل الوطن وخارجه، داخل الكتابة وخارجها أيضاً.

عن "الحياة"

٢٠ كانون الأول ١٩٩٩

بيان من المثقفين المشاركين في ندوة الثقافة الجديدة
دفاعاً عن حرية التعبير وإدانة حملة تكفير الروائي حيدر حيدر

نحن الموقعون أدناه من المشاركين في ندوة مجلة "الثقافة الجديدة" حول "الإسلام السياسي والدولة" التي عقدت في مدينة روتردام في هولندا بتاريخ ٣ يونيو/ حزيران ٢٠٠٠، نلاحظ بقلق الاضطهاد الذي يتعرض له بعض العاملين في الميادين الأكاديمية والثقافية والفنية في الأقطار العربية بسبب بحوث ينجزونها أو أعمال إبداعية يكتبونها أو أعمال فنية يؤدونها، والذريعة هي دائماً ذاتها: الإساءة للدين والدعوة للكفر وخرق المحرمات الأخلاقية. وكان آخرها حملة تكفير الروائي السوري حيدر حيدر بعد صدور الطبعة الأخيرة من روايته "وليمة لأعشاب البحر".

ومن المؤسف أن يصدر أحياناً التحريض ضد هؤلاء المثقفين من قبل بعض القوى والحركات والشخصيات الإسلامية التي تتعرض لسجن وتشريد يلحق الظلم بكل من يحاول التعبير بحرية عن أفكاره وآرائه ومواقفه.

إننا إذ نطالب بسيادة دولة القانون وترسيخ روح التسامح ونشجب كل أنواع الممارسات التعسفية، فإننا ندين الممارسات الظالمة والتشهيرية بحق المثقفين في كل البلدان العربية بسبب آرائهم الشخصية واجتهاداتهم العلمية وإبداعاتهم الفنية.

الموقعون:

- د. نصر حامد أبو زيد (كاتب وأستاذ جامعي)
- واسيني الأعرج (كاتب وأستاذ جامعي)
- ياسين النصير (كاتب وناقد أدبي)
- د. فالح مهدي (كاتب وباحث)
- د. حسين كركوش (ناقد أدبي)
- د. حسين عبد علي (أستاذ جامعي)
- هادي محمود (صحفي وعضو مجلس تحرير مجلة الثقافة الجديدة)
- رائد فهمي (رئيس تحرير مجلة الثقافة الجديدة)
- جواد الأسدي (مخرج مسرحي)
- د. علي ابراهيم (ناقد)
- قاسم الساعدي (فنان تشكيلي)
- د. وثاب السعدي (قانوني – رئيس المنتدى العراقي في فرنسا)
- عبد السلام حسن عبد السلام (حقوقي، الرئيس السابق لجمعية حقوق الإنسان في السودان – فرع بريطانيا)
- طه رشيد (مسرحي)

إن ما عشته في بغداد هو كل حياتي...

(حوار مع الكاتب سمير نقاش)

سرمد عز الدين

يصف الروائي العربي الكبير نجيب محفوظ الكاتب سمير نقاش بأنه "أفضل أديب في إسرائيل يكتب بالعربية".

ولد سمير نقاش في بغداد عام ١٩٣٩، وترك العراق مرغماً عام ١٩٥١ وله من العمر اثنى عشر عاماً.

بلغة عربية فصيحة أو لغة عامية هي لغة يهود العراق، يكتب سمير نقاش قصته أو روايته أو مسرحيته.. إن كتاباته تزخر بعامية العراق ومأثوراته المحلية وأمثاله الشعبية، يطلقها دون تردد، فهو ملم بكل ذلك وبأسرار موقعها في القصة والحكاية.

نشر بالعربية حتى الآن أكثر من اثنى عشر كتاباً، بين القصة والرواية والمسرحية، ورغم ذلك لم يُنشر من ترجماته إلى العبرية سوى كتاب واحد هو مجموعته القصصية العراقية "يوم حبلت وأجهضت الدنيا"، قامت بترجمته شقيقته روث نقاش ونشرته دار "سفريات بوعليم" عام ١٩٨٥.

إن تجرد الإنسان من الأشياء التي ينتمي إليها فتلك مأساة، لكن أن يُسلب الإنسان نفسه فتلك كارثة حقاً وأنا أبتدئ منها أولى كلماتي، لكي أحاور الأديب سمير نقاش ذلك المواطن العراقي "اليهودي" المصر على عدم التفريط بمواطنته العربية العراقية، وهو يتشبث بها رغم جنسيته الإسرائيلية. تقدمتُ نحوه بأسئلة بسيطة شكلت لي معه هذا اللقاء:

■ ماذا تبقى في ذهن سمير نقاش من ذكرياته عن بغداد، بعدما يقارب النصف قرن من الزمن؟ وكيف يسترجع هذه الحياة في أعماله الأدبية؟

■■ في أكثر من مقابلة قلت إن ما عشته في بغداد، هو كل حياتي وإن كل ما تلا ذلك هو ظل لهذه الحياة.

ومن حسن الحظ أن ذاكرتي ترجع إلى سن مبكرة جداً، فأنا أذكر بوضوح أحداثاً عشتها قبل

أن أبلغ العامين من عمري، ومنذ ذلك الوقت وحتى النزوح عام ١٩٥١ عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري، أذكر كل شيء بعمق ووضوح وكأنه حدث الآن. لا أذكر الفترة التي عشناها في البيت الذي يسميه أهلي بـ(بيت حجي ساهي) بالبتاوين، حيث ولدت، لكنني أذكر الفترة القصيرة التي عشنا خلالها في (بيت سعيدة)، قريباً من (بيت حجي ساهي) المذكور. وقبل أن أبلغ العامين من عمري أحببت "ابنة الجيران". كانت صبية لا أستطيع الآن أن أحدد عمرها، لكن شكلها وطلعتها يومذاك ظلتا عالقتين في ذهني دائماً. كان لتلك الصبية خصل طويلة من الشعر وتعلقت بها لدرجة أنني لم أكن أستطيع النوم إلا في أحضانها. أذكر أنني كنت أمسك بخصل شعرها وأمتص شفتي حتى أنام. وأعتقد أن هذا كان حباً جنسياً بكل معنى الكلمة. وقد تطرقت لهذا ولظاهرة ذاكرتي المبكرة في روايتي (غورة الملائكة).

بعد فترة قصيرة انتقلنا إلى "بيت الشط" سميناه هكذا لأنه كان قريباً من دجلة. كان يقع في ظهر كازينو ليالي بغداد، وأمامه عدة درجات مستديرة، وعندما ذهبنا لرؤيته عثرت وارتطم حنكي بإحدى درجاته وما زالت الندبة في أسفل حنكي تذكرني بتلك السقطة. في هذا البيت، ورغم السنوات القليلة التي أمضيناها فيه قبل انتقالنا إلى فيلتنا التي بنيناها عام ١٩٤٤ على أرض السباق القديم بالسعدون، وقعت أحداث كثيرة شديدة الأهمية بالنسبة لي هنا، (وليس بيت سعيد كما ذكوت في روايتي (نزولة وخيط الشيطان). عاشت عائلة القراوجي بجوارنا وكنت أرى (جودي) كما وصفته في الرواية المذكورة، وأمه وهي تفلي له ثيابه. لكن إخوته كانوا رجالاً عقلاء أشداء وقفوا شاكين سلاحهم لحراستنا في يومي الفرهود الذي وقع فور انتقالنا إلى هذا البيت، لكن "المفرهدين" لم يصلوا إلى منطقتنا لحسن الحظ.

لقد كنت طفلاً مدللاً بكل معنى الكلمة، كان أبي يمتلك شركة للسيارات وغياراتها مع شريكه (صالح عبد) كما كان شريكاً مع بعض الشيوخ المعروفين في بعقوبة المعروفة ببساتينها. كنت أحب الشكولاته وكان أبي يأتي مساءً يحمل علب أحذية ثقيلة ويقول لي "جيبتو لك جكليت" وإذ أفتح علب الأحذية أجدها مليئة برزم الأوراق النقدية. كنت ألعب بهذه النقود حقيقة وليس مجازاً، ثم أملها فأرميها عني بضيق ذرع، كانت لي سيارة صغيرة حمراء من طراز (رولز رايز)، وكان بستان "أبو خشيع"، وهو من أكبر وأحسن بساتين بعقوبة، وينتهي طرفه البعيد عند نهر ديالى، يسمى بستاني — كانت والدتي رئيسة دورة للقابلات في مستشفى (المجيدية الملكي)، ثم (الكفاح؟!) وكانت متخصصة بالقبالة وطب العيون ومساعدة بغرفة العمليات، وبعد زواجها انتدبت، وهي حامل بي، لتدير وحدها المستوصف في منطقة (المحاويل).

سافرت إلى هناك مع جدتي لكنها سرعان ما أصيبت بالملاريا بسبب الظروف الصحية هناك فاستقالت، وأخذت تمارس مهنتها بشكل مستقل. أما خالتي فكانت رئيسة قسم الولادة في المستشفى اليهودي (مئير إلياس) كانت والدتي تصحبني دائماً إلى السينما لمشاهدة أفلام شيرلي تمبل وتشارلي شابلن وطرزان وغيرها. أما خالي فكان يأخذني، وأنا بعد في الرابعة من عمري، إلى الملاهي الليلية والمقاهي والسيركات. عرفت في هذه السن المبكر فرقة (جعفر آغا لقلق زادة)

الكوميدية. كما كان يأخذني كل سبت تقريبا إلى بعقوبة، إلى أصدقائنا وشركائنا هناك، ولما تزوج في هذه الفترة انصرف عني إلى زوجته، فاعتبرتها منافسة خطيرة لي.

بالإضافة إلى ظاهرة ذاكرتي المبكرة جبلت على ظاهرة أخرى لا تفسير لها. كان الكتاب يجذبني إليه كالمغناطيس، وقبل أن أعرف القراءة، ولحسن الحظ عرفتها في سن مبكرة جدا. كان الكتاب لعبتي المفضلة بحيث دمرت الجزء الأكبر من مكتبة والدي. وكنت حين أمضي معه في سوق السراي تستوقفني الكتب دون أن أعرف كنهها، فكنت أطلب من والدي أن يشتري لي كتابا معينا أثار فضولي، فكان يشتريه لي على الفور. بلغ انجذابي إلى الكتب لدرجة أن عائلتي التي اصطحبتني معها لزيارة صديق انتدب للعمل بشركة النفط بكركوك اضطرت للعودة إلى بغداد فور وصولها إلى هناك. كان لهذا الصديق مكتبة جذبتني إليها كالعادة. وخوفا من أن "أدمرها" كما دمرت مكتبة أبي، عاد أهلي إلى بغداد فور وصولهم إلى كركوك.

أدخلتني أمي مع شقيقتي المدرسة وعمري أقل من أربعة أعوام وأختي أقل من الثالثة، وكان الدكتور (ألبير حكيم) صديق العائلة يقول لها: "بهذه السن لن يأتي الطفلان إلا بالأمراض والجراثيم من المدرسة". كانت المدرسة، مدرسة يهودية خاصة هي (مدرسة التعاون) وفي اليوم الأول بالمدرسة على ما أذكر رأيت طفلة تبكي في الصف (الذي كان يشبه الروضة) فشارت رأفتي بها وتقدمت منها وقبلتها ببراءة، لكن المعلمة التي رأتني أفعل هذا عاقبتني بالوقوف ووجهي إلى الحائط طوال الدرس. وقد جعلني هذا العمل الجاهل من قبل المعلمة أرتد عن الجنس الآخر وأهرب. واستمر هذا الوضع لدي حتى سن المراهقة. بعد سنة أو سنتين في (مدرسة التعاون) نقلني والدي إلى مدرسة فسيحة في حي السنك هي (مدرسة النجاح) التي كان يديرها طاقم تربوي نموذجي بإدارة (فؤاد فوقي). جاء الطاقم من لبنان وأقام مدرسته هذه وتعويضا عن دروس الدين جاء أهلي لي بمعلم اسمه (كرجي جلوبة) رافقني منذ سن الرابعة وحتى النزوح وعلمني التوراة والصلوات واللغة العبرية. كان (كرجي) هذا في البداية يحمل معه دبوسا ينخزني به كل وهلة، وهو يقول لي: "إقا - إقرأ" حتى انفجرت باكيا بعد فترة، فتوقف عن عادته العدوانية الكريهة هذه، وقد كتبت عنه وعن كثير من أصدقائنا في قصتي الطويلة (أنا وهؤلاء والفصام) التي تتميز بطابع السيرة الذاتية، وقبلها قصتي (ليلة عرابا) وقصة (طنطل).

في "بيت الشط" واجهت الموت لأول مرة.. كان جيراننا من الطرف الآخر عائلة (أبو فؤاد). كان (فؤاد) أكبر مني بأعوام، وقد علمني لعبة الشطرنج. أذكره وأخاه وأخته والوالدين. كانوا جميعا نحافا طوالا و(أبو فؤاد) بالذات كان شاحبا رقيقا لم نلبث أن سمعنا برحيله عن العالم. ما زالت صورة باقي العائلة منطبقة بمخيلتي – صورة كلها ثياب سوداء. منذ ذلك الحين أخذت أكتشف عبثية العالم. وما إن تعلمت القراءة حتى قرأت أحد الكتب التي اشتراها لي أبي من قبل أن أعرف "فك الخط" كان هذا كتاب إيف كوري (التلميذة الخالدة) الذي يروي قصة حياة أمها ماري كوري التي تعلمت بالسوربون واكتشفت الراديوم. وبسذاجة الطفولة كنت أحلم بالدراسة مثل (مدام كوري) بالسوربون فأصبح عالما يقهر هذا الموت الذي يفتك بالبشر ويجعل الحياة بلا معنى. وكبرت

بسرعة. وبعد كارثة النزوح وما خلفته من مآس تبددت أحلام الطفولة الساذجة، لأصبح مجرد "حلو" يتلاعب بالكلمات. في هذا البيت أيضا أصبت بالحصبة وحسب العادات المتبعة في مثل هذه الأحوال ألبستني أهلي الثياب الحمراء ودثروني وتجولوا بي بالسيارة في أرجاء بغداد، ثم أخذوني إلى المسلخ حيث الدماء الحمراء. فيما بعد، وبعد تخصصي بالفولكور، علمت بأن هذه الممارسات تسمى (السحر التعاطفي) إذ آمنوا بأن نظير الشيء يمكن أن يقضي عليه... وكنا إذا أصبنا بالطرقة (الفزع) أخذونا إلى المنشر (من نشرة وهي الرُقية) فيضع يده على رؤوسنا ويرقينا ثم يهمس بآذاننا بأشياء ويربط أشرطة من قماش أسود على أذرعنا، كما اعتادوا سكب الماء في مكان (الطرقة، الهبطة) ثم يدهن صدر المهبوط بصدره وصدغه وجبينه وظهر يديه وقدميه بذلك الماء كما كان "الرصاص" يذاب على النار ويصب، في طاسة توضع على رأس المهبوط أو المعيون (المصاب بالعين)، ثلاث مرات، ويدهن الصدر بماء الطاس. كانت "شورات" العيون تنتابنا بسبب الحر الشديد و"العجات" الرملية. وكانت والدتي تعالجنا علاجا طبيا بحتا، فكنا سرعان ما نشفى.

في عام ١٩٤٤ بدأنا بتشييد بيتنا على أرض السباق القديم في السعدون، وكانت خلاء يمتد إلى السدة التي نصب المعدان وراءها صرائفهم. أشرف خالي على البناء الذي استغرق ستة شهور. كل يوم تقريبا، كان باص المدرسة – وهو من باصات والدي – ينزلني عند موقع البناء. رأيت كيف تكون الصلابة والسعة. تابعت البناء من الأسس التي غارت أكثر من متر في باطن الأرض، فالجدران التي بلغ سمكها أكثر من نصف متر حتى السقوف فالأسطح. ويوما أقال خالي صبيا عاملا، فبكى الصبي وتوسل، حتى أثار شفقة خالي فأعاده إلى العمل. وفي الغد، واعترافا بالجميل، جاء الصبي بهدية هي عبارة عن "جرو" كلب، بودل وسخ قد امتلأت فروته البيضاء بالشوك والعوسج وغدت سمراء من كثرة الوساخة، نظف أهلي الكلب، وقصوا فروته، وربطوه بعد أن سموه "روكسي". وخلاف القوانين الطبيعية كبر البودل إلى حجم هائل واكتسب قوة هائلة. ولما انتقلنا إلى بيتنا الجديد كان يحبس في النهار بشرفة الطابق الثاني، وإذ يحين الليل يطلق من محبسه فيعدو إلى الحديقة فورا ويحرسها. كان شرسا هائل القوة دفع عنا اللصوص وأثار ضجر "الجرخجية" الحراس حتى سمموه، ولما مات بكى عليه كل من في البيت، ولكن بسبب عدم التأكد من علة موته فرض على العائلة كلها بالتوجه يوميا إلى مستشفى "المجيدية" ولمدة أسبوع لتلقي حقنة في البطن ضد داء الكلب. كان الأمر ممتعا. فقد كنا ننطلق بالغناء طوال الطريق المؤدي إلى "المجيدية". كان بيتنا هذا منتدى للناس من جميع الطبقات والأديان... وكنت أحضر جلسات الرجال والنساء، أستوعب الأحداث واللهجات. كان ثم قبلات نسائية وحفلات "وعزائم" لا تنتهي..

هنا قرأت وشقيقتي الكبرى آلاف الكتب من الأدب العالمي المترجم، الفرنسي والروسي والإنكليزي، والأمريكي وكل ما وقع بأيدينا. وفي سن الثامنة طلبت من أبي أن أقرأ (ألف ليلة وليلة)، رضخ بعد إلحاح مني بشرط أن لا أقرأ قصصا معينة فوعدته وبعد سنوات عندما قرأت القصص "المحظورة" أدركت كم كان أبي صادقا. هنا أيضا استوعبت مئات وآلاف القصص الشعبية من جدتي وخالتي وعمتي ووالدتي. وكل هذا كان عاملا رئيسيا في بلورة أدبي، ازدادت رحلاتنا إلى بساتين بعقوبة، كنا نذهب مع طواقم المدرسة وجوقنا الموسيقي والمغنيات والراقصات، فكانت في

فضوة مظللة بأشجار توت وتين عملاقة، وطعامنا قوزيات محشوة بالرز والدجاج. أحيانا نصطحب طواقم أطباء المستشفى الذي تعمل فيه خالتي، وأحيانا الأقارب والأصدقاء. كثيرا ما كان يحدث هذا في نهاية كل أسبوع، هكذا كانت تصلنا سلال الفواكه من بساتين بعقوبة رأسا. ورغم توفر الثلاجات والأفران وغيرها، فقد جمع بيتنا أيضا التقليدي القديم إلى جانب العصري الحديث، كانت المنقلة "البرونزية" في ليالي الشتاء الباردة تقبع على صينيتها متوهجة الجمر على الزوالي (السجاد)، توضع على جمرها قشور البرتقال الجافة لتمتص ثاني أوكسيد الكاربون، وتبث رائحة زكية، رغم توفر الأطعمة الجاهزة المحفوظة والثلاجات في بيتنا، كان أهلي يعدون المربيات ومعجون الطماطة والطرشي والأجبان ويجففون الخضروات، وكل ذلك كان يحفظ في السرداب، في أيام الحر، بجسوار "البنكات" – المراوح، كنا ننزل إلى السرداب وقد وضعت على شبابيكه وسائد "العاكول" فكان الهواء القادم من الشبابيك المشرفة على الحديقة يأتي باردا رطبا. أما أنا فكنت أفضل الاختلاء بغرفتي في الطابق الثاني أقرأ وأتأمل وأكتشف المزيد من عبثية الحياة، وأتعرف من تلقائي على فلسفة الوجودية التي تعرفت عليها بعد سنوات طويلة من خلال (جان بول سارتر) وغيره من الوجوديين.

عدا رحلاتنا المتتالية لبعقوبة، كانت لنا أيضا رحلات للحلة والكفل (مرقد الكفل) والبصرة والعزير (مرقد عزرا الكاتب). ومرة عند عودتنا من الحلة توقفنا عند أطلال بابل وكلم أبي حارس المتحف وهو رجل عجوز يعتمر كوفية، قصير القامة نحيفا أعطاه والدي بعض المال ولما استقللنا السيارة قال أبي هذا هو الشقي المعروف (ابن عبدكة). وهكذا قدر لي وأنا صغير أن أرى رؤية العين هذا الشقي الذي تضرب به الأمثال.

في صيف ١٩٤٨ سافرنا إلى الموصل لنصيف شهرا. كان الحر هناك أشد من حر بغداد بحيث سالت إحدى اسطوانات التسجيل الموجودة لدينا في غرفة الفندق بعد تعرضها لأشعة الشمس! أحد أصدقائنا البغداديين (داود) كان يعمل بقطار الموصل، فرتب لنا سكنا في بيت (نعيم دنوس) في محطة القطار.

كان (نعيم دنوس) الذي كنا نسميه "دبوس" مديرا للمحطة وكانت زوجته تطعم طفلتها بيضة برشت (نصف مسلوقة) فتأكلها عوضا عنها، كان من عاداتنا الذهاب لعين الكبريت كل يوم مصطحبين ركية (بطيخة حمراء) نحملها على حمار لثقل وزنها، نتبع السباحة بالعين بنزهة نهرية مصحوبة بأغنية (سعادكن ماتت). مكثنا شهرا زرنا خلاله (حمام العليل) و(مرقد النبي يونس) بنينوى وزرنا مرقد النبي (ناحوم) في (القوش) حيث يتكلمون الآرامية الجبلية، لم نستطع تناول أرز الموصل فجلب لنا داود المذكور كيسا من أرز بغداد العنبر.

تعرفنا بالموصل على يهودي يدعى (زكي). وكان داود يحمل لنا الهدايا والمصوغات منه كلما عاد من رحلة القطار للموصل! ويوم رحيلنا أو قبله بيوم زارنا (زكي) ببغداد يحمل معه الجوز والزبيب، أخذنا هذه الهدية معنا إلى إسرائيل وما إن رأوها بالمطار حتى أجهزوا عليها من كل جانب. لم نكن نعرف أن ليس فقط الجوز والزبيب كانا معدومين هنا، فحتى من كان يحمل بيضة أو دجاجة غير مشروعة كان يحاكم بالسجن!!...

في عام ١٩٤٨ بالذات بدأ تفتيش منازل يهود بغداد والافتراء عليهم بالتهم وحبسهم واضطهادهم كجزء من مؤامرة (بن غوريون – نوري السعيد) لترحيل يهود العراق. اضطررنا أن نحرق أسفار صلواتنا، لأنها بالعبرية، وأحرقنا صورا نادرة، لأنها كانت تشمل إلى جانبنا أناسا ليسوا من العائلة. واعتقل معلمي (كرجي جلوية)، لأنه كان يعلم العبرية، ثم أطلق سراحه بعد أن علق بمروحة سقف وتم تشغيلها بأقصى سرعتها. وفي هذه الأثناء منع يهود بغداد من مغادرتها، فكنا نجوب أنحاء العراق بسيارات شركائنا المسلمين المقربين من السلطات العليا. ازدادت دعوات أصدقائنا من شخصيات بغداد وتضمنت كل "عزيمة" عدد من الذبائح وإعداد الأطعمة اليهودية الخاصة التي كان يحبها إخواننا المسلمون ويستغرق إعدادها أياما في بعض الأحيان. وأكملت البكالوريا الابتدائية وعمري ١٠ سنوات ودخلت مدرسة (فرانك عيني) القريبة منا، فكنت كل يوم أجتاز بارك السعدون عند الذهاب إليها.

وبعد الإعداد الدقيق لتحضير يهود العراق لمغادرته (إقالة الموظفين وإلغاء رخص التجار والاضطهادات) صدر قانون إسقاط الجنسية. لم يفكر أهلي بالسفر، لكن خلو بغداد من معظم يهودها حدت بهم إلى التسقيط في أواخر أيامه. كان هذا يوم ٢١ كانون الأول ١٩٥٠ وأذكر أن الضابط العراقي، الذي جلس مع موظفين يهود في أحد الكنس ليمارسوا عملية إسقاط الجنسيات، نعى لأهلي الملكة عالية، واستقبلت والدتي صديقاتها المسلمات فأقمن العزاء على الملكة، وكأن النزوح القريب لن يأتي أبدا.

بعد إسقاط جنسيتنا جمدت الحكومة كل أملاك اليهود المسقطة جنسياتهم، وفي الأشهر الباقية، كان الحزن يعتري والدي الذي كان يصحبني معه إلى (مقهى الشط) المعروف، فيدخن النارجيلة ويبقى ساهما متأملا نهر دجلة، أذكر من المقاهي أيضا (مقهى الشاهبندر) في الميدان، وكان يعجبني فيه أن أتأمل الببغاوات الضخمة الزاهية التي تخرج من أقفاصها المتدلية من سلاسل في السقف فتتسلق هذه السلاسل ثم تعود إلى الأقفاص.

في مساء السبت ١٩٥١/٦/٢ تركنا البيت وكل ما فيه، عدا عدة حقائق معدنية، إلى مركز تجميع المسافرين في كنيس (عزرا داود). ومن هذا المكان بدأت الكارثة، قال أحد الشبان الصهاينة لجدتي، وقد سال لعابه لساعتها: "هاتي هذه الساعة، إذ ماذا ستفعلين بها وأنت إلى القبر أقرب؟!" قلت لجدتي: "إياك أن تعطيه شيئا "، هب الصهيوني وصفعني على وجهي قائلا: "وأنت أش صخام وجهك"، بهت أهلي وأراد أبي بناء على نصيحة ضابط حضر الحادث أن نعود كلنا إلى البيت لتقديم شكوى ضد المعتدي، لكن الأوان قد فات، استيقظت من الصفعة على أنوار منعكسة على مياه دجلة الذي كنت أقطعه سباحة ذهابا وإيابا، أيامها كنت في السابعة من عمري، شريت المناظر التي سأفقدها ربما إلى الأبد. وفي الصباح استيقظت مع أهلي على الصدمة والمأساة التي لم تنته حتى الآن.

■ **كيف تعرف نفسك للجيل الجديد من الأدباء العراقيين؟ وما هو مدى تأثيرك في هذا الجيل كأسلوب وشكل للكتابة؟**

■■ أنا كاتب عراقي شمولي المضامين. تبدأ شمولية مضاميني من شدة صدقي وأمانتي لعراقيتي، وإيغالي في المحلية لدرجة تفضي بي إلى هذه الشمولية. أما التأثير في الأسلوب والأشكال فموجود دائما عند كل أديب يقرأ عملا أدبيا، ولا يهم لمن يكون هذا العمل.

لا شك في أنني أثرت في أدباء كثيرين يكتبون بالعربية وليسوا عراقيين بالضرورة. إن هذا الأمر يتوقف على مدى قراءة الأدباء العراقيين من النشء الجديد لأعمالي، بل لنقل إنه يتوقف على من قرأني دون استثناء. أما الرد المباشر على سؤالك فلا أستطيع تحديده، لأنني لم أطلع على معظم ما كتبه الجيل الجديد من أدباء العراق، ولأنني أفترض أيضا أن معظم هؤلاء ولا سيما الذين ما زالوا يعيشون في العراق لم يصلهم نتاجي أيضا.

■ الواقع العراقي كان مدخلا إلى العالمية، وإنسانيتك هل تجاوزت من خلاله أزمة الصدق والأمانة من أجل إبداع فن إنساني بعيد عن الهواجس الأصولية؟

■■ الأدب الإنساني العالمي لا يحتاج إلى تجاوز الصدق والأمانة، إلا أننا، أحيانا، نحتاج إلى تعريف جديد للصدق والأمانة. إن اللامنطق والرمز وسيولة الأفكار وفوضى الواقع وتسيبه ولامنطقيته أحيانا.. كل هذا من عناصر الأمانة في تصوير حياتنا. أما الكتابة الفوتوغرافية والواقعية وأشكال أخرى تقليدية من الأدب، تدعي الصدق والأمانة فإنها أبعد ما تكون عنهما، لأننا لو تمعنا بحياتنا نجد أنها كل ما ذكرته من عناصر أدبية حديثة. ولقد أوضحت هذه الحقيقة في مقدمة مجموعتي (حكاية كل زمان ومكان) وفي عدة مقابلات إعلامية. أما الإيغال في المحلية، فهو، كما قلت، من عوامل الإفضاء للشمولية، وأعمال صديقي العظيم (نجيب محفوظ) خير مثال على ذلك، والدليل على عالميتها حصوله على (جائزة نوبل) قبل سنوات.

■ أنت كاتب تكتب بالعربية كلغة الأم، وبالعامية العراقية كخصوصية، إلى أي مدى تأثرت بالأدباء العرب والعراقيين؟ وإلى أي نوع من هؤلاء الأدباء تنتمي؟ وكيف ترى القواسم المشتركة بين أبناء جيلك؟

■■ أعتقد أن العامية هي الأصل وأن الفصحى هي اللغة الخصوصية. إننا عندما نكتب بالفصحى فإننا نترجم وليس العكس. اللهجات العربية كانت موجودة منذ وجدت العربية ذاتها، ولغتنا الفصحى اليوم تعتمد على لغة القرآن، وهي بحد ذاتها لهجة من لهجات العربية، إنها لهجة قريش. أما عن تأثري بأدباء آخرين سواء أكانوا عراقيين، أم عربا، أم عالميين فهو أمر لا شك فيه، لكنني لا أستطيع تحديد الأدباء الذين تأثرت بهم، فنحن نتمثل العمل الأدبي الذي نقرأه، وقد نختزن أساليب وتقنيات في عقلنا الباطن ربما يتسلل إلى كتاباتنا بعضها دون علمنا. لذا أحرص، أثناء الكتابة، على تجنب كل قراءة خوفا من التأثير المباشر.. مع ذلك فلقلة ما قرأته من أعمال عراقية وركتها أحيانا، يمكن القول إن تأثراتي لم تأت من العراقيين بالذات. لقد أعجبت بأدباء كنجيب محفوظ ويوسف إدريس فضلا عن بعض العالميين الأجانب. ولذا فأقول مطمئنا إن معظم تأثراتي، لو وجدت، فإنها تأثرات بالأدباء الذين أعجبت بهم وتابعت أعمالهم من البداية حتى النهاية.

هذا ولا أخالني أنتمي لمدرسة معينة من مدارس الأدباء من أبناء جيلي، لأنني أتبع طريقة التجريب، وأحاول كتابة شيء جديد كلما كتبت، بحيث أن التباين، حتى بين أعمالي ككل، يبدو واضحا.

▪ كيف تنظر إلى الأدب العراقي المعاصر في شقيه: الكتاب العراقيين في الداخل، والكتاب العراقيين في الغرب أو المهجر، وما هي السمات التي تعلل بها ذلك؟

▪▪ إذا اعتبرنا الأدب إنسانيا شموليا، وجدنا أنه لا توجد هناك مشكلة "أدب مهجري". هذا النوع من الأدب لاحظته عند بعض الأدباء والشعراء العراقيين الذين لاقوا في "مهاجرهم" الأمرين، ومهما يكن فأنا أعارض الالتزام في الأدب، وأتجاوز المعاناة الذاتية إلى المعاناة الجمعية الإنسانية.

إني أطرح قضية إنسانية يفهمها السويدي مثلما يفهمها العراقي، وقد تأتي هذه القضية أحيانا عن طريق أحداث غارقة في المخيلة... هنالك أدب عراقي جيد لكنه لا يصل في شقيه (داخل العراق وخارجه) إلى مستوى الشعر العراقي سواء في الداخل أو الخارج، فالشعر العراقي قد بلغ مستوى عالميا بلا شك، وقد وصف لي الأديب المصري الكبير (نجيب محفوظ) الأدب العربي بأنه أدب من الدرجة الخامسة، ورغم أنني لا أؤيده في ذلك، فإنني لا أرى الأدب العربي والعراقي خاصة أدبا من الدرجة الأولى ولا حتى الثانية، لكن هناك استثناءات بلا شك، وقد قرأت مؤخرا بعض الأعمال العراقية الرائعة سواء من الداخل أو الخارج، ولا ريب في أن قصص (ابراهيم أحمد) القصيرة هي قصص رائعة في وصفها لمعاناة وعذاب البحث عن مهجر.. كما كتبت في الداخل قصص ممتازة. لكن النثر العراقي، ككل، ما زال يتعثر خلف الشعر العراقي.

على أن الأدب العراقي بلا شك يتقدم بخطى حثيثة، وكل ما أتمناه أن يلحق بركب الشعر العراقي، فإذا ما بلغ مستواه، فإنه سيبلغ أعلى مستوى دون شك.

▪ لقد كتبت في أجناس عديدة من الأدب، القصة، الرواية، المسرحية، المقالة، كيف تشخص هذه الاتجاهات؟ وبماذا تمتاز أعمالك المسرحية؟

▪▪ كتبت الرواية والقصة والمسرحية والبحث الجامعي وقلما كتبت المقال، وطبيعي أن كلا من هذه (الأجناس) الأدبية يختلف حتما عن بعضه الآخر، إلا أن قصتي لا تعتبر قصة قصيرة، بل هي إلى الرواية القصيرة أو القصة الطويلة أقرب، ولا أستطيع تحديد سمات قصصي ورواياتي، لأنني حاولت استخدام تقنيات وأساليب مختلفة إلا أنني لا أستطيع تقسيمها إلى قصص وروايات "عراقية" وسماتها الواقع العراقي والشخصية العراقية واللهجات العراقية، والقصص والروايات العامة، وهي كلها بالفصحى، وكتبت في جو عام، أو غير "عراقي" وقد كتبت على رواياتي وقصصي "العراقية" قصص أو رواية "عراقية" وهي خمسة كتب، منها روايتان هما (نزولة وخيط الشيطان) و(فوت يا دم!) وتلاحظ أن حتى اسمي الروايتين باللهجة العراقية. أما مسرحياتي

فنشرت، حتى الآن، خمس مسرحيات في ثلاثة كتب، ولها كلها ميزات خاصة، إذ تتميز بسمات يسميها البعض "اللامعقول" كما تتسم كلها بالرمزية والتعقيد. وكتب لي يوما صديقي الكبير (نجيب محفوظ) بعد أن قرأ إحدى مسرحياتي: "إنها تحتاج إلى مخرج وجمهور فطن حكيم!" أما سؤالك عن تشخيص هذه الاتجاهات، فهي لا تختلف، تقريبا، عن اتجاه كل كاتب تقريبا. (نجيب محفوظ) كتب القصة والرواية والمسرحية وكذلك يوسف إدريس، فهذه أجناس أدبية لا تكاد تنفصل عن بعضها. وحتى المسرحي (توفيق الحكيم) كتب القصة والرواية، لكنني مقل في كتابة المسرحية، رغم أن لدي مشاريع لكتابة المزيد من المسرحيات ومن بينها مسرحية باللهجات العراقية القديمة (لهجات فترات العصر العباسي) ولعلها ستكون مسرحية لممثلة واحدة، لا أدري، وقد تأخرت كتابة هذه المسرحية لسبب ما تطلبه من اطلاع على المصادر ودراسة مسهبة للهجات القديمة المذكورة.

■ **ما هي آخر كتاباتك وعلى أي المحاور تدور؟ وهل هنالك من جديد يقوله سمير نقاش للأدباء العراقيين؟**

■■ آخر عمل لي رواية استغرقت كتابتها سنوات طويلة اسمها (ودارت الدائرة على أكتاف شلومو الكردي) تختلف عن سائر أعمالي الأدبية ببساطتها، إذ حاولت كتابة Best Seller ولكنني تأكدت من صعوبة ذلك عند من تعود الكتابة على مستوى راق، وأعتقد أن هذه الرواية قد انحدرت في مستواها إلى درك ما كنت لأرضاه لنفسي لولا أني واثق من أنها ستكون واسعة الانتشار، وسبب ما اتهمني به بعض أساتذة الجامعات من أن أدبي غير مفهوم، وأنا أكتب لنفسي فقط! أرسلت الرواية للطباعة عند صديقي الشاعر والناشر (خالد المعالي) في ألمانيا وموعد صدورها منوط به.

ما أقوله للكتاب العراقي الجديد هو أن يكتب للإنسان حيثما كان، وأن لا يلتزم بقضية معينة إلا قضايا الإنسان حيثما كان، إن الأدب لكي يصبح عالميا يجب أن يفهمه الناس في كل مكان وأن لا يتعلق بقضية عابرة يصبح بعد زوالها مجرد وثيقة وليس أدبا. أقول للأديب العراقي إن الجهد مطلوب للرقي بالأدب العراقي إلى العالمية وأن لا يكتب بسهولة. إن المعاناة في الكتابة مجزية، لأنها في النهاية تخلق أدبا جيدا. لقد أرسلت لي مؤخرا كاتبة عراقية ناشئة هي (بتول الخضيري) أول رواية لها، والحق أني أعجبت بتقنيات الرواية ونضجها وحسن اختيارها للألفاظ. اللغة في العمل الأدبي عنصر مهم جدا. وآمل أن يسير الأدب العراقي الشاب في الطريق الذي يقوده إلى الشمولية العالمية.

برلين

أيها الموت الغريب

صادق الصائغ

إلى محمود درويش وجداريته

نعم
جميع الناس سيموتون
والروح تزول
بنشيد السماء المبهم
وما النهاية؟
الموت هو النهاية
نهاية الكواكب
نهاية المذنبات
نهاية النجوم الساطعة
نهاية الجبال الأشد صمما
نهاية الخليقة الصاغرة
نهاية الشعوب الذليلة
والأمم المغلوبة
نهاية الحلقات المشعة
عابرة الأزمان والأمكنه
ومع أني
من بين جميع الأموات
سأكون الأكثر موتا
الأكثر ضنى
الأكثر عذابا
الأكثر ارتكابا للخطايا
وأكيد
الأكثر استحقاقا
لكل أنواع الحساب
إلا أن ذهني المتعب
- من ناحية أخرى -
سيكون الأكثر صفاء
الأكثر سخرية
الأكثر بحثا
عن جحيم أخر مفقود
نعم
سأكون بين الأموات
الرافض الوحيد
المتمرد على ذاته
على ما حوله
المتجرئ
على الكلام المحرم
وبالتالي - يا إلهي -
سأكون الوحيد
الأكثر موتا
الناهض من بين جميع الأموات
ليحتج

ليبكي
ليضحك
ليهز كتفيه المذبوحين
ليصرخ بغضب:
أيها الموت الغريب
يا ذراعي المشرعتين
أيها الشبح الأسود
يا مديد القامة
يا صغير الموسيقى المتسلل إلى
روحي وقلبي وعظامي
أيها المحتال
أيها الخائن
العارف بضعفي
المتوقع سقوطي في أية لحظة
صحيح
أنا الآن صاغر أمامك
عاجز
وقد لا أستطيع الكلام بعد اليوم
وبتعبير أدق
أنا ميت
بل، وأكثر موتا من بين جميع الأموات
مع ذلك
ففي هذه اللحظة
سأفتح عيني بشجاعة
لأنهض في وجهك
لأتجرأ عليك
لأهجوك
لأهزك من كتفيك
لأصرخ وأنا ميت:
لا!
لا!
لا!!

٢ – نوم أبيض

نوم أبيض
قادني إلى طيف
إلى نهر
إلى ضوء
إلى عظم
وبأصابع متوجسه
تلمست شيئا شفيفا:
غلالة
غيمة
بنفسجة بيضاء
أم كفى؟
وبعد أن استيقظت
عرفت
أني تلمستك
أيها الموت الذي
يبدو الآن بعيدا
وغير قابل للاسترجاع

رباعيات

محمد حسين الأعرجي

السياب

مات فلم يحزن سوى شعره

وآلــه، ودائـــني آلــه

رأيــته ينــهض مــن قبره

في اللــيل ملتفا بأسماله

يسأل عن تمــثاله إن يكن

ثمة مبــتاع لتمــثالــه

ثم اشــترى أدوية، وانثنى

يبحث عن خبز لأطفاله

عراق الروح

أموت غدا، والموت صمــت تباريــحي

فقد نزف المنــفى دمي قبل تجــريحي

وقد ذبح المــنفى – ولم يــقل – المــنى

وأشجى المنى ما كــان في زي مذبــوح

ويبــقى سؤالي الجرح أقــفر من صدى

وكم من جــواب فــيه راحة مجــروح

تــرى من ســيدري حيــنما يدفــعونني

بأن عــراق الــروح قاســمني روحي؟!

تعريف للوطن

كانــت، ما أعــذب لثغتها

تســألــني، وأنــا نشــوان

أن كيف بروحــك لم يصدأ

في المــنفى ذاك اللــمعان

فأجبت ، ورفت في خلــدي

كالطــيب الفاغــم بلــدان:

وطــن المــرء ثراه، ولكن

وطــن الإنســان الإنســان

النوم

يوم ولــدنا لم يــكن يومنا

إلا اتصال النوم بالصــمت

يوقظنا الجوع فــنبكي، فإن

نشــبع رقــدنا أيــما وقت

ثم ازدهــانا صبــية أنــنا

لم نك عند الحــقل كالنبت

وندرك الساعة أن نومة الأطفال تدريب على الموت

قصــــة

ليس مباحا أن يكون المرء طويلا في بغداد

سلام عبود

لا أحد يعرف كيف تجمعت خيوط الأشياء في عقله، لا هو ولا أحد غيره يعرف ذلك، فـالأمور كانت بسيطة وواضحة إلى حد أنه لا أحد لاحظ حدوث الأشياء. لا أحد، حتى أقرب الأقربـاء، لـم يلاحظوا كيف بدأت الأمور، فهم كغيرهم لا ينتبهون للأشياء إلا فقط حينما تكبر وتتعاظم وتمد لـهم بلسانها وتقول لهم: يا ناس، يا عالمين، أنا هنا.. ودون شك لم يكن من الممكن مطالبة الجميع بتقديـم براهين على عدم الملاحظة، فالكل مشغول بحياته الخاصة وبهمومه: أخته الصغيرة مثلا، التي يحبها أكثر من أي شيء في الدنيا، وربما حتى أكثر من نفسه، ترقد عليلة، تلازم الفراش منذ فترة طويلـة، ولا أحد أيضا يعرف كيف بدأ مرضها المفاجئ، وسبب ذلك. أولا بدأت تحس بخمول وصداع، ثـم أخذ شعر رأسها يتناقص، ورغم أنهم لم يعودوا قادرين على إرسالها إلى المدرسة، إلا أنهم شـعروا بالحزن لأنها عجزت عن الذهاب إلى المدرسة، لا بسبب الفقر فقط، وإنما بسبب شيء آخر لا يعرف أحد مصدره، شيء أجبرها على النوم في الفراش، ثم في النهاية وجدوا أنـها عـاجزة تماما عـن الحركة. في المستشفى لم يدم الفحص طويلا، فبعد أن نظر إليها الطبيب قال لهم:

– هل أحوالكم المادية جيدة؟

– مستورون، أجابت الأم.

– الستر وحده لا يكفي لمصاريف علاجها، هل لديكم شخص من العائلة في الخارج؟

– أي خارج؟

– خارج الوطن، خارج العراق؟

– لا، أجابت الأم وهي لا تعي لماذا يتطلب منها أن يكون لها شخص ما في الخارج، رغـم أن لها زوجا موجودا في مكان ما لا يعرفه أحد.

– زين، خذوها إلى البيت واعتنوا بها جيدا، حتى يفرجها الله.

حيرة الأم كبيرة، فماذا تستطيع أن تفعل وحدها وهي عاجزة تماما، تعيل خمسـة أفـواه جائعـة. فزوجها قد غادر البيت في يوم مظلم ولم يعد. ولا أحد يعرف لماذا وإلى أين ومتى يعود، حتى هـي لا تعرف. كل الذي تعرفه أنه قال لها قبل أيام من اختفائه إنه لم يعد يطيق سلوك ابنتهم الكبـيرة حليمـة، فهي لم تعد مجرد صبية صغيرة، هي الآن امرأة، وأمر علاقتها بهذا الرجل، الذي يعمل فـي شـرطة

الأمن، يدور على كل لسان، ولا يقتصر الأمر على ذلك، فالجميع يتحدثون عن أن هذا الرجل تحوم حوله الشبهات. أجابته الأم بأن ابنتها تعرف حدودها جيدا، وهي لا ذنب لها إذا كانت تذهب إلى عملها لتعيلهم، بعد أن أصبحت سوق الصفارين خاوية ولم يعد عمله في تبييض وإصلاح الأواني يسد رمقهم، إضافة إلى هذا فهذا الرجل الذي تحدث عنه بسوء، قد زارهم بسبب أنه خلصها من ورطة وقعت فيها مع بعض الأشرار، وهو الذي ساعدها على الحصول على عمل لدى أحد معارفه، وليس من العدل أن يجازى بهذا الشكل. بعد أيام قال الأب لها: اسمعي يا امرأة، أنا طقت روحي، واسود وجهي، وإنني سأفعل شيئا لا يعرف إلا الله عواقبه. انتظرت عدة أيام وهي تتوقع في كل يوم أن تصحو فتجد حليمة مذبوحة في فراشها، لكنها صحت في أحد أيام الشتاء الباردة لتجد أن زوجها قد ذهب ولم يعد. لقد نفذ تهديده. هل مات؟ انتحر؟ هرب! لا أحد يعرف، كل الذي يعرفونه عنه أنه قضى حياته كلها لا يعرف سوى طريقا واحدا، هو الطريق الذي يقوده من البيت إلى سوق الصفارين حيث يعمل، ثم إلى المسجد فالبيت. فأين تراه قد ذهب وهو الذي لم يغادر مدينته إلا مرة واحدة، حينما حشر نفسه في سيارة "الزوار" المتوجهة إلى قبر الحسين في موسم الزيارة، قبل أكثر من عشرين عاما!

أما حليمة، التي تجاوزت طفولتها بلمح البصر، فقد كبرت بسرعة عجيبة لم يتوقعها أو يلحظها أحد، ففي إغماضة عين تحولت طفلة الأمس إلى امرأة مكتملة الأنوثة، وغدت مشغولة دائما، ولا أحد يعرف تقريبا بماذا هي مشغولة، لا أحد يعرف كيف ومتى ولماذا بدأت انشغالاتها.. على أية حال ليس مهما أن يعرف المرء ذلك، المهم أنها الآن مشغولة بشؤون تربطها بهذا الرجل المريب، الذي يثير الشبهات، والذي كان يتابعها خلسة، والناس يتحدثون عن تلك المتابعة والمطاردة بهمس وحذر، لكنه أخذ في الآونة الأخيرة، خاصة بعد غياب الأب يظهر في البيت علنا. فلماذا ظهر علنا وكيف ومن سمح له وكيف سمح لنفسه؟ هذا أمر لا أحد يعرف عنه شيئا. المهم، هو الآن هنا، وهي مشغولة بجسدها وهو يتظاهر بأنه يحميها ويعطف عليها، علنا، عيني عينك. هذا كل ما في الأمر.

وفي الأخير ماذا تستطيع الأم أن تفعل! إذا كان مجيء الذي يطارد حليمة أصبح علنا، بل وأحيانا أضحى يتشرط عليهم ويتأفف من سوء المعاملة التي يلقاها، والبنت الصغرى التي لم تزل صغيرة، سليمة، مريضة، وحليمة مشغولة، والأخوة الصغار تركوا المدرسة وضاعوا في الأزقة، والأب هددها ونفذ وعده، فماذا تستطيع أن تفعل، وماذا يستطيع هو أن يفعل! ومن يستطيع أن يلوم أحدا! لا أحد يستطيع أن يلوم الآخر.. خاصة أن الأمور ما عادت كما كانت؛ فقد تغيرت الأشياء وأصبحت كما هي عليها الآن، لا كما كانت قبل أن تصبح سوق الصفارين خاوية وتمرض سليمة وتنشغل حليمة ويهرب الأب وتتمرمط الأم ويقوم المجرمون بإطلاق النار على ابن الرئيس، على زين الشباب، ويصيبونه إصابات خطيرة تجعله لا يحرك جزءا كبيرا من جسده، الأمر الذي جعل الأطباء يستبدلون له في كل فترة عضوا جديدا، بدل العضو التالف، أو الذي لا تنقضي سوى أيام إلا ويتلف ويستبدل بعضو جديد.. من هنا بدأت الأشياء، نعم من هذه النطقة. إطلاق النار على ابن الرئيس. هو يتذكر ذلك جيدا كما لو أن الحدث وقع الآن، أو كما لو أنهم أطلقوا النار عليه هو شخصيا وهو الذي تلقى الطلقات الثلاث عشرة اللئيمة، وما زال يحملها نيابة عنه في جسده وفي روحه، لكنه يخفي الأمر عن الجميع، طبعا للتمويه، فالمحاذير كثيرة ولا أحد يثق بأحد هذه الأيام.

حينما دخل (فرحان) البيت توقف لدقائق وهو يستجمع أنفاسه ويعدل من وضع ظهره، الذي

أتعبه طول إحنائه وهو يسير من شارع المنتصر حتى البيت مرورا بحي التوراة والشارع المحاذي لسوق البزازين. لقد تجنب السير في السوق. حقيقة، لأن السوق موقع يمكن أن يلاحظه الآخرون فيه بيسر، ولكن لا يمكن الجزم بهذا أيضا، فلو قلنا إن السوق مكان يسهل على الآخرين أن يرصدوه فيه، فمن الصعب أيضا القول إن الشوارع الفرعية الخالية أفضل حالا من السوق، لماذا؟ السبب بسيط: في السوق يكون الزحام شديدا دائما، لذلك فقد لا يلاحظ الناس كل من هب ودب، أما في الشوارع الفارغة فمجرد وجود شخص واحد يكون مدعاة للملاحظة، خاصة لو كان طويلا، فطويلو القامة تسهل ملاحظتهم.. ولكن من جانب آخر تتواجد في السوق دوريات وعيون وشرطة بكثرة، وفي الأماكن الفرعية والفارغة يقل عدد أولئك. وهذا يعني أن السوق والشوارع الفرعية وكل الأماكن متساوية في خطورتها، وسواء مشى الإنسان في شارع فارغ أم في سوق، أو حتى لو لبد في بيتهم فهو عرضة لأن يكون تحت رقابة فرق الرصد، التابعة لابن الرئيس المصاب، ولا أحد يستطيع أن يحرز متى يقع المحذور؛ فجأة يحدث الحدث، فجأة يهجمون ويكون في خبر كان..

قوس جذعه إلى الوراء، وظل على هذا الوضع بضع دقائق، حتى شعر أن عموده الفقري قد عاد إلى استقامته. سار داخلا باحة الدار، فواجهته حليمة وهي تجلس على الأرض، في شمس الربيع الدافئة، تضع طرف خيط طويل في فمها والطرف الآخر في رجلها وهي تفتله بمهارة فيلتقط الشعرات النامية على جلدها. فاجأه وجودها وهي تلتقط الشعر.

– أخفتيني!

– لماذا؟ ماذا رأيت؟ عفريتا، أم..؟

– أم ماذا؟ قوليها.. لماذا لا تقولين؟

– ماذا أقول لواحد مثلك لا شغل له ولا عمل، الطول طول النخلة والعقل عقل السخلة.

– مقبولة منكِ، ولو أنت جعلتيها ماسخة، أكثر من اللازم.

– على فكرة، نسيت أن تعوج ظهرك.

– لا لم أنسَ. أجاب بخوف وهو يحني ظهره مجدداً ويمشي كما لو كان مصابا في العمود الفقري، نظر إليها بطرف عينه وقال: ولكنك أنت..

– ماذا أنا، أكمل، ماذا أنا؟ انتهى دور الجميع ولم يبق غيرك أنت، ماذا أنا، قل؟ تريد أن أقولها لك لكي تريح نفسك؟ ها، تريد أن تسمعها من حلقي!

سار مسرعا باتجاه الغرفة المعتمة، التي ترقد فيها أخته سليمة وهو مغمض العينين، يتمنى من كل جوارحه أن لا تتحامق حليمة وتنطقها. هي ساقطة، ربما نطقتها. ماذا سيفعل حينها! تفعلها، ساقطة مثلها تفعلها.

دخل غرفة أخته الرطبة المعتمة، وقد جذبه كالعادة أنينها المؤلم، فمسح صوتها العليل الخافت من مخيلته كل شيء في الوجود. ولم يعد يرى سوى وجهها الصغير، الأصفر، الذابل وهي تئن:

– سلومة، هل تريدين ماء؟

... هزت رأسها بالنفي وهي تبتسم له بإعياء.

– جائعة؟

– لا، نطقتها بشفاه يابسة، لمجرد أن تريه أنها قادرة على النطق ولم تمت تماما.

قال الطبيب: خذوها إلى البيت واعتنوا بها، وانتظروا حتى يفرجها الله. لكن الله لم يفرجها، ولا يريد أن يفرجها..

قبلها في جبينها المعروق ولم يتمالك نفسه. أين ذهب شعرها الكستنائي الجميل الطويل ووجهها المدور الوردي؟ سار مسرعا، متجنبا الاصطدام بهيئة حليمة، ودلف مسرعا إلى مدخل السلم الذي يقود إلى سطح البيت وذهب يجلس، كما هو معتاد، في زاوية من زوايا سطح البيت، في الجزء الملاصق للسور الذي يفصل البيت عن بيوت الجيران، حيث اعتاد أن ينظر إلى السماء البعيدة، محاولا أن يقيس المسافة التي تفصلهم عن الله، مترقبا بدون يأس أن ينزل إليهم حاملا دواء سحريا لسليمة، أو على الأقل يرسل أحد ملائكته الطيبين إليهم.

هنا، في سطح البيت، هو قريب من كل شيء. هنا لا أحد يستطيع أن ينتصر عليه، أو يخفي عليه شيئا. فهو قد درس كل شيء بدقة وإمعان. هنا هو أقرب إلى السماء وأقرب إلى الأرض، هو هنا بين السماء والأرض، بقفزة واحدة يستطيع أن يرتقي السور ويقذف جسده فيجد نفسه قد استقبل الأرض وصعدت روحه فجأة إلى السماء، بلمح البصر. وهو هنا يستطيع أن يرصد كل شيء، أن يسمع حتى أنين سليمة حينما تريد شيئا، فيسرع ليلبي لها حاجاتها، ومن هنا رصد تسلل الوغد إلى بيتهم واختلاءه بحليمة. أخبر أمه، فتعاركت معها، وسمعها تقول:

– تسمعين كلام الأثول، المخبل، زين خليه يعيشك ويعيش أولادك.

– ولكنك لم تقولي لي، هل صحيح أنها جاء إلى البيت في غيابي؟

– نعم، جاء لكن لم يأت من أجلي، جاء من أجلك.

– من أجلي؟ أنا يا ساقطة؟

– لا تشتمي، نعم من أجلك، ألم تبلغي الشرطة عن اختفاء أبي؟

– نعم، وما دخل هذا في البلاغ؟

– له دخل، هو يقول إن بعض الناس بلغوا عنك، بأنك قدمت بلاغا كاذبا، وأنت تعرفين مكان وجوده، فما كان من الرجل الطيب إلا أن دافع عنا وأخبرهم بأنه متأكد من اختفاء أبي، وهو مكلف بمتابعة الموضوع؛ لكن ضميره لم يسمح له أن يتسبب في إيذائنا، هو يخاطر بوظيفته لكي يساعدنا، فهل نطرده؟

– الله المعين.

(فرحان) يعرف تماما، بل هو متأكد مئة بالمئة لماذا يأتي هذا الوغد. هو يعرف أنه يستغل حليمة، فهي مجرد طفلة، رغم مظهرها الغريب الذي أخذت تظهر فيه في الأيام الأخيرة، هو يعرف أنه يستغلها لغرض الوصول إلى هدفه، فحليمة رغم أنها سيئة، إلا أنها حقيقة طفلة كسيرة الجناح، ماذا تستطيع أن تفعل! ربما هو يهددها، أو ربما هوَ قد أفصح لها عن نواياه الشريرة، وهو فقط ينتظر اللحظة المناسبة، لكي يفاجئه ويقتحم عليه غدرا مكمنه الحصين في السطح. ولكن مهما كانت الأقاويل عن حليمة فلا يمكن لها أن تبيعه بيسر إليهم، فهي أخته، حقيقة هي ليست أخته، هي ابنة عمه، لكنها أيضا بمثابة أخته، فقد عاشا وتربيا معا ورضعا من الثدي نفسه، ربما هما لم يرضعا معا، لكنهما أكلا معا، حتى أمه التي هي ليست أمها وإنما زوجة عمها، هي أيضا بمثابة أمها، فحينما جاؤوا بها من تحت الأنقاض، حينما أصابت الطائرات الإيرانية بيتهم في بداية الحرب مع إيران،

كانت طفلة في الثانية من عمرها، لم يسلم أحد من أهلها، جميعهم ماتوا: عمه وزوجته وأولاده الأربعة عدا حليمة، التي جاؤوا بها هنا. هي أيضا أخته، هي أخته وابنة عمه في الوقت نفسه.

فلا يمكن أن تسلمه لهم. ربما يستغلها هذا اللعين لأمور أخرى، هو يعرف ماذا يريد ولن يجعله يصل إلى هدفه. فالسماء أقرب إليهم منه. نعم، السماء أقرب.

هنا، فوق سطح البيت، قرب السور، لا يستطيع أحد الوصول إليه، فبمجرد أن يضع يده على السور، يرفع رجله ثم يقفز في الهواء وسرعان ما سيصل إلى الأرض، هوب، ويكون في خبر كان. بعدها تكون السماء أقرب إليهم منه.

لماذا يشغل نفسه بأمر حليمة! حليمة حقيقة ليست أخته، نعم ليست أخته، هذه هي الحقيقة، فلماذا يغالط نفسه ويتحامق، هي مجرد ضيفة عندهم، أمه على حق حينما قالت لها ذلك في وجهها:

– هل أنت ضيفة هنا؟ أختك نائمة في سرير الموت وأنت تدورين في كل مكان، كأنما لا يهمك الأمر، وحينما تتكرمين ترمين إلينا ببضعة دنانير حقيرة لا نستطيع أن نشتري بها رأس بصل..

– وماذا أفعل لكم؟ أسرق؟

– فكري بنا، بأختك العليلة، بأبيك الذي لا يعرف أحد أين ولى، بهذا الذي حبس نفسه في سطح البيت ولا يعلم إلا الله أي شيطان دخل رأسه..

– اسمعي أنت، ليس عندي شيء أكثر أدفعه لكم، الذي أحصل عليه أقدمه لكم، ليس لدي أكثر من هذا.. أنت لا تريدين أن تصدقي.. أنت دائما تكرهينني، ولا تصدقين كلامي.. لماذا أتعب نفسي معك.. إذا صدقت كلامي أو لم تصدقي كلامي فلا يهمني الأمر.

– طبعا، هذا جزاء هذا الثدي الذي أرضعك، ردت بحقد وهي تضرب على صدرها الضامر.

– لا تعيدي علي هذه الأسطوانة وهذا الفضل الذي لم أطلبه منك..

– ولكننا...

– ولكننا.. ولكننا.. ولكننا... دائما تتحدثون عنكم، كما لو أنني لست جزءا منكم، أنتم تذكرونني فقط حينما تريدون مني أن أدفع.. أنا ابنتك حينما أدفع، أنت تفكرين بنفسك وبأبنائك ولا تفكرين بي، لا تعرفين حتى ماذا بي.

– ماذا بك! أنت تأكلين على أحسن وجه وتلبسين أفضل منا، وتدورين كما يحلو لك، فماذا تريدين؟

تتراجع حليمة إلى الوراء، وتأخذ طرف ثوبها وترفعه إلى الأعلى وتستدير وتكشف ظهرها المليء ببقع ملونة حمراء وبيضاء تنتشر مثل نباتات الفطر وتمتد من كتفيها إلى عجزها.

– هذا أنا، انظري، ربما أعجبك جسدي وأنا لا ألبس أفضل منك، تصرخ وهي جالسة مرفوعة الثوب.

تستدير حليمة لتواجه أمه، ثم تفتح أزرار ثوبها عند الصدر، وتسحب الثوب إلى الأسفل من الكتفين، فيبرز نهداها الكبيران، المنتفخان، المبقعان ببقع ملونة مثل حروق وآثار جروح قديمة، ترفع ثوبها من الأمام وتريها فخذيها المليئتين بالحروق وتصرخ:

– وهذا؟ من يفكر بهذا؟

هي حقيقة ليست أخته، لا بد له أن يعترف بهذا نهائيا، لكنه لا يستطيع أن ينكر أنها بمثابة أخته،

بل هي أخته وابنة عمه في الوقت نفسه. ماذا تفعل أكثر من هذا؟ هو يعرف أنها قد أصيبت وهي صغيرة، وهو قد رأى جسدها وجراحها منذ أن كانا طفلين، ولكن لم يخطر بباله أن هذه الجراح الصغيرة غدت أكثر قبحا وأكثر عمقا على جسدها. لم يفكر من قبل كيف ومتى ولماذا حدث ذلك. كانت ثيابها تخفي دائما كل شيء، تخفي حسرتها ولوعتها وانكسارها وجراحها، وتخفي عنه المرأة التي أخذت تنمو في السر، تخفي القروح التي أخذت تتسع، حتى اللحظة التي عرت فيها نفسها فشاهد جراحها قد نمت معها مع نمو الأيام، وكبرت معها مع كبر نهديها وتفتح جسديها..

الذنب ليس ذنبها، وليس ذنبه أيضا لأنه لم ير جسدها من قبل بهذه البشاعة، مشوها كما لو أنها مشوية في تنور. لكنه على أية حال رأى ذلك، وهو يعرف الآن أيضا أنها امرأة، فما الذي تغير؟ لم يتغير شيء، ما زال هذا الوغد يطاردها، ويستغل براءة طفولتها للوصول إليه، يريد أن يتخذ منها وسيلة وذريعة للإطباق عليه، لكنه لن يمكنه منه، لن يجعلهم يستولون على جسده، لن يسلمهم شيئا ولا إصبعا واحدا.. ولا حتى قلامة ظفر. سواء عاش أو مات ابن الرئيس فلن يمكنهم منه، السماء أقرب إليهم منه.

تصاعد أنين سليمة، لم تتحرك أمه لمساعدتها، إذن فهو هنا، جاء، ولا بد أن تكون سليمة متوجعة بسبب ذلك، فهي لا تطيق وجوده، ربما هي تشعر مثلي بما يدبر لي، وما يخطط له ويناور من أجله وهو يستغل وجوده هنا في البيت، بواسطة تصنعه التودد إلى حليمة وتقديم المساعدة لها.. نظر من فتحات المحجر فشاهده يقف في باب الغرفة ثم ينسل ويدخل الغرفة، فار الدم في رأسه. فكر بأن يضع حدا لهذه المهزلة التي طالت.. لا بد أن يضع حدا لكل شيء. فمن غير المعقول أن يجلس هو هنا مكتوف اليدين بينما يقوم هذا الغريب باقتحام بيتهم كل يوم، بدون إذنهم، مستغلا غياب أمهم، وما ذنب سليمة التي لا تطيق وجوده، ألا يكفيها ما فيها، وهو، إلى متى سيظل حبيسا هنا؟ إلى متى سيظل خائفا، منتظرا أن يأتوا إليه ويجروه من رجليه مثل الكلب؟ لا لن يسمح لهم بذلك، ولن يسمح لهذا السافل أن يفعل ذلك.

نزل بحذر وهو مصمم على أن ينهي كل شيء، لكنه فقد زمام نفسه حالما اصطدم بحليمة، التي حدجته بنظرة غاضبة قبل أن يفتح فمه وقالت:

– ها، ماذا بك؟

– ليس بي شيء، ولكن ألا تعتقدين أن الأمور صارت ماسخة أكثر من..

– اسمع يا دريع، هذا الذي لا يعجبك هو الذي يحمينا.

أحس (فرحان) بخوف مفاجئ يعتريه وهو يسمع كلمة يحمينا، كأنما هي تعنيه بقولها هذا، قالت ذلك لترعبه، وقد تحقق لها ما أرادت، فقد عجز عن قول شيء واكتفى بأن هز رأسه باضطراب ونطق شيئا غير مفهوم، فردت عليه على عجل، قبل أن يوضح ما يريد أن يقول:

– لو لم يكن هذا الذي لا يعجب سيادتك هنا لأكلونا. رفعت يدها نحو وجهها، وفتحت فمها، وابتعلت شيئا لامرئيا وهي تعيد قولها: أكلونا أكلا.

تركها مسرعا وعاد إلى مكمنه في السطح مذعورا، وهو يرى أمامه أفواه الكلاب الجائعة مفتوحة، يسيل منها اللعاب، بانتظار أن تأكل ما تبقى من جسده، بعد أن بترت الساقان واليدان. لكنه سرعان ما أخذ يسمع مجددا صوتها وهي تلاطف الرجل، فثارت أعصابه مجددا ونسي خوفه

وعاد يفكر بأمر واحد: هو أن يتوجه إلى سور البيت يتسلقه، يغمض عينيه ويقفز إلى الزقاق وينهي كل شيء بلمح البصر، السطح ليس عاليا جدا، وحينما سيسقط لن يتهشم تماما، لكنه حتما سوف يفارق الحياة في الحال، وبذلك لن يمكنهم منه..

عاد إلى ركنه الصغير في السطح، وجلس مرتعشا وهو يواصل الاستماع إلى الصوت القادم من باحة الدار.. دريع، الطول طول النخلة، قالت له حليمة. من هنا بدأ كل شيء. نعم من هذه النقطة، هو يتذكر كل شيء كما لو أن ذلك حدث اليوم، الآن، في هذه اللحظة، قال له مزعل بن الخبازة بعد أن تحدث الناس عن خبر إصابة الابن الأكبر للرئيس، قال له هامسا:

– الموضوع يتعلق بالطول. بالطول فقط. تصور في كل يوم يبدلون له يدا ورجلا.

– لماذا؟ تساءل (فرحان) كما لو أن الأمر يعنيه شخصيا.

– لماذا.. لماذا؟ لأنه مشلول اليدين والرجلين.

– وكيف يبدلونها له؟

– يسمونها زراعة، يزرعون له أعضاء جديدة، كلما أحسوا أن القديمة تلفت، يعني بالضبط مثلما يزرعون بطيخا أو بصلا، يسمونها زراعة.

– ومن أين يأتون بها ليزرعوها في جسمه؟

– بيني وبينك، يأخذونها من الناس، ويزرعونها بدلا من القطع المريضة.

– من الموتى؟

– أنت صحيح دريع، أي موتى! من الناس الأصحاء، الموتى لا ينفعون في هذه المسائل. سأقول لك شيئا خاصا سمعته من أناس يعرفون كل شيء عن الموضوع. القضية باختصار، أنهم شكلوا فرقا خاصة ووزعوها في كل مكان، تدور في الشوارع والأسواق والأحياء، وتبحث عن الناس الذين في مقاس ابن الرئيس، يأخذونهم سرا، وحينما يجدونهم بنفس الطول يقطعون الأجزاء التي يريدونها منهم، ويرمون الباقي إلى الكلاب.. ولأنه يحتاج إلى تبديل مستمر، فهم يحتفظون بعدد كبير من الناس للاحتياط.

– زين وإذا كان الإنسان أضعف أو أسمن؟ تساءل (فرحان) بخوف وهو يفكر بنفسه، مستبعدا نفسه من الأمر، فرغم أنه ربما شابه ابن الرئيس في الطول، إلا أنه مجرد جلد على عظم، فهو لا ينفع.

– كل شيء تم تدبيره وإيجاد الحلول المناسبة له، السمين يضعفونه، والضعيف يسمنونه، كل شيء محسوب، وهل تتصور أن الأمر لعب زعاطيط! هناك فرقة من الأطباء المشهورين، أمهر الأطباء من كل العالم تشرف على سلامة الإجراءات.

كان ذلك هو بداية الحدث، أما الأمر الذي زلزل كيانه، وجعله يذهب فورا إلى سطح البيت، يفكر مرتعبا بالأمر، فهو ظهور ابن الرئيس في التلفزيون يمشي مضطربا، متأرجحا، وهو ينظر بتمعن ولؤم إليه من شاشة التلفزيون. في بادئ الأمر خاف، لكنه لم يقبل الأمر على علاته كحقيقة، فقد ظل لعدة أسابيع يجمع الأخبار ويتقصى كل شيء عن حياة وصحة ابن الرئيس، حتى أخذ يستمع مرارا إلى حادثة الاغتيال من كل من يراه ويقابله ويقلبها من جميع جوانبها، وظل طوال ذلك الوقت يؤمل نفسه بأن ذلك أمر عابر، فمن المحال أن يعيش ابن الرئيس بعد أن أصيب بثلاث عشرة رصاصة. حتى القطة لها سبعة أرواح، سبعة وليس ثلاث عشرة! لكن ابن الرئيس سرعان ما خيب توقعاته، حينما

عرضه التلفزيون على الملأ في تلك الليلة المرعبة. نظر إليه زين الشباب نظرة ذات معنى خاص، وابتسم هازا رأسه المطوق بعقال سميك، فما كان منهُ إلا أن ذهب إلى السطح متفكرا بالأمر، لكنه رغم ذلك لم يستسلم أيضا، رغم أن أمه أكدت له مخاوفه، حينما سألها بمكر، بطريقة ملتوية قائلا:

– هل تعتقدين أنني أشبه زين الشباب، يا أمي، طبعا أقصد بالطول، بالطول فقط؟

– ولماذا لا، بالطول والعقل والحلاوة.

هو يعرف تماما أنه لا يشبه ابن الرئيس في شيء. إلا ربما في الطول لا أكثر، وأن أمه قال ذلك لأنها تحبه، مجرد حب. لكنه أخذ الأمر على محمل الجد، وحينما سمع في الأخبار أن ابن الرئيس أخذ يمشي ولكن بصعوبة، تأكد له أن الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ بالنسبة له، طالما هي تسير من حسن إلى أحسن بالنسبة لابن الرئيس. ومنذ ذلك اليوم قرر أن يفعل كل شيء لكي يضللهم. في بادئ الأمر وضع لفافة كبيرة على رجله، وظل يعرج عدة أسابيع، حتى تقيحت رجله فعلا. ومرة قفز من مرتفع فكسرت رجله، وتمنى أن تقطع لكي يتخلص منها، لكنه شفي بقدرة قادر، وحتى لو لم يشف، فكيف كان عليه أن يخفي عن فرق التفتيش يديه ورجله الثانية!

لم تدم طويلا حيلته، التي ابتدعها وحاول فيها أن يسير على أطراف أصابعه، ليبدو أكثر طولا، فقد سبب له ذلك تعبا شديدا، كما أنه لم يمكن الناس من الاقتناع، بأنه يحس بآلام في باطن قدميه وكعبيه، والأخطر من ذلك كله، أن ذلك زاد من مراقبة الناس له، فقد أصبح موضع تساؤل الرائح والغادي، وأصبح الجميع يتهامسون عن السر الذي جعله يطول عدة سنتمترات خلال أيام! لذلك اضطر إلى هجر هذه الطريقة، ولجأ إلى تجريب طريقة الفحجة، فأخذ يفحج، مقاربا بين صدور قدميه ومباعدا بين عقبيه، وقد أغراه النجاح الذي حققه فأمعن في تفحجه، فراح يمشي مباعدا بين رجليه، إلى الحد الذي لفت فيه أنظار الجميع ودفعهم إلى التساؤل عما إذا كان مصابا بالفتاق، وهو أمر يخجل منه، كما أنه من ناحية ثانية، لا يحل مشكلة الرجلين واليدين، فالمصاب بالفتاق يعتبر سليم الرجلين واليدين. لقد كف عن تجريباته المتنوعة أخيرا، حينما وجد أن آلام الظهر هي الحل الوحيد المقنع المتبقي أمامه، فأخذ يحني ظهره حالما يخرج من باب البيت، وأحيانا يفعل ذلك حتى أمام المشكوك فيهم من أهله كحليمة.

ورغم أنه اتخذ كل الإجراءات اللازمة للتمويه الجسدي، إلا أنه لم ينس التفكير بخطط سريعة لمواجهة الحدث، لو أنهم فاجؤوه وداهموا البيت، خاصة أن جاسوسهم يراقب البيت في كل لحظة، متصنعا التودد إلى أخته حليمة. لن يمكنهم منه. حينما يتقدمون إليه سيتسلق السور، ثم هـوب... وسيكون بعد ذلك قد ذهب إلى السماء، وضاع عليهم كل شيء.

صوت حليمة يصل إلى أذنه وينغرز في بدنه مثل مسامير حارقة، خاصة حينما تضحك، بعد أن يقول لها الرجل شيئا ما مسليا.

هذا لا يطاق. فكر وذهب إلى السور كما قرر سابقا، وضع يده على السور ولم يغمض عينيه كما خطط، بل فتحهما، وفكر بأن يلقي نظرة سريعة إلى الأرض، نظر فراعه المشهد: الأرض بعيدة جدا، والحجارة المتناثرة والأتربة والأوساخ تنتشر مثل الأسياخ المدببة، لو قفز فإنه سيتفتت، يتمزق، وربما لا يموت، من يدري ربما سينقذونه، ولماذا لا، لديهم فريق من أمهر الأطباء من كل العالم...

توقف ساكنا لدقائق لا يعرف ماذا يفعل، ولم يلبث أن عاد يسمع أنين سليمة، ثم أخذ صوتها

المرتعش الحزين يختلط بصوت الرجل وبصوت حليمة الضاحك: الساقطة تضحك وتمزح وأختها تموت إلى جوارها. فكر بأن ينزل ليردعهم، لكنه خاف من مواجهة حليمة، وفي الحقيقة خاف من مواجهة الرجل، فماذا يفعل لو أنه كان بانتظاره الآن، ماذا يفعل لو أنه تسلم الأمر بإلقاء القبض عليه، وأنه يجلس فقط بانتظار أن يتمتع ويتسلى به قبل أن يلتقطه ويسلمه إليهم.

نظر إلى السماء فوجدها بعيدة، بعيدة حقا، ولم تطاوعه عيناه على النظر إلى الأرض. ودون إرادة منه جذبه أنين سليمة المتصاعد، فنزل السلم طائعا منقادا إلى حشرجاتها المؤلمة، وحالما وضع رجله على الدرجة الأخيرة من السلم، حتى ألفى نفسه في مواجهة الرجل، الذي من المحتم أنه ينتظره ليسلمه إلى حتفه. استجمع قوته. وقف أمامه متحديا، وقال بصوت متلعثم ولكنه واضح:

– اسمع أبا الشباب، أنا قررت أن أسلم نفسي طوعا، طوعا بمحض إرادتي، لم يجبرني أحد على ذلك، طوعا ولكن بشرط واحد...

نظر الرجل إلى حليمة نظرة مليئة بالدهشة، ثم ابتسم بمكر، وعاد يهز رأسه، وهو يواجه (فرحان) المضطرب مثل سعفة تهزها الرياح.

– نعم، بشرط، إذا قبلتم به كان بها، وإذا لم تقبلوا، فكل واحد يذهب إلى حال سبيله، مفهوم؟ وإذا لم يكن لديكم اعتراض، فشرطي الوحيد هو أن تعالجوا سليمة، وبخلاف ذلك لن أستجيب لكم واضربوا رؤوسكم بالحائط بعدها.

نظر الرجل مرة أخرى إلى حليمة، التي بدت حزينة وغاضبة، وأرادت أن تقول شيئا، لكنها عجزت، كما لو أنها اختنقت بعبرة اعترتها، فما كان من الرجل إلا أن تقدم نحو فرحان يريد أن يمسك يده، وهو يقول:

– ليس الآن، نستطيع أن نحكي في الموضوع في وقت آخر.

– لا تتقدم، قف مكانك، ليس لدي وقت آخر، الآن أو ستخسرون كل شيء.. لو تقدم خطوة واحدة فستخسرون كل شيء.

توقف الرجل متلعثما، وهو لا يعرف ماذا يقول، لكن (فرحان) أحس أن الماكر يدبر أمرا ما، فهو ربما يحاول أن يهجم عليه ويلقيه أرضا، فتراجع إلى الوراء مسرعا وهو يقول:

– قف مكانك.

توقف الرجل ونظر إلى حليمة، التي كانت تقف متخشبة، غمزها، فأشارت إليه برأسها، فانبرى يقول فيه ود واضح الافتعال، موجها حديثه إلى فرحان:

– سنتفاهم فيما بعد، فيما بعد، أنا مشغول الآن. نطق ذلك واتجه صوب باب البيت، بينما ركض فرحان مسرعا نحو الغرفة التي ترقد فيها سليمة، قبلها في رأسها على عجل وخرج مسرعا وهو يشاهد الرجل المريب، الذي يعمل في فرق تجميع الأعضاء يغادر البيت. صعد السلم مسرعا وهو يتمتم بصوت مسموع، حزين وساخر:

– السماء أقرب إليهم مني... السماء أقرب إليهم مني...

قصـــة

حسمت القضية لصالح الصمت

دنى طالب

نغم حزين يملأ المكان. لكزها بعكسه فتركت الكتاب جانبا، شعرت برغبته بـــالتحدث إليـــها مجددا. قالت له:

- صب جدار من العتب والهزء.

أجابها على الفور:

- لا إرث لكم، لا ذكر.

- انتهى زمن ولم يبدأ بعده زمن. نحن وكأننا في فراغ فاصل بين زمنين، لا ثواني فيـــه أو حبات هواء.

- ستقولين الأول هو عمر التساؤل، والثاني زمن الحاضرين.

- ألا تعتقد بأنها ربما شدة التمني... بأن يسكن كل شيء حتى تجـد لنـا الجنيـات الثـلاث مخرجا. أتذكر قصة الأميرة النائمة... هل تعلم... كان ممكنا أن أقرأ قصصا لشباب موهوبيـــن. كان ممكنا أن أتمعن أكثر بلوحات جواد سليم. كان ممكنا أن يبكيني عود نصير... أن أكتب لـــك شعرا.

- لقد قلت انتهى الشعر الذي لكم ومنكم وفيكم.

- قبل الحشر... العيش بين زمنين كان ممكنا أن تكبر أنت...

تخفي وجهها بين كفيها وهي تغمغم:

- ربي أي فقد، أي فقد، أي فقد، أركض لألحق بالكلمة لألفظها.. أي فقد... أن تموت جدتـك فيقبر سر الحنو وأحلى الدعوات. وأي دين علي أن تجهل كنه رائحة غرف الجدات. أي "أنـــا" أن تحشر معي بين زمنين، في أرض لا تميز وقع أقدامنا.

تتحرك عيناه بين فمها وعينيها الغاضبتين. شعر بيديها تقتربان من خده. يبدأ خلافهما ككل مرة:

- أنت تحاربني بصمتك.

يجيبها في الحال:

- أنا لم أصمت، أنت تزيدينني عجزا... وكل الخرائط التي جمعتها وأتيت بها إليك لم تذكر دجلة الخير، كل القواميس لم تشر إلى محمد مكية، أو البصرة جنة البستان، الحدباء، وسالم المرزوق.

كاسيت يصدر صوتا مسموعا يشير إلى انتهاء دورته. يخبط بطنها بقوة. تقول له:

- وأنت لم تقل أيضا عن قصيدة لحنها جدك عن "غريب في الخليج" بأنها صعبة الإيقاع.

تسمع شهقته فيضعف صوتها.

- أتدري نحن نتقاسم جحرنا، خرسك ونزقي. آه.. أي فقد، أتعلم... وتلك الأرض التي لا تميز وقع أقدامي... وأنا بمعاداتي للكلام أو السماع، للمحطات والبريد والأسماء.

- أوه أدري... الأسماء عندكم اجترحت لها دلالاتها الأخرى، فالقديمة مطعونة بخيبتها، والجديدة مملولة تمضغ الغربة كالعلكة.

- كيف وتلك الذكريات التي تأتي كصوت نواح امرأة من بعيد لا تكف.

- وتقولين كيف ألملم نثاري وتاريخي الذي تتناوشه أزمان أغرب من أزمان.

- أنت لن تفهم، و(علي الشوك) جاء متأخرا جدا ليوهمني بمدينتنا.. أستاذي الفاضل.. كان ممكنا جدا أن نتحدث عن لهجاتنا، أن نسهب بالحديث عن أحب المعزوفات إلى قلبنا والكتب.. لو رأيتني قبلا.. كان ممكنا قبل حشري أن تعود لي رشاقتي فأخيط لي فستانا.. وأن أحب مجددا.. أن..

تصمت قليلا ثم تكمل:

- لكننا بخندق واحد معا.. وأنا لا أستطيع أن أشير بإصبعي إلى أحد.

- أنا أحاول يا أماه أن أفهم.

في بطنها رأسه المدفون يتعب، وركلة عكسية تهن. تميل بجذعها كي تلتقط صوتا ضعيفا. تسمع غمغمات مما حفظ، تعلم بأنه سينام ويطبق الصمت من جديد.

كوبنهاجن

٢٠٠٠/٤/١

قصة

قصتان

سلوى زكزك

شاي بالنعناع

كنت صغيرة عندما قرأت اسم هذا الفيلم.

تساءلت: فيلم وشاي بالنعناع! لم أكن أعرف السينما بعد. طلبت من أمي أن تصنع لي شايا بالنعناع. ضحكت وقالت: النعنع للأكل والشاي يشربه أهل الشام فقط، ونسيت القصة كلها.

بعد أعوام وبعد حوارات جدية مع نفسي، أضحك الآن حين أتذكرها، اكتشفت بأنني أحس بميل نحو ابن جيران لنا في نفس البناء، كان عامل نجار وكنت أتقصد اللعب مع أبناء الجيران الذين تجاوزتهم عمرا فقط لأراه حين عودته في المساء. كم كنت أفرح برؤيته، لم أذكر أني كلمته أبدا. كان لساني عاجزا حتى عن بلع ريقي حين أراه. وكان يحضر لي أخشابا مختلفة الحجوم، أشكل منها أشكالا لبيوت واسعة وحدائق أطفال وعرائس، وأستفيق صباحا لأرى أمي قد رمتها كلها فأعاود انتظار ابن الجيران لآخذ حصتي اليومية من هداياه الثمينة ولأفرح من جديد برؤيته.

مرة وعندما اجتمعت نسوة البناء عند جارتنا الولادة في الطابق الذي فوق بقيت وحيدة. حتى الأولاد انصرفوا مع أمهاتهم في تلك الزيارة المهولة.

دق الباب وكان بانتظاري حين فتحت، مد يده بالأخشاب وبقي واقفا، دعوته للدخول ولا أدري ماذا خطر ببالي حينها – حلم قديم لون الفرجة له وقع احتفال كبير أو مهرجان فرح صاخب رقصت له جدران قلبي. بدون أي تفكير أو تردد صنعت شايا بالنعناع، وبفناجين الضيوف قدمته، سألته إن كان الشراب لذيذا، قال: إن قبلني سيعرف طعمه أكثر، لم أرفض مع أني لم أفهم قصده حينها. قبلني بسرعة ومضى على صراخ الأولاد العائدين من زيارتهم دون أن يرتشف رشفة واحدة من فنجانه.

أما أنا، فقد شربت الفنجانين وأصبح للشاي بالنعناع في فمي طعم القبلة الأولى...

الكذاب

رغم كذبه، فأنا أصدقه. أحب الكذب أكثر منه، لكني لا أتقن صنعته.

يختزن أحمد حكايا أمه وأجداده ويعيد قصها بحلة جديدة أكثر تشويقا، يطعمها بكذبات واضحة لكنها جميلة.

بين أحمد وبين الكذب التزام حميم، فلم يستغن عنه يوما وما خان الكذب أحمد في أي يوم. الكذب زوادته وسلاحه في الحياة.

يدرس الطب. يحب الشعر. ويخاف كل ما هو مجهول، يتحايل عليه بالكذب. يخاف العين الشريرة فيعلق ملابسه ليلا كي يطهرها ضوء القمر من شر العيون الآثمة. يخشى البشر القساة، فيهرب منهم. لا يبكي ولكنه لا يستطيع تصديق أحد.

فجأة غاب أحمد ولم أعد أراه. أطال الغياب ولم أجده. وسعت دائرة البحث، أكثرت الأسئلة والجواب واحد: سافر أحمد إلى فرنسا للاختصاص. لكنه لم يجتز امتحانه الأخير. لأول مرة لم أصدق.

كذباته تشتعل في رأسي وتومض بالقلق. تخيلت صوته قادما إلي وتوقعت عودته، إلى أن جاءني الخبر الصحيح: أحمد في المشفى. تعرض لحادث سيارة وبترت ساقه. إنه لا يريد رؤية أحد، ولا أن يعرف أحد بما جرى له.

ركضت إليه والشارع والناس في عيني سيقان جميلة ما دامت تمشي، جميلة ما دامت ملتصقة بجذع أصحابها.

ذهبت إليه راجية أن تكون ساقه المبتورة أكبر كذبة في حياته.

وصلت. كان أحمد مستلقيا على السرير. بكيت محاولة الابتسام. جسده مغطى. قبلته وجلست. أحطت ساقيه أو مكان ساقيه بيدي واكتشفت الحقيقة: أحمد بساق واحدة. غطى الفراغ يدي. تذكرت الناس وسيقانهم. بكيت وبكى أحمد، لكنه قال ساخرا: الربيع قادم، ولا بد سيزهر جسدي بساق جديدة. كان يكذب لكني صدقته. آه ما أحلى كذبك يا أحمد، وكم أصدقك!

حفلة التيس

فصل من رواية ماريو بارغاس يوسا الأخيرة

ترجمة: صالح علماني

في الثلاثين من أيار ١٩٦١، تمكن كمين نصبته جماعة من المتآمرين خارج مدينة سانتو دومنغو (وكانت تسمى آنذاك «مدينة تروخييو» من قتل رجل الدومينيكان القوي، الزعيم والرئيس الموقر والمنعم إلى الوطن، ومستعيد الاستقلال المالي، وأبي الوطن الجديد فخامة الجنراليسمو الدكتور رافائيل ليونيداس تروخييو موليناء السيد الذي يكرمه الوطن بألفي تمثال لشخصه موزعة في كل مدينة وقرية من البلاد، ترصد الجميع «ولا يمكن حتى لذبابة واحدة أن تتبرز إلا بإذن منه».

في ذلك اليوم الذي قتل فيه، كانت جمهورية الدومينيكان تعيش السنة الحادية والثلاثين من «عصر تروخييو»، زعيمها المبجل الذي استولى على السلطة منذ عام ١٩٣٠، ووضع كل ثروات البلاد ومقدراتها في قبضته: فهو مالك كل شيء في الدومينيكان، ابتداء من مزارع قصب السكر والبن ونخيل وجوز الهند وتربية الأبقار والخيول الأصيلة، وحتى احتكار الملح، مرورا بشركة الطيران وشركة التأمين، ومصانع تكرير السكر والنفط، وصناعة الخمور، والتبغ، والاسمنت،والكبريت، والدقيق، والأحذية، وسلسلة المواخير وتجارة المخدرات. كما ترك تروخييو فوق هذا كله إرثا ضخما من ملابسه الشخصية يتضمن ألفي بدلة مدنية، وثلاثمئة وخمسين بدلة عسكرية، وستمئة حذاء، وتسعة آلاف وستمئة ربطة عنق، وحسابات مصرفية بمئات ملايين الدولارات في مصارف سويسرا، ولم يحزن عليه أكثر من ابنه المدلل رامفيس سوى أسماك القرش في البحر الكاريبـــي التي كان يدللها ويعلفها بلحم خصومه ومعارضيه الذين يلقي بهم إليها وهم أحياء، فلا تترك لهم أثرا.

حول ذلك الطاغية المتوحش الذي كان يخفي عينيه الرهيبتين وراء نظارة سوداء، لأنه «لم يكتف بمراقبة سلوك الجميع، وإنما راقب ضمائرهم وأحلامهم كذلك» كتب الروائي البيروي ماريو بارغاس يوسا روايته الأخيرة التي صدرت بالإسبانية في شهر آذار الماضي بعنوان «حفلة التيس»، وستصدر قريبا بترجمة لصالح علماني إلى العربية عن دار المدى. وفيما يلي نقدم أحد فصول الرواية.

في المرة الثالثة التي ألحت فيها أورانيا على تقديم اللقمة، فتح المشلول فمه. وعندما رجعت الممرضة بكأس الماء، كان السيد كابرال مسترخيا وكالساهم، يتقبل بوداعة لقيمات الفاكهة المخفوقة التي تقدمها إليه ابنته، وشرب في رشفات قصيرة نصف كأس الماء. انزلقت بضع قطرات من جانبي فمه حتى ذقنه. فمسحتها الممرضة برقة. وهنأته:

– جيد جدا، جيد جدا، لقد أكلت فاكهتك مثل طفل طيب. إنك سعيد بالمفاجأة التي قدمتها إليك ابنتك، أليس كذلك يا سيد كابرال؟

لا يتكرم المشلول بالنظر إليها.

– هل تتذكرين تروخييو؟ – تسألها أورانيا مباشرة.

تنظر إليها المرأة بحيرة. إنها عريضة المؤخرة، محتقنة، لها عينان زائغتان. وشعر ذو لون أشقر صدئ تشي جذوره السوداء بالصبغة المستخدمة. وأخيرا تستجيب:

– وماذا يمكنني أن أتذكر، لقد كان عمري أربع أو خمس سنوات عندما قتلوه. لست أتذكر شيئا، لا شيء سوى ما سمعته في بيتي. لقد كان أبوك شخصية مهمة في ذلك الحين، أعرف ذلك.

تهز أورانيا رأسها موافقة، وتدمدم:

– سيناتور، وزير، كل شيء. ولكنه وقع في المحنة في نهاية المطاف.

ينظر إليها العجوز مذعورا. وتحاول الممرضة أن تبدو لطيفة:

– حسن، حسن. قد يكون دكتاتورا وكل ما يقولونه عنه، ولكن يبدو أن الحياة كانت أفضل آنذاك. الجميع كان لديهم عمل، ولم تكن تقترف كل هذه الجرائم. أليس كذلك يا آنسة؟

– لو كان بإمكان أبي أن يفهمك، فسيكون سعيدا بسماع ما تقولين.

– إنه يفهمني بالطبع – تقول الممرضة وقد أصبحت عند الباب – أليس كذلك يا سيد كابرال؟ أبوك وأنا نجري أحاديث طويلة. حسن، يمكنك أن تستدعيني إذا ما احتجت إلي.

تخرج وتغلق الباب.

ربما كان صحيحا – بسبب الحكومات الكارثية التالية – أن دومينيكانيين كثيرين يحنون إلى تروخييو. لقد نسوا التعسف، والاغتيالات، والفساد، والتجسس، والعزلة، والخوف: فقد تحول الرعب إلى أسطورة، «الجميع كان لديهم عمل، ولم تكن تقترف كل هذه الجرائم».

– بل كانت تقترف يا أبي – تبحث عن عيني المشلول الذي راح يرمش – لم يكن هناك لصوص كثيرون يدخلون البيوت، ولم يكن ثمة نشالون كثيرون ينقضون في الشارع لانتزاع حقائب، وساعات، وعقود المارة. ولكن كان الناس يقتلون، يضربون، يعذبون ويختفون. بمن في ذلك أكثر الناس قربا من النظام. كم من أعمال التعسف اقترفها مثلا الابن المدلل، رامفيس الجميل. وكم كنت ترتجف خوفا من أن يضع عينه علي.

أبوها لا يعرف، لأن أورانيا لم تخبره، بأنها وزميلاتها في مدرسة سانتو دومينغو، وربما كل

فتيات جيلها، كن يحلمن برامفيس. بشاربه الدقيق المشذب مثل عاشق في فيلم مكسيكي، ونظارته ماركة راي-بان، وبدلاته المزركشة، وبزاته العسكرية المتنوعة كقائد لسلاح الطيران الدومينيكاني، وعينيه السوداوين، وقامته الرياضية، وساعاته وخواتمه التي من الذهب الخالص، وسيارته المرسيدس بنز، يبدو وكأنه صفي الآلهة: فهو غني، متنفذ، وسيم، سليم، قوي، سعيد. إنك تتذكرينه جيدا يا أورانيا: فعندما لا يكون بإمكان الراهبات رؤيتكن أو سماعكن، كنت أنت وزميلاتك تعرضن مجموعاتكن من صور رامفيس تروخييو، بالثياب المدنية، بالزي العسكري، بملابس السباحة، بربطة عنق، بلباس الرياضة، الإتيكيت، بدلة ركوب الخيل، وهو يقود فريق البولو الدومينيكاني أو وهو جالس وراء مقود طائرته. وكن يختلقن أنهن رأينه، تحدثن معه، في النادي، في المهرجان، في الحفلة، في الاستعراض، في الملهى، وعندما يتجرأن على قول هذه الأشياء – وهن يشعرن بالحياء، بالذعر، ويعرفن أنهن يرتكبن خطيئة الكلمة والتفكير التي لا بد لهن من الاعتراف عنها في الكنيسة – يتوشوشن، كم هو جميل، كم هو بديع أن يحبهن، يقبلهن، يعانقهن، يداعبهن رامفيس تروخييو.

– لا يمكنك أن تتصور كم من المرات حلمت به يا أبي.

أبوها لا يضحك. لقد طفر في مقعده ثانية وفتح عينيه كثيرا لدى سماع اسم ابن تروخييو الأكبر. الابن المفضل، والذي كان لهذا السبب بالذات، أسوأ خيبات أمل أبيه. لقد كان أبو الوطن الجديد يرغب في أن يكون لدى نجله – «هل كان ابنه حقا يا أبي؟» – مثل شهيته إلى السلطة، وأن يكون نشيطا وعمليا مثله. ولكن رامفيس لم يرث عنه أيا من فضائله أو عيوبه، ربما باستثناء هوس المضاجعة، الحاجة إلى طرح نساء في الفراش لكي يقنع نفسه بفحولته. كان يفتقر إلى الطموح السياسي، وإلى أي نوع من الطموح، وكان كسولا، ميالا إلى الخمول، إلى الانطواء العصابي، محاصرا بعقد، بكروب وتقلبات، بسلوك متعرج ذي انفجارات هستيرية وفترات طويلة من فقدان الإرادة يطفئها بالمخدرات والكحول.

– أتعرف ما الذي يقوله كتاب سيرة الزعيم يا أبي؟ يقولون إنه تحول إلى تلك الحال عندما عرف أن أمه، عند ولادته، لم تكن قد تزوجت من تروخييو بعد. وإنه بدأ يصاب بالاكتئاب حين علم أن أباه الحقيقي هو الدكتور دومينيتشي، أو ذلك الكوبي الذي أمر تروخييو بقتله، العشيق الأول لدونيا ماريا مارتينيث، حين لم تكن تحلم بأنها ستصير السيدة المهيبة، وكانت مجرد امرأة عادية ذات حياة مريبة، ملقبة بـ «الاسبانيوليتا». أأنت تضحك؟ لا أصدق ذلك!

من الممكن أنه يضحك. ويمكن أيضا أن يكون مجرد ارتخاء في عضلات الوجه. ولكن وجهه على أي حال ليس وجه شخص يستمتع؛ بل هو أقرب إلى وجه من انتهى للتو من التثاؤب أو الصياح وبقي بفك مرتخ وعينين نصف مفتوحتين وشدق مفتوح، مبديا فجوة قاتمة، بلا أسنان.

– أتريدني أن أستدعي الممرضة؟

يغمض المشلول عينيه، يرخي وجهه ويستعيد التعبير المتيقظ والمذعور. يبقى منكمشا، ساكنا، منتظرا. يلفت انتباه أورانيا فجأة صراخ ببغاوات يثير الاضطراب في الغرفة. ولكنه يتوقف بغتة

مثلما بدأ. هناك شمس بديعة؛ تصل إلى الأسطحة والزجاج وتبدأ بتدفئة الحجرة.

– أتعرف يا أبي؟ على الرغم من كل الحقد الذي كنت ومازلت أكنه لزعيمك، لأسرته، ولكل ما له رائحة تروخييو، إلا أنني في الحقيقة، عندما أفكر في رامفيس، أو أقرأ عنه، لا أستطيع إلا أن أشعر بالأسى.. بالشفقة.

من الممكن أنه كان مسخا، مثل كل تلك الأسرة من المسوخ. وما الذي كان بإمكانه أن يكونه، وهو ابن من كان ابنه، ترعرع وتربى مثلما ترعرع وتربى؟ أي شيء آخر كان يمكن أن يكونه ابن هيليوغابال، ابن كاليجولا، ابن نيرون؟ أي شيء آخر يمكن أن يصير إليه طفل يجري تعيينه وهو في السابعة من عمرة، بمرسوم – «هل أنت من قدمت ذلك المرسوم إلى مجلس الشيوخ يا أبي أم السيناتور تشيرينوس؟» – كولونيلا في الجيش الدومينيكاني، ويرفع في العاشرة من عمره إلى جنرال، في احتفال عام، يتوجب على السلك الدبلوماسي حضوره، وأن يقدم إليه القادة العسكريون فروض الاحترام؟ وأورانيا تحتفظ بتلك الصورة محفورة في ذهنها، صورة في الألبوم الذي كان أبوها يحفظه في خزانة الصالة – تراه ما زال هناك؟– وفيها يظهر السيناتور المتأنق أغوسطين كابرال («أم أنك كنت وزيرا في ذلك الحين يا أبي؟»)، بسترة فراك متقنة، تحت شمس حارقة، ينحني باحترام لتقديم تحيته إلى الطفل الذي يرتدي زي الجنرال، وهو يقف فوق منصة صغيرة مغطاة بمظلة حيث انتهى للتو من استعراض العرض العسكري وبدأ يتلقى تهاني صف طويل من الوزراء والبرلمانيين والسفراء. وفي عمق المنصة يظهر الوجهان السعيدان للمنعم والسيدة المهيبة، الأم الفخورة بابنها.

– أي شيء آخر كان يمكن له أن يصير إليه سوى ذلك الكسول، السكير، المغتصب، الأبله، قاطع الطريق، مختل التوازن الذي كانه؟ لم نكن أنا وزميلاتي في مدرسة سانتو دومنغو نعرف شيئا من ذلك عندما كنا نعشق رامفيس. أما أنت فكنت تعرف يا أبي. ولهذا كنت تخشى أن يراني، أن يتوحم على ابنتك، ولهذا السبب أبديت ما أبديته في ذلك اليوم الذي وجه إلي لفتة حانية وعبارة متوددة. أنا لم أكن أفهم شيئا!

يرمش المشلول مرتين، ثلاث مرات.

فعلى العكس من زميلاتها اللواتي كانت قلوبهن تخفق من أجل رامفيس تروخييو، وكن يختلقن أنهن رأينه وتكلمن معه، وأنه ابتسم لهن وغازلهن، فإن ذلك قد حدث لأورانيا حقا. فخلال افتتاح الحدث العظيم للاحتفال بالسنة الخامسة والعشرين لعهد تروخييو: **مهرجان سلام وأخوة العالم الحر**، والذي يبدأ منذ ٢٠ كانون الأول ١٩٥٥، ويستمر طوال عام ١٩٥٦، ويكلف – «لم يعرف قط الرقم الحقيقي يا أبي» – ما بين خمسة وعشرين وسبعين مليون دولار، أي ما بين ربع ونصف الميزانية الوطنية. أورانيا مازالت تحتفظ في ذاكرتها بتلك الصور حية، وبالانفعال، والإحساس العجيب الذي غمر البلاد بأسرها في ذلك المهرجان المشهود. لقد كان تروخييو يحتفل بذاته.. تروخييو يحتفل بتروخييو، محضرا إلى مدينة سانتو دومنغو («بل إلى مدينة تروخييو، اعذرني على هذا الخطأ يا أبي.») أوركسترا خابيير كوغات، وكورال الليدو من باريس، وفتيات فريق آيس كابادس

الأمريكيات للتزلج على الجليد، ويبني في مساحة المعرض المؤلفة من ثمانمئة ألف متر مربع واحدا وسبعين مبنى، بعضها من الرخام، والمرمر، والعقيق، من أجل إيواء وفود الاثنين والأربعين بلدا من العالم الحر الذين حضروا... باقة من الشخصيات السامية من بينها رئيس البرازيل جوسلينو كوبيتشيك، والطلعة الارجوانية للكردينال فرانسيس سبيلمان، مطران نيويورك. وكانت ذروة أحداث تلك الاحتفالات هي ترفيع رامفيس، لخدماته المرموقة التي قدمها للوطن، إلى رتبة جنرال أول، وتتويج عطوفة جلالة أنخيليتا الأولى ملكة للمهرجان، وقد وصلت ابنة تروخييو إلى مكان الاحتفال في سفينة، تحييها صفارات كل سفن البحرية وتقرع من أجلها نواقيس كل كنائس العاصمة، بتاجها من الأحجار الكريمة وفستانها المتقن من السب الشفاف والحرير المخرم الذي تم تفصيله في روما على يد خياطتين مشهورتين، هما الأختان فونتانا، استخدمتا فيه خمسة وأربعين مترا من فراء القاقم الروسي، طول نيله ثلاثة أمتار، وعباءته تحاكي تلك التي ارتدتها إليزابيت الأولى ملكة إنكلترا في حفل تتويجها. وبين الوصيفات والغلمان، كانت أورانيا بفستان متقن من الأورغنزا، وقفازين من الحرير وحفنة ورود في يدها، مع طفلات وشابات أخريات منتقيات من المجتمع الدومينيكاني الراقي. كانت أصغر الوصيفات في بطانة البراعم اللواتي يحرسن ابنة تروخييو تحت الشمس الانتصارية، وسط تلك الحشود التي تصفق للشاعر ووزير الرئاسة دون خواكين بالاغير، وهو يمتدح جلالة أنخيليتا الأولى ويضع الشعب الدومينيكاني عند قدميها وعطفها. وبينما أورانيتا تحس بأنها امرأة صغيرة، كانت تسمع أباها، بملابس الاتيكيك، يقرأ خطبة تقريظ لمنجزات الخمس والعشرين سنة تلك، والتي تحققت بفضل تصميم، وبصيرة، ووطنية تروخييو. إنها سعيدة إلى أقصى الحدود («لم أعد إلى الشعور بالسعادة قط مثلما شعرت بها في ذلك اليوم يا أبي.») تحس بأنها مركز الاهتمام. والآن، في قلب المهرجان، يزاح الستار عن تمثال تروخييو البرونزي، بسترة وعباءة أكاديمية، وفي يده دبلومات الأستاذية. وفجأة – مسك ختام ذلك الصباح السحري – تكتشف أورانيا، إلى جانبها، رامفيس تروخييو، ببزة الاستعراض الكبير، ينظر إليها بعينيه الحريريتين.

– وهذه الصبية باهرة الجمال، من تكون؟ – يبتسم لها الجنرال الأول الباهر. وتشعر أورانيا بأصابع دافئة، رفيعة، ترفع ذقنها – ما هو اسمك؟

– أورانيا كابرال – تتلعثم بقلب جامح.

«كم أنت جميلة، بل كم ستصبحين جميلة»، ينحني رامفيس وتقبل شفتاه يد الطفلة التي تسمع الصخب، والتنهدات، والمزاح الذي يحتفي به غلمان ووصيفات جلالة أنخيليتا الأولى. لقد انصرف ابن الجنراليسمو. أما هي فلم تعد نفسها تتسع لها من السعادة. ما الذي ستقوله صديقاتها عندما يعلمن أن رامفيس، وليس اقل، قد ناداها بالجميلة، وأمسك خدها وقبل يدها، وكأنها امرأة صغيرة.

– كم استأت يا أبي عندما أخبرتك بذلك. كم غضبت. موقفك يدعو للسخرية، أليس كذلك؟

غضب أبيها ذاك حين علم بأن رامفيس قد لمسها جعل أورانيا ترتاب للمرة الأولى بأن ليس كل شيء على ما يرام كما يبدو في جمهورية الدومينيكان، مثلما يقول الجميع، وخصوصا السيناتور كابرال.

– وما السيء في أن يقول لي إنني جميلة ويداعبني مداعبة حانية يا أبي.

– كل سوء العالم – يرفع أبوها صوته مثيرا ذعرها، فهو لم يؤنبها قط بإصبعه السبابة الحاسمة تلك التي تهتز فوق رأسها - إياك أن يتكرر ذلك! اسمعي جيدا يا أورانتا. إذا ما اقترب منك، أخرجي راكضة. لا تحييه، لا تكلميه. اهربي. هذا من أجل مصلحتك.

– ولكن، ولكن... – لقد صارت الطفلة بحرا من البلبلة.

كانا قد رجعا للتو من مهرجان سلام وأخوة العالم الحر، هي ما تزال بفستانها البديع كوصيفة مرافقة لجلالة أنخيليتا الأولى، وأبوها بسترة الفراك التي ألقى بها خطبته أمام تروخييو، وأمام الرئيس نيغرو تروخييو، والدبلوماسيين والوزراء، والمدعوين، وآلاف آلاف الأشخاص الذين يملؤون الجادات والشوارع والمباني المزينة بأعلام المهرجان. لماذا غضب هكذا؟

– لأن رامفيس، هذا الفتى، هذا الرجل.. سيئ. – يبذل ابوها جهدا لكي لا يقول كل ما يريد قوله –. إنه سيئ مع الفتيات، مع الطفلات. لا تخبري بذلك صديقاتك في المدرسة. لا تخبري أحدا. إنني أقول هذا لك، لأنك ابنتي. وهذا واجبي. يجب علي أن أحميك. من أجل مصلحتك يا أورانيتا، هل تفهمينني؟ أجل، فلهذا أنت ذكية. لا تتركيه يقترب منك، أو يكلمك. إذا ما رأيته، فأسرعي إلى حيث أكون أنا. فهو لن يفعل بك شيئا وأنت بجانبي.

لم تفهمي يا أورانيا. فأنت نقية مثل زنبقة بيضاء. بلا أي خبث بعد. تقولين لنفسك إن أباك غيور، لا يريد أن يكون هناك من يحنو عليك أو يقول لك إنك جميلة، إلا هو. ردة فعل السيناتور كابرال تلك تشير إلى أن رامفيس الرشيق، رامفيس الرومنطيقي، كان قد بدأ في ذلك الحين فظاعاته مع الطفلات، مع الصبايا، مع النساء، تلك الفظاعات التي تضخم سمعته، وهي سمعة يتطلع كل دومينيكاني، وضيع أو رفيع المولد، إلى التوصل إليها. أن يكون مضاجعا عظيما. فحلا، ومجامعا شرسا. وتأخذين بمعرفة ذلك شيئا فشيئا، في دروس وباحات مدرسة سانتو دومنغو، مدرسة البنات الراقيات، مدرسة راهبات الدومينيك الأمريكيات والكنديات، ذوات الزي الحديث، وتلميذاتهن لا يبدون مستجدات، فهن يلبسن ثيابا وردية وزرقاء وبيضاء، وجوارب سميكة وأحذية بلونين (أبيض وأسود)، مما يمنحهن مظهرا رياضيا ومعاصرا لزمنهن. ولكن، حتى هؤلاء الفتيات لسن بمنجى عندما يخرج رامفيس في جولاته، وحيدا أو مع أصدقائه، بحثا عن إناث في الشوارع، في الحدائق، في الأندية، في أو في البيوت الخاصة في إقطاعيته الكبرى التي هي جزيرة كيسكيا. كم من الدومينيكانيات غرر بهن، اختطفهن، اغتصبهن رامفيس الجميل؟ لم يكن يهدي للوطنيات سيارات كاديلاك، ولا معاطف من فرو النمس، مثلما كان يهدي لفنانات هوليود بعد أن يضاجعهن أو من أجل أن يضاجعهن. لأن الشاب الطبيب رامفيس، وعلى خلاف أبيه، هو بخيل مثل أمه. فالدومينيكانيات يضاجعهن مجانا، مقابل شرف أن يضاجعهن ولي العهد، كابتن فريق البولو الوطني الذي لا يهزم، الجنرال الأول، وقائد سلاح الطيران.

كل ذلك رحت تعرفينه من خلال الوشوشات والاشاعات، من خلال تخيلات ومبالغات مختلطة بوقائع تتداولها التلميذات، من وراء ظهر الراهبات، في الفسحة بين الدروس، مصدقة وغير مصدقة،

بين جذب وصد، إلى أن وقع أخيرا ذلك الزلزال في المدرسة، في مدينة تروخييو، لأن ضحية ابن أبيه المدلل في هذه المرة كانت واحدة من أجمل بنات المجتمع الدومينيكاني، ابنة كولونيل في الجيش. إنها المتألقة روساليا بيردومو، ذات الشعر الأشقر الطويل، والعينين السماويتين، والبشرة المصقولة، والتي تؤدي دوما دور مريم العذراء عند تمثيل آلام المسيح، فتذرف الدموع مثل أم محزونة حقيقية عندما يموت ابنها. لقد شاعت روايات كثيرة حول ما حدث. بعضها يقول إن رامفيس تعرف عليها في حفلة، إنه رآها في الكانتري كلوب، في أحد الملاهي، وأنه وضع عينه عليها في ميدان سباق الخيل، وحاصرها، اتصل بها، كتب إليها وواعدها، وفي مساء يوم الجمعة ذاك، بعد ساعة الرياضة التي تبقى خلالها روساليا في المدرسة بعد الدروس، لأنها ضمن فريق كرة الطائرة المدرسي. رأتها رفيقات كثيرات، لدى الخروج – أورانيا لا تتذكر إذا كانت قد رأتها، وليس ذلك مستحيلا–، بأنها بدلا من أن تصعد إلى حافلة المدرسة، ركبت في سيارة رامفيس الذي كان ينتظرها على بعد أمتار قليلة من الباب. لم يكن وحيدا. فابن أبيه المدلل لا يمضي وحيدا أبدا، فعلى الدوام يرافقه صديقان أو ثلاثة يحتفون به، يتملقونه، يخدمونه ويزدهرون على حسابه. مثل صهره، زوج أخته أنخيليتا، الملقب بينتشيتو، ومدلل آخر، الكولونيل لويس خوسيه ليون إستيفيث. أيكون معهم الأخ الأصغر كذلك؟ القبيح، الفظ، عديم الجاذبية راداميس؟ بكل تأكيد. أهم مخمورون؟ أم أنهم سيسكرون بينما هم يفعلون ما سيفعلونه بالشقراء، البيضاء كالثلج روساليا بيردومو؟ لا شك في ذلك، ولن ينتظروا إلى أن تنزف الصغيرة دمها. وعندئذ يتصرفون بشهامة. قبل ذلك يغتصبونها. ويكون من نصيب رامفيس، لكونه من يكون، أن يفض بكارة الوجبة اللذيذة. ومن بعده الآخرون. أيفعلون ذلك حسب نظام الأقدمية أو درجة القرابة؟ أم تراهم يضربون قرعة من أجل الدور؟ كيف يفعلون ذلك يا أبي؟ وفي أوج الهجمة، يفاجئهم النزيف.

وبدلا من أن يلقوا بها في حفرة، في الحقول، مثلما كانوا سيفعلون لو لم تكن روساليا تحمل كنية بيردومو، لو لم تكن طفلة بيضاء، شقراء، غنية ومن أسرة تروخييوية مرموقة، مثلما كانوا سيفعلون لو أنها بلا كنية معروفة، بلا مال. يتصرفون بتقدير للمكانة. يأخذونها إلى بوابة مستشفى ماريون، وهناك – أهو حسن حظ روساليا أم محنتها؟– يتمكن الأطباء من إنقاذها. وينشرون كذلك القصة. يقال إن أباها المسكين، الكولونيل بيردومو لم يسترد وعيه من حالة الذهول التي أصابته حين علم أن رامفيس تروخييو وأصدقاءه قد دنسوا بلهو كرامة ابنته المعبودة، ما بين الغداء والعشاء، مثل من يقتل الوقت بمشاهدة فيلم. أما أمها فلم تطأ الشارع منذ ذلك اليوم وقد حطمها العار والألم. ولم يعد يراها أحد حتى في القداس.

– أهذا ما كنت تخشاه يا أبي؟ – تتابع أورانيا عيني المشلول – أكنت تخشى أن يفعل بي رامفيس وأصدقاؤه مثلما فعلوا بروساليا بيردومو؟

«إنه يفهم»، تفكر وهي تصمت. أبوها يثبت عينيه عليها؛ في عمق حدقتيه ثمة توسل صامت: اصمتي، توقفي عن حك هذه القروح، عن بعث هذه الذكريات. ليست لديها أي نية لعمل ذلك. أولم تحضري من أجل هذا إلى هذه البلاد التي أقسمت ألا ترجعي إليها؟

- أجل يا أبي، لا بد أنني جئت من أجل هذا - تقول ذلك بصوت خافت جدا لا تكاد تسمعه - . لقد جئت لأجعلك تمر بلحظة عصيبة. مع أنك أخذت احتياطاتك بهذا الشلل الدماغي. انتزعت من ذاكرتك الأمور الكريهة. هل محوت كذلك قضيتي، قضيتنا؟ أنا لم أمحها. ولا ليوم واحد. ولا يوم من هذه السنوات الخمس والثلاثين يا أبي. لم أنس أبدا، ولم أسامحك. ولهذا السبب، عندما كنت تتصل بي وأنا في جامعة سيئا العليا، أو في هارفرد، كنت أسمع الصوت وأقفل الخط دون أن أتركك تكمل. «بنيتي، أهذه أنت...؟» تك. «أورانيتا، اسمعيني...»، تك. ولهذا السبب لم أرد مطلقا على أي واحدة من رسائلك. هل كتبت لي مئة رسالة؟ مئتين؟ كنت أمزقها أو أحرقها كلها. لقد كانت رسائلك تلك شديدة النفاق. تتكلم فيها بلف ودوران، بتلميحات، خوفا من أن تقع رسائلك في أيد غريبة، خوفا من أن يعلم آخرون بتلك القصة. أتدري لماذا لم أستطع أن أسامحك قط؟ لأنك لم تندم قط على ذلك ندما حقيقيا. فبعد كل تلك السنوات الطويلة في خدمة الزعيم، فقدت الوساوس، والحساسية، وأدنى قدر من الاستقامة. مثلما هم زملاؤك. وربما مثلما هي البلاد بأسرها. أكان ذلك هو المطلوب من أجل البقاء في السلطة دون أن تموتوا قرفا؟ أن تبقوا مشوقين وسعداء مثل رامفيس الجميل بعد اغتصابه روساليا وتركها تنزف في مستشفى ماريون.

الطفلة روساليا بيردومو لم ترجع إلى المدرسة بالطبع، ولكن وجهها العذب وهي تمثل دور مريم العذراء مازال يسكن قاعات، وممرات، وأفنية مدرسة سانتو دومنغو، فالأقاويل، والوشوشات، والتخيلات التي أثارتها محنتها استمرت لأسابيع، لشهور، بالرغم من أن الراهبات منعن حتى ذكر اسم روساليا بيردومو. ولكن، في بيوت المجتمع الدومينيكاني، وحتى في بيوت أكثر الأسر تعصبا لتروخييو، كان هذا الاسم يتردد مرة بعد أخرى، كتحذير فظيع، كتنبيه مرعب، وخصوصا في البيوت التي فيها صغيرات وآنسات في سن الاستحقاق، وتؤجج القصة الخوف من أن رامفيس الجميل (وكان فوق ذلك متزوجا من المطلقة أوكتافيا -تانتانا- ريكارت!) سيكتشف فجأة وجود الطفلة، وجود الفتاة، وسيقيم عليها واحدة من حفلات الوريث المدلل تلك التي ينظمها بين حين وآخر على من يشتهيها، فمن الذي سيحاسب الابن الأكبر للزعيم وحلقة أصدقائه المقربين؟

- وبسبب مسألة روساليا بيردومو أرسل زعيمك ابنه رامفيس إلى الأكاديمية العسكرية في الولايات المتحدة، أليس كذلك يا أبي؟

أرسله إلى أكاديمية فورت ليفنوورث، في كنساس سيتي، عام ١٩٥٨. لكي يبقيه سنتين بعيدا عن مدينة تروخييو، حيث قصة روساليا بيردومو، كما يقال، أثارت حنق فخامته بالذات. ليس لأسباب أخلاقية، وإنما عملية. فهذا الفتى الأحمق، بدلا من أن يتشرب شؤون الحكم ويهيئ نفسه باعتباره ابن الزعيم البكر، يقضي حياته في التهتك، في لعب البولو، في السكر مع بطانة من الكسالى والطفيليين والقيام بظرافات مثل اغتصاب والتسبب في نزف طفلة من إحدى أشد الأسر ولاء لتروخييو. فتى مغرور، سيء التربية. فليذهب إلى أكاديمية فورت ليفينوورث، في كنساس سيتي!

ضحكة هستيرية تجمد أورانيا ويعود المشلول إلى الانطواء على نفسه، كما لو أنه يريد الاختفاء في نفسه بالذات، مرتبكا من هذه القهقهة المفاجئة. فتضحك أورانيا حتى تمتلئ عيناها بالدموع. فتمسحهما بالمنديل.

– لقد كان الدواء اسوأ من الداء. فبدلا من أن تكون عقوبة، تحولت رحلة رامفيس الجميل إلى فورت ليفنوورث إلى مكافأة.

لا بد أن الأمر كان مضحكا، أليس كذلك يا أبي؟: فالضابط الدومينيكاني الصغير يصل إلى هناك لاتباع دورة للنخبة، بين مجموعة مختارة من ضباط الولايات المتحدة، فيظهر برتبة الجنرال أول، وبعشرات الأوسمة، وبحياة عسكرية طويلة على كاهله (بدأها وهو في السابعة من عمرة) مع بطانة من الضباط المساعدين، والموسيقيين، والخدم، ويخت راس في خليج سان فرانسيسكو وأسطول من السيارات. يا للمفاجأة التي يقع فيها أولئك النقباء والرواد والملازمون والرقباء والمدربون والأساتذة. فذلك العصفور التروبيكالي يصل إلى أكاديمية فورت ليفينوورث العسكرية ليتبع دورة فيها وهو يحمل من الأوسمة والألقاب ما لم يحصل عليه إيزنهاور في حياته. كيف يعاملونه؟ كيف يسمحون له بالتمتع بتلك الامتيازات دون أن يحطوا من سمعة الأكاديمية والجيش الأمريكي؟ هل من الممكن غض النظر عن هرب الوريث أسبوعا بعد آخر من كنساس سيتي الاسبارطية(الصارمة) إلى هوليود الصاخبة، حيث يقوم مع صديقه بورفيريو روبيروسا بدور البطولة في حفلات مجون مليونيرية مع فنانات مشهورات تعلق عليها بهذيان صحافة أخبار الفنانين والاشاعات؟ وقد كشفت لويللا بارسونز، أشهر صحفيات لوس أنجلوس، أن ابن تروخييو قد أهدى سيارة كاديلاك آخر موديل إلى كيم نوفاك ومعطفا من فرو النمس إلى زا زا غابور. وقدر عضو ديمقراطي في الكونغرس، في جلسة للمجلس، بأن تلك الهدايا تكلف ما يعادل المساعدة العسكرية السنوية التي تقدمها واشنطن بظرافة إلى دولة الدومينيكان، وتساءل عما إذا كانت تلك هي أفضل طريقة لمساعدة البلدان الفقيرة ومقاومة الشيوعية وإنفاق أموال الشعب الأمريكي.

كان من المستحيل تفادي الفضيحة. في الولايات المتحدة بالطبع، وليس في جمهورية الدومينيكان حيث لم تنشر ولم تقل كلمة واحدة حول لهو رامفيس. أما هناك، في الولايات المتحدة، ومهما كان ما يقال، فيوجد رأي عام وصحافة حرة، والسياسيون يسحقون إذا ما أظهروا خاصرة ضعيفة. وهكذا، وبناء على التماس الكونغرس، قطعت المساعدة العسكرية. هل تتذكر كل ذلك يا أبي؟ وأعلمت الأكاديمية العسكرية بصورة متكتمة وزارة الخارجية الأمريكية، وهذه بدورها أعلمت **الجنراليسمو** بصورة أكثر تكتما، بأنه ليس هناك أدنى احتمال بأن ينجح ابنه في الدورة، وحيث أن صفحة خدمته بمثل تلك الكفاءة، فمن الأفضل أن ينسحب بنفسه ليتجنب إذلال الطرد من أكاديمية فورت ليفينوورث العسكرية.

لم يرق للأب عمل مثل تلك اللعبة الخبيثة مع رامفيس المسكين، أليس كذلك يا أبي؟ فهو لم يفعل أكثر من مضاجعة إحداهن ليرى كيف يكون رد فعل الأمريكيين المتزمتين. وكإجراء انتقامي، أراد زعيمك طرد ممثلي الولايات المتحدة البحري والعسكري، واستدعى السفير

للاحتجاج. وكان على أصدقائه المقربين، باينو بيتشاردو، وأنت نفسك، وبالاغير، وتشـــيرينوس، وأرالا، ومانويل ألفونسو أن يقوموا بالمعجزات لإقناعه بأن القطيعة ستسبب أضرارا هائلة. هـــل تتذكر؟ المؤرخون يقولون إنك كنت أحد من حالوا دون تسمم العلاقات مع واشنطن بسبب مـــآثر رامفيس. لقد توصلت إلى ذلك وسطيا فقط يا أبي. فمنذ ذلك الحين، منذ تلك التصرفات المتماديـــة، أدركت الولايات المتحدة أن ذلك الحليف صار عقبة، وأنه من الأفضل البحث عن شـــيء أحســـن مظهرا. ولكن، كيف انتهى بنا المطاف إلى التحدث عن ابن زعيمك المدلل يا أبي؟

يرفع المشلول كتفيه ويخفضهما وكأنه يرد: «وما أدراني أنا، أنت تعرفين كيف». هل يفهم إذن؟ لا. أو أنه لا يفهم طوال الوقت على الأقل. النزيف الدماغي لم يقض نهائيا على كل قدراتـــه علـــى الفهم؛ لقد اختزلها إلى عشرة، أو خمسة بالمئة من الحد الطبيعي. هذا الدماغ المحدود، المفتقر، الـــذي يعمل مثل كاميرا بطيئة، هو قادر دون شك على تلقي ومعالجة المعلومة التي تلتقطها حواسه لبضـــع دقائق، وربما ثوان قبل أن تغيم. ولهذا السبب فإن عينيه، وجهه، إيماءاته، مثل حركة الكتفين هـــذه، توحي بأنه يسمع، بأنه يفهم ما يقال له. نتف قليلة فقط، في تشنجات لا إرادية، في إشراقات خاطفـــة، ودون مطابقة. لا تبني أوهاما يا أورانيا. يفهم لثوان ثم ينسى ما فهمه. لـــن تتواصلـــي معـــه. إنـــك تواصلين الكلام وحيدة، مثلما تفعلين كل يوم منذ أكثر من ثلاثين سنة.

ليست حزينة ولا قانطة. ربما تحول دون ذلك الشمس التي تدخل من النوافذ وتضيء الأشياء بنور شديد الحيوية، ضوء يحيط بالأشياء ويكشف تفاصيلها، واشيا بعيوب، بزوال ألوان، بقدم. كم هي بائسة، ومهجورة، وعتيقة الآن حجرة نوم – وبيت – أغوســـطين كـــابرال، رئيـــس مجلـــس السيناتورات المتنفذ في زمن آخر. كيف انتهى بك الأمر إلى تذكر رامفيس تروخييو؟ تفتنها علـــى الدوام هذه المسارات الغريبة للذاكرة، الجغرافية التي تتخذها في خدمة محرضات خفية. آه، أجل، لا بد أن تذكرك له علاقة بالخبر الذي قرأته عشية خروجك من الولايات المتحـــدة فـــي جريـــدة **النيويورك تايمز**. لقد كان ذلك المقال عن الشقيق الأصغر، عن الجلف والقبيـــح راداميـــس. يـــا للخبر! ويا للنهاية. فقد قام كاتب المقال بتحريات دقيقة. لقد كان راداميس يعيش منذ سنوات فـــي بنما، في ضائقة شديدة، منغمسا في أعمال مشبوهة، لم يكن هناك من يعـــرف حقيقتـــها، إلـــى أن اختفى فجأة. لقد جرى الاختفاء في السنة الماضية، ولم تتوصل محاولات أقربائه والشرطة البنمية إلى العثور على أثر له (بينت عمليات التفتيش في الغرفة التي كان يعيش فيها في مدينة بـــالبوا أن ممتلكاته الهزيلة ما تزال هناك). إلى أن أعلن أخيرا أحد كارتيلات المخدرات الكولومبيـــة، مـــن بوغوتا، بالفخامة البلاغية التي تميز أثينا القارة الأمريكية، بـــأن «المواطـــن الدومينيكـــاني دون راداميس تروخييو مارتينث، محل إقامته مدينة بالبوا في جمهورية بنما الشقيقة، أعدم في مكان مـــا من الأدغال الكولومبية، بعد التأكد بما لا يدع مجالا للشك من عدم نزاهته في تنفيـــذ واجباتـــه». وتوضح **النيويورك تايمز** بأن راداميس الفاشل كان يكسب عيشه كما يبدو، منذ سنوات، بالعمل في خدمة المافيا الكولومبية. وقد كان عمله بائسا دون شك، نظرا للحياة المتواضعة التي كان يعيشـــها، فهو يعمل كخادم لزعماء المافيا، يستأجر لهم الشقق، ويأخذهم ويعيدهم من الفنادق، والمطـــارات،

والمواخير، أو ربما يخدمهم كوسيط في تبيض الأموال. أتراه حاول اختلاس بعض الدولارات، لكي يحسن ظروف حياته؟ وبما أنه ضعيف العقل وقليل الحيلة فقد اكتشفوه على الفور. أخذوه مخطوفا إلى أدغال دارين في كولومبيا، حيث هم السادة والمتنفذون. ربما يكونون قد عذبوه بمثل ذلك الحقد الذي عذب به هو ورامفيس وقتلاء في سنة ٥٩، المشاركين في الغزو في كونستانثا ومايمون وإستيرو أوندو، وفي عام ١٩٦١، المتورطين في مأثرة الثلاثين من أيار.

– نهاية عادلة يا أبي – وأبوها الذي كان قد غفا، يفتح عينيه –. من يقتل بالحديد، بالحديد يقتل. لقد تحقق ذلك في حالة راداميس، إذا كان قد مات هكذا. إذ ليس هناك شيء مؤكد. فالمقال يقول كذلك إن هناك من يؤكدون بأنه كان مخبرا لدى وكالة مكافحة المخدرات الأمريكية، وأنها غيرت ملامح وجهه ووفرت له الحماية للخدمات التي قدمها حول رجال المافيا الكولومبيين. إشاعات، تكهنات. ولكن يا لها من نهاية على كل حال تلك التي وصل إليها أبناء زعيمك والسيدة المهيبة. فرامفيس الجميل تمزق في حادث سيارة، في مدريد. وهو حادث يقول البعض، إنه كان من تدبير الـ CIA وبالاغير لقطع الطريق على الوريث الذي كان يتآمر من مدريد، مستعدا لإنفاق الملايين في سبيل استعادة الاقطاعية العائلية. ورادامس الذي تحول إلى شيطان بائس، جرى اغتياله على يد المافيا الكولومبية لأنه حاول سرقة الأموال القذرة التي كان يساعد في تبيضها، أو أنه تحول إلى عميل لوكالة مكافحة المخدرات الأمريكية. أما أنخيليتا، جلالة أنخيليتا الأولى، والتي كنت وصيفتها المرافقة، هل تعرف كيف تعيش؟ إنها الآن في ميامي، وقد مستها حمامة الألوهية. فهي الآن داعية لطائفة «ولادة المسيحية الجديدة». واحدة من آلاف الطوائف الانجليكانية التي تدفع إلى الجنون، والبلاهة، والقلق، والخوف. هذا ما انتهت إليه ملكة وسيدة هذه البلاد. في بيت نظيف وسيئ الذوق، في هجانة متكلفة، غرينغية وكاريبية، منقطعة إلى أعمال التبشير. يقال إنه يمكن رؤيتها في مفترقات ديد كنتري، في احياء اللاتينيين والهايتيين، ترتل مزامير وتحث المارة على فتح قلوبهم للرب. ما الذي كان سيقوله عن كل هذا أبو الوطن الجديد الفاضل؟

يعود الشلول إلى رفع كتفيه وخفضهما، ثم يرمش ويستكين. يغلق جفونه ويتكور، مستعدا لأخذ غفوة.

صحيح، فأنت لم تشعري مطلقا تجاه رامفيس أو رادامس أو أنخيليتا بحقد يمكن مقارنته مع ذاك الذي مازال يبعثه فيك تروخيو والسيدة المهيبة. لأن الأبناء الثلاثة، وبطريقة ما، قد دفعوا بالانحدار أو الموت العنيف ثمن ما يتحملونه من جرائم العائلة. ولم تستطيعي أن تتجنبي بعض العطف تجاه رامفيس. لماذا يا أورانيا؟ ربما بسبب أزماته النفسية، وانهياراته العصبية، ونوبات جنونه، واختلال التوازن ذاك الذي أخفته الأسرة دوما، وبعد عمليات القتل التي أمر بها في حزيران ١٩٥٩، اضطر تروخيو إلى إدخاله إلى مستشفى نفسي في بلجيكا. ففي كل أعمال رامفيس، بما في ذلك أشدها قسوة، كان ثمة شيء كاريكاتوري، مخادع، مثير للشفقة. مثلما هي تلك الهدايا الاستعراضية لممثلات هوليود اللواتي كان بورفيريو روبيروسا يضاجعهن مجانا (إذا لم يجعلهن يدفعن له). أو لطريقته تلك في إحباط المخططات التي كان أبوه يدبرها من أجله. أولم تكن على

سبيل المثال فجة تلك الطريقة التي أحبط بها رامفيس ذلك الاحتفال الذي أعده الجنراليسمو ليعوضه عن فشله في أكاديمية فورت ليفينوورث العسكرية؟ لقد جعل مجلس الشيوخ – «هل أنت من قدم مشروع القانون يا أبي؟» – يعينه قائدا لهيئة الأركان المشتركة للقوات المسلحة، وأن يقدم له ذلك المنصب، لدى وصوله، في عرض عسكري في الجادة الرئيسية، أسفل المسلة. كل شيء كان مرتبا، وكانت القوات مصطفة في ذلك الصباح، عندما دخل اليخت أنخيليتا، الذي أرسله الجنراليسمو لاحضاره من ميامي، إلى المرفأ على نهر أوثاما، وذهب تروخييو بنفسه، يرافقه خواكين بالاغير، لاستقباله في المرفأ واقتياده من هناك إلى منصة العرض العسكري. أي مفاجأة، وأي خيبة أمل استولت على الزعيم عندما دخل إلى اليخت واكتشف الحالة المفجعة، والعطالة اللاعبية التي خلفت فيها رحلة العربدة تلك رامفيس المسكين. لقد تمكن بمشقة من الوقوف على قدميه، ولكنه كان عاجزا عن النطق بكلمة واحدة. كان لسانه الرخو والمتثاقل يطلق زمجرات بدلا من الكلمات. وكانت عيناه زائغتين وزجاجيتين وثيابه ملوثة بالقيء. وأسوأ من حالته كانت حالة أصدقائه والنساء اللواتي يرافقنه. بالاغير يذكر ذلك في مذكراته: شحب لون تروخييو، وارتعش من السخط. وأمر بأن يلغى العرض العسكري وحفل قسم رامفيس كقائد لهيئة الأركان المشتركة. وقبل أن ينصرف، تناول كأسا ورفع نخبا أراده أن يكون صفعة رمزية للأبله (ولكن السكر حال دون أن يدرك ذلك): «نخب العمل، لأنه الشيء الوحيد الذي يجلب الازدهار للجمهورية».

نوبة ضحك هستيري أخرى تجمد أورانيا ويفتح المشلول عينيه مذعورا.

– لا ترتعب – تتخذ أورانيا مظهر الجدية – لا يمكنني منع نفسي من الضحك عندما أتصور ذلك المشهد. أين كنت في تلك اللحظة؟ عندما اكتشف زعيمك ابنه المدلل مخمورا، محاطا بالعاهرات والأصدقاء السكارى مثله؟ هل كنت على المنصة في الجادة، مرتديا الفراك، بانتظار وصول القائد الجديد لهيئة الأركان المشتركة للقوات المسلحة؟ ما التفسير الذي قدمه الزعيم؟ هل ألغي العرض العسكري بسبب دوار رهيب أصاب الجنرال رامفيس؟

وتعود إلى الضحك تحت نظرة المشلول العميقة.

– إنها أسرة تستحق الضحك والبكاء، ولا تستحق أخذها على محمل الجد – تدمدم أورانيا – إنك تشعر أحيانا بالخجل منهم جميعا. وبالخوف وتأنيب الضمير عندما تسمح لنفسك بذلك. أحسب أن أعرف ما الذي كنت ستفكر فيه حول النهاية الميلودرامية لأبناء الزعيم. أو بتلك القصة الدنيئة للسنوات الأخيرة من حياة دونيا ماريا مارتينث، السيدة المهيبة، الرهيبة، المنتقمة، من كانت تطالب صارخة باقتلاع عيون وسلخ جلود قتلة تروخييو. هل تعرف بأنها قد انتهت ذائبة في تصلب الشرايين؟ وأن تلك الطماعة قد سحبت من وراء ظهر الزعيم ملايين وملايين الدولارات؟ وأنها كانت تملك كل الأرقام السرية للحسابات المشفرة في سويسرا، وأنها مع ذلك أخفتها عن أبنائها؟ وقد كان لديها مبرر كبير دون شك. فهي تخشى أن يسلبوا ملايينها ثم يدفنوها بعد ذلك في ملجأ للمسنين تقضي فيه آخر سنوات حياتها دون أن تزعج صبرهم. فكانت هي، بمساعدة تصليب الشرايين، من انتهت إلى الهزء منهم. لقد كنت مستعدة لتقديم أي شيء مقابل رؤية السيدة

المهيبة، هناك في مدريد، مثقلة بالنكبات، وهي آخذة بفقدان الذاكرة. ولكنها بقيت تحتفظ، في أعماق بخلها، بما يكفي من الوعي للامتناع عن كشف أرقام الحسابات السويسرية لأبنائها. ولرؤية جهود الأبناء المساكين في مدريد، في بيت القبيح والجلف راداميس، أو في ميامي، في بيت أنخيليتا قبل تصوفها، لجعل **السيدة المهيبة** تتذكر أين خربشت تلك الأرقام أو خبأتها. هل تتصور ذلك يا أبي؟ يبحثون، يفتحون، يكسرون، يهشمون بحثا عن المخبأ. يأخذونها إلى ميامي، يعيدونها إلى مدريد. ولكنهم لم يتوصلوا إلى ذلك قط. لقد ذهبت إلى القبر مع السر! ما رأيك يا أبي! تمكن رامفيس من تبديد بعض الملايين التي أخرجها من البلاد في الشهور التي تلت موت أبيه، لأن الجنراليسمو سعى جاهدا إلى عدم إخراج قرش واحد من البلاد (هل كان ذلك صحيحا يا ابي؟) لكي يجبر أسرته وأتباعه على الموت هنا، في المواجهة. أما أنخيليتا وراداميس فبقيا في الشارع. وماتت **السيدة المهيبة** – بفضل تصلب الشرايين – فقيرة أيضا، في بنما، حيث دفنها خليل حشي، الذي حملها إلى المقبرة في سيارة تكسي. أتراها أوصت بملايين الأسرة إلى المصرفيين السويسريين! إنها أسرة تستحق البكاء أو الضحك، ولكنها لا تستحق بأي حال أن تؤخذ على محمل الجد. أليس صحيحا يا أبي؟

تقلت من جديد ضحكة أخرى تجعل دموعها تسيل. وبينما هي تمسح عينيها، تتناضل ضد بداية اكتئاب ينمو في داخلها. المشلول يراقبها وقد اعتاد على حضورها. لم يعد يبدو مهتما بمنولوجها.

– لا تظنني قد أصبت بالهستيريا – تهمس –. لم أصب بذلك بعد يا أبي. فهذا الذي أفعله، في الشرود، ونبش الذكريات، لا أفعله مطلقا. فهذه هي إجازتي الأولى منذ سنوات طويلة. لست أحب الاجازات. عندما كنت هنا، في طفولتي، كنت أحبها. ولكنني منذ استطعت الذهاب، بفضل الراهبات، إلى جامعة أدريان، لم أعد أحب الاجازات مطلقا. لقد أمضيت حياتي في الدراسة. في البنك الدولي لم آخذ أي إجازة، وكذلك في مكتب المحاماة في نيويورك. ليس لدي وقت لأقوم بمونولوجات داخلية حول تاريخ الدومينيكان.

صحيح، فحياتك في منهاتن منهكة. كل ساعات يومك منضمة، ابتداء من الساعة التاسعة، حين تدخلين إلى مكتبك عند تقاطع ماديسو و٧٤ ستريت. وحتى ذلك الحين تكونين قد جريت ثلاثة أرباع الساعة في السنترال بارك إذا كان الطقس جيدا، أو مارست الايروبيك في الفيتنز سنتر الذي تشتركين فيه عند الناصية. ويوم عملك هو متوالية من المقابلات، والتقارير، والمناقشات، والاستشارات، والتحريات في الأرشيف، ووجبات العمل في غرفة المكتب الخلفية أو في مطعم قريب، وفترة عمل مسائية مشغولة بالطريقة نفسها، كثيرا ما تمتد حتى الساعة الثامنة. وإذا ما سمح لك الوقت، فإنك تعودين مشيا على الأقدام. فتحضرين سلطة وتفتحين علبة لبن قبل أن تشاهدي الأخبار في التلفزيون، ثم تقرأين قليلا وتندسين في الفراش، وتكونين متعبة إلى حد أن كلمات الكتاب أو صور الفيديو تبدأ بالتراقص قبل انقضاء عشر دقائق. ودائما هناك رحلة او اثنتان في الشهر، ضمن الولايات المتحدة، أو إلى أميركا الجنوبية أو أوربا أو آسيا؛ وهناك في

الفترة الأخيرة رحلات إلى أفريقيا أيضا، حيث تجرأ بعض المستثمرين أخيرا على المجازفة بأموالهم، ولهذا يطلبون استشارات قانونية من مكتب المحاماة. وهذا هو اختصاصك: المظهر القانوني لعمليات تمويل المؤسسات في أي مكان في العالم. وهو اختصاص توجهت إليه بعد أن عملت سنوات طويلة في الإدارة القانونية للبنك الدولي. ورحلاتك متعبة أكثر من أيام العمل في المكتب في منهاتن. فأنت تقضين خمس أو عشر أو اثنتي عشرة ساعة من الطيران، إلى مكسيكو، أو بانكوك، أو طوكيو، أو روالبندي أو هراري، ثم تنتقلين فورا لتقديم أو تلقي تقارير، ومناقشة أرقام، وتقييم مشاريع، مع تبدل في المناظر الطبيعية والمناخ، من الحر إلى البرد، من الرطوبة إلى الجفاف، ومن الإنكليزية إلى اليابانية وإلى الإسبانية وإلى الأوردو، وإلى العربية وإلى الهندية، مستفيدة من مترجمين يمكن لأخطائهم أن تؤدي إلى قرارات خاطئة. ولهذا يجب أن تبقى حواسك الخمس متيقظة طوال الوقت، في حالة تركيز تستنفدك، حتى أنك تكادين أن تعجزي عن كبح التثاؤبات في حفلات الاستقبال التي لا يمكنك تجنبها.

– عندما أحصل على يوم سبت أو أحد لي، أبقى سعيدة في البيت، أقرأ التاريخ الدومينيكاني –تقول ذلك ويبدو لها أن أباها يهز رأسه موافقا –. وهو تاريخ خاص جدا في الحقيقة. ولكنه يريحني. إنها طريقتي في عدم فقدان الجذور. بالرغم من أنني عشت هناك ضعف عدد السنوات التي عشتها هنا، إلا أنني لم أتحول إلى غرينغية. إنني ما زلت أتكلم كدومينيكانية، أليس كذلك يا أبي؟

أيلمع في عيني العجوز الضيقتين بريق ساخر؟

– حسن، دومينيكانية نسبية، واحدة من هناك. ما الذي يمكن انتظاره من واحدة عاشت أكثر من ثلاثين سنة بين الغرينغيين، وتقضي أسابيع دون أن تتكلم بالاسبانية. هل تعرف أنني كنت واثقة من أنني لن أراك مرة أخرى؟ بل إنني لم أكن أريد المجيء لحضور دفنك. لقد كان قرارا حاسما. أعرف أنك تحب أن تعرف سبب كسري ذلك القرار. ولماذا أنا هنا. الحقيقة أنني لا أعرف السبب. لقد كان عملا تلقائيا. لم أفكر به مليا. طلبت إجازة لمدة أسبوع وها أنذا هنا. لا بد أنني جئت أبحث عن شيء ما. ربما عنك أنت. أتقصى كيف هي حالتك. كنت أعرف أنك في حالة سيئة، وأنه لم يعد بالإمكان التحدث معك منذ إصابتك بالنزيف الدماغي. هل تحب أن تعرف ما الذي أشعر به؟ وما شعرت به لدى عودتي إلى بيت طفولتي؟ وماذا شعرت حين رأيت الحطام الذي صرت إليه؟

يعير أبوها انتباهه من جديد. ينتظر بفضول أن تواصل كلامها. ما الذي تشعرين به يا أورانيا؟ المرارة؟ بعض الكآبة؟ الحزن؟ حقد من الغضب القديم؟ وتفكر: «السيئ هو أنني لا أشعر بشيء على ما أعتقد».

يرن جرس الباب الخارجي. ويظل الصوت يتردد، يتذبذب في الصباح القائظ.

تعقيب

حول عراقيتنا الدارجة

سليم عبد الأمير حمدان

قرأت مرة في مقالة لأستاذي علي الشوك تداعياته حول "كفكير" وما قدمه من تفسير لأصولها، وقد أثارت بعض التداعيات عندي.

ثم قرأت له مقالته (خواطر حول اللغة العراقية الدارجة) في (الثقافة الجديدة)* فأثارت تداعيات أخرى، آثرت - استجابة لدعوة محرر أدب وفن - أن أسجل ملاحظاتي عليها:

١ - كفكير: الكلمة فارسية تماما، وهي تكتب وتلفظ كفكير kafgier :وهي كلمة مركبة من: كف (الزبد) و: كير (مخفف: كيرنده): ساحب، آخذ، رافع. أي أنها تعني رافع الزبد، أو آخذ الزبد. ومن الواضح أن الاسم ينطبق تماما على الوسيلة المقصودة وعملها.

وهنا، يحلو لي أن أتبسط قليلا بشأن التخفيف أو الاختصار المشار إليه أعلاه، لعل ذلك يحرك جانبا من جوانب اهتمامات أستاذي، فيتابعه:

تلجأ الفارسية في التراكيب إلى اختصار من هذا النوع، وهي عادة ما تحذف الحروف الثلاثة الأخيرة من اسم الفاعل (نده)، تخفيفا على المتكلم والسامع معا.

٢ - ومن مقالته (خواطر..) أشير إلى ما يلي:

أ - قوله: فمن الهندية استعرنا كلمة (بنكه) التي تقال للمروحة. ولعل الكلمة بالأصل تعني خمسة، أي خمسة أذرع، وهندية الكلمة هنا لا نقاش فيه. ولكن، إذا كان تبرير الأستاذ الشوك - وقد ضعفه بأن سبقه بـ(لعل) - من خمسة، فقد كان الأجدر أن يقول إنها فارسية، لأن (بنج) الفارسية تعني خمسة.

ولكن (بنج) دخلت الهندية دون أن يصيبها تحوير، كما يرد في بعض التسميات للأشياء الخماسية بالهندية، ولعل أشهرها "بنجاب" = المياه الخمسة (وهو اسم إقليم).

* العدد ٢٨٦، كانون الثاني - شباط ١٩٩٩.

وقد قرأت مرة بحثا في الفارسية، في موضوع يشبه موضوع أستاذي الشوك، أرجع الكلمة إلى اسم أول مستورد للمراوح الكهربائية في الهند. قد يكون هذا غير مألوف عندنا، ولكنني وجدت مثل هذا الإسقاط في اللغة الفارسية. فقد دخلت القاموس كلمة "بازار مكاره" = سوق مقاره = معرض بمعنى Fair أو Exhibition وإذا كان الـ(بازار) معروفا، فمن الطريف أن نعرف مكاره تحريف لـ(مكاريف) أو (مكاريوف)، وهو التاجر الروسي الذي حصل على موافقة إقامة أول معرض تجاري في إيران! وأقامه فعلا، فصار اسمه علما على المعارض.

ولمختصي السنسكريتية والفارسية القديمة أن يقرروا ما إذا كانت (بنج) انتقلت من الفارسية إلى الهندية أو العكس.

ب - وقوله:

ومن الروسية انتقلت إلينا كلمات مثل.. والـ"فرفوري".. والفرفوري محرف فغفوري الفارسية.

ولا شك أن أصل الفرفوري من الصين، ولكنني لا أستطيع الجزم بشأن اسمه، أهو صيني بالكامل، تركيب صيني - فارسي، أم فارسي بالكامل، من كلمتي: فغ: الإله (وهو عند قدماء الصينيين إمبراطورهم)، و: فور: الابن (وقد استحالت الآن إلى بور). وعلى ذكر (فغ)، فلا بأس بالتذكير بأن بغدادنا أخذت اسمها منه، فهي: فغ داد (= عطية الإله)، وهو اسم سمعه المنصور فأعجبه وأطلقه على مدينته المدورة. ولنعد إلى الفرفوري:

يصير التركيب، بهذا: ابن الملك، أو الأمير، وألحقت به الياء للنسبة، فصار "ما يخص"، "ما يعود إلى"، الأمير. والسر في ذلك، كما تقول المصادر الإيرانية أن الأواني الصينية الأولى، التي اطلع عليها الفرس - ولا بد، والروس أيضا - كانت تحمل صور أمراء الصين. والذي يعزز صينية الأصل أن هذا النوع من الأوعية يسمى باسم الصيني في الإنكليزية و - ربما في غيرها من اللغات الأوربية - وفي عدد من البلاد العربية.

ج - بلتيقه:

لا جدال في أنها مأخوذة من politic أو politique وأخوتهما، ولكن استعمالها عندنا بمعنى الحيلة أو الخداع والمكر، لا البدعة، وينطبق هذا المعنى على قول الحاج جاسم الشوك أيضا.

د - كنت أتصور "التتكه" تحريف عراقي لـ"تتك" الفارسية، وقد دلني الأستاذ الشوك أنهما معا تنحدران من دك سومرية!

هـ - قوله: و"الشيشه" أي القنينة، بالفارسية شيشه أيضا. أقول إيضاحا إن "شيشه" الفارسية تعني الزجاج لا القنينة.

عسى أن تساعد هذه الملاحظات من دعاهم الشوك إلى التصدي لمهمة دراسة لغتنا العامية منهجيا.

اصـدارات وردتـنا

عبد السلام حلوم: كائنات الرجل، شعر، دار عبد المنعم ناشرون، حلب ١٩٩٩.

لقمان ديركي: وحوش العاطفة، شعر، دار كنعان، دمشق ٢٠٠٠.

علاء اللامي: نصوص مضادة دفاعا عن العراق، مقالات، إصـدار (جمعيـة بغـداد المشـاعية/ صندوق هادي العلوي للتضامن) دار الكنوز الأدبية ٢٠٠٠.

وفاء عبد الرزاق: تفاصيل لا تسعف الذاكرة، دار الكندي، رواية شعرية، الأردن، إربد ٢٠٠٠.


موفق محمد: عبدئيل، شعر، قوس للطباعة، كوبنهاكن ٢٠٠٠.

د. حكمت حكيم: الدساتير العراقية المؤقتة وحقوق المواطن العراقي، دمشق ٢٠٠٠.

نعيم شريف: عن العالم السفلي، قصص، دار الشجرة للنشر والتوزيع، دمشق ٢٠٠٠.

المسـلة: مجلة الثقافة العراقية الحرة، العدد السادس ٢٠٠٠، ساهم في العدد: هاشـم شيشـكلي، أحمد شرهاني، هادي ياسين، علي الدميني، باسم المرعبي، ناصر الحجاج، علـي عبـد الأمير، الدكتور مهدي السعيد، عبد الستار ناصر، فيصل عبد الحسن، حمزة الحمزة، عبـد الغفار الصائغ، سليم مطر، عصام محمد، محمد سعدون السباهي، زعيم الطائي، عدنـان فالح، فرج الحطاب، صباح جميل، ابتسام الجنابي، هادي الحسيني، علي السوداني.

تـموز: مجلة الجمعية الثقافية العراقية في مالمو – السويد، العدد ١٣، شتاء ٢٠٠٠. سـاهم فـي العدد: عدنان الصائغ، ماجد محمد، هيفاء الأمين، حامد العامري، د. كاظم حبيب، علـي حرب، د. عبد العزيز المقالح، حسب الشيخ جعفر، سعد الياسين، كامل الركـابي، سـعد الواسطي، سعد علي، ماريا ليندبيرغ، عبد الأمير جرجس، إبراهيم أحمـد، علـي عبـد العال، غالب الشابندر، صادق التميمي، تحسين المنذري، أسعد راشد، كاظم رشيد، عزيـز توما، رافد سلمان، عباس العلوي، د. جاسم الحافظ، ماجد السيد خلف، أ. سومر.



السعر : خمسة عشر ديناراً